أخبار الزمان

المسعودي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حسبنا ونعم الوكيل

"قال الشيخ أبو الحسن، علي بن الحسين بن علي بن عبد الله الهذلي المسعودي رحمه الله ورضي عنه"

نبتدئ بحمد الله وذكره وشكره، والثناء عليه والشكر له، والصلاة على أنبيائه ورسله وملائكته، ونخص سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وأصحابه، بأفضل صلواته، وأكمل تحياته، وأزكى بركاته.

ثم نذكر ما وقع إلينا من أسرار الطبائع، وأصناف الخلق، مما يكون ذلك مشاكلا لقصدنا، ونصل ذلك بذكر ما يجب ذكره من ملوك الأرض، وما عملوه من عجائب الأعمال؛ وشيدوه من عجائب البلدان ووصفوه من الآلات المستطرفة والطلاسمات المستعملة، وما بنوا من هياكلهم، وأودعوه نواسهم، وزبروه على أحجارهم. على حسب ما نقل إلينا من ذلك.

نبدأ بما جاء من الآثار الشرعية، والملة الحنيفية، ثم نذكر ما روي عن الحكماء الأول المتقدمين، وبالله أستعين، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وقد سميت كتابي هذا بكتاب تاريخ "أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء و العمران" فأنا أقول: "أما بعد" فان الله جل جلاله، وتقدست أسماؤه، خلق خلقه من غير ضرورة كانت منه إلى خلقهم، وأنشأهم من غير حاجة كانت منه إلى إنشائهم. بل خلقهم ليعبدوه، فيجود عليهم بنعمه ويحمدوه، فيزيدهم من فضله فيشكروه ويمجدوه.

كما قال عز وجل" وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين" فلم يزده خلقه إياهم وإيجادهم مثقال ذرة، و لم ينقصه إفناؤهم وإعدامهم وزن شعرة، لأنه سبحانه لا تغيره الأحوال، ولا يدخله الملال، ولا تتقاضى سلطانه الأيام والليال. بل خصهم بأسماع وأبصار، وعقول وأفكار. يصلون بها إلى الحق والباطل، فيعرفون بذلك المنافع والمضار.

وجعل لهم الأرض بساطاً، ليسلكوا منها سبلاً فجاجا، والسماء سقفاً محفوظاً.أنزل منها الغيث المدرار، والأرزاق بمقدار، وأجرى لهم فيها قمر الليل وشمس النهار. يتعاقبان لمصالحهم دائبين.وجعل لهم الليل سكناً، والنهار معاشاً. ومحا آية الليل، وجعل آية النهار مبصرة. ليصلوا بذلك إلى العلم بأوقات فروضهم

التي فرضها عليهم. من الصلاة والزكاة والصيام والحج، وليعلموا عدد السنين والحساب، وحين تحل ديونهم، وتجب حقوقهم.

قال الله عز وجل وعلا:" يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج" وقال" هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق" إنعاماً منه وطولا، وإحساناً منه وفضلا.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:"الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة فقد مضت ستة آلاف ومئون من السنين، وليأتين عليها مئون ليس عليها موحد لله تعالى".

وعن نافع عن ابن عمر، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول" إنما أجلكم في آجال من خلا من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس".

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" بعثت أنا والساعة كهاتين"و أشار بالسبابة و الوسطى.

وفي حديث سهل بن سعد الساعدي قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم" ما مثلي ومثل الساعة إلا كفرسي رهان".

وعن ابن عباس قال" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" أول ما خلق الله القلم خلقه من نور طوله خمسمائة عام، زخلق اللوح المحفوظ من درة بيضاء، حافاته من ياقوت أحمر، عرضه ما بين السماء والأرض، خلقهماقبل أن يخلق الخلق والسموات والأرض. فقال للقلم اكتب ؟ قال وما اكتب ؟ قال أكتب علمي في خلقي الىيوم القيامة، فجرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة، وما هو في علم الله، ينظر الله تعالى في ذلك اللوح كل يوم ثلاثمائة نظرة وستين نظرة فيخلق ويرزق ويحيي ويميت، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد".

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق والسموات والأرض ؟ قال" كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه علىالماء".

وسئل ابن عباس" علىأي شيء كان الماء ؟ قال: على متن الريح فلما أراد الباري جل جلاله أن يخلق الخلق سلط الريح العقيم على الماء فطفت أمواجه وارتفع زبده، وعلا دخانه، وصعد فوق الماء وسما عليه، فسماه الله سماء وجمد الزبد فصار أرضاً فجعل الأرض على حوت، والحوت هو الذي ذكره الله تعالى في كتابه فقال"ن والقلم وما يسطرون "والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة؛ والصفاة على متن الريح، فتزلزلت الأرض فأمر الأمواج فأرست عليها جبالاً جامدة، فاستقرت وثبتت فذلك قوله عز وجل

"وجعل فيها رواسي من فوقها"، "وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم".

قال ابن عباس: اتت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عن ابتداء الخلق فقال" خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق الجبال وما فيها من المنافع يوم الثلاثاء وخلق الماء والشجر و المدائن والعمران يوم الأربعاء فذلك قوله جلت قدرته" قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين إلى قوله سواء للسائلين" وخلق يوم الخميس السماء والكواكب والنجوم والملائكة.

وخلق يوم الجمعة الجنة والنار، وآدم عليه السلام، قالوا: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالو: قد أصبت ، لو أتممت وقلت ثم استراح. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً فأنزل الله عليه"ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وما مسنا من لغوب، فاصبر على ما يقولون".

وقي رواية أسد بن موسى قال" أمر الله تبارك وتعالى السماء أن ترتفع وتسمو، وأمر الأرض أن تنبسط وتنخفض فانبسطت، فدحاها من موضع بيت الله الحرام".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم" الدنيا موج مكفوف، ولولا ذلك لأحرقت الشمس والقمر الأرض ومن عليها، وبين كل سماء والتي تليها خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والعرش مسيرة ألف عام. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هو الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده".

وعن زرارة بن أبي أوفى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال" قلت لجبريل هل رأيت ربك قط ؟ فانتفض، ثم قال يا محمد إن بيني وبينه سبعين ألف حجاب من نور، لو دنوت الى واحد منها لاحترقت".

ولما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم أمر جبريل ان يترل الى الأرض ويقبض القبضة التي خلقه منها، فقالت له الأرض أعوذ بالله منك أن تأخذ مني شيئاً، فرجع الى ربه، وقال يا رب تعوذَت بك مني. فأرسل اسرافيل، فقال مثل ذلك، فارسل ملك الموت فتعوذَت بالله منه، فقال ملك الموت إن ربي أمرني وأنا أعوذ به أن أرجع اليه بغير ما أمرني به.

وروى بعض أهل الأثر أن أول ماأجرىالله الروح في آدم أجراه في رأسه وعينيه قبل سائر جسده، فلما رأى ثمار الجنة أراد النهوض اليها قبل أن تبلغ الروح الى رجليه فلم يستطع فذلك قوله عز وجل "وكان الانسان عجولا" فلما خلق الله آدم عجبت الملائكة منه فأمرهم بالسجود له كلهم، فسجدوا طاعة لله تعالى إلا إبليس فانه تكبر وامتلأ حسداً ومعصية، فغضب الله عليه ولعنه، وكان ذلك سببَ هبوطه الى الأرض.

وأما الحكماء المتقدمون فالهم يقولون: إن الله تعال جمع الدراري في الحمل فجعل الشمس ملكاً، وصير عطارد كالكاتب، والمشتري كالقاضي، والمريخ كالشرطي وكمن يحمل السلاح، والقمر كالخازن،

والزهرة كالصاحبة وزحل كالشيخ المشاور، والجوزهر كالمقوم لأمر الفلك.

وذكرت الأوائل أنه كان في الأرض ثمان وعشرون أمة مخلوقة روحانية ذوات قوة وبطش، وصور مختلفات بحذاء الثمان والعشرين منزلة، لكل منزلة، أمة مفردة.

ويزعمون أن الأمم الماضية، تعالىالله عن قولهم، إنما كان تدبيرها للكواكب الثابتة وهي ألف كوكب وعشرون كوكباً، يقطع كل كوكب منها البرج في ثلاثة آلاف سنة، وهي التي تعمل الأعمال كلها، وبها يكون جميع الأمور.

وقال بعض أهل الأثر: إن الله خلق الأفلاك من بخار وإنه لما صعد انعقد وهي سبعةأفلاك، وفوقها البيت المعمور، وله ثلاثمائة وستون باباً، جعلت درجاًللفلك، وإن كل رحمة وبركةإنما تنزل من تلك الأبواب، مقسومةعلى البروج والكواكب حتى تصير إلى الأرض.

وقالوا إن الله خلق خلقاً هوملء ملكه يسمى الروح، ومن فوقه الحجب وذلك كله داخل في الكرسي. وهو قوله عز وجل "وسع كرسيه السموات والأرض" والكرسي وماحوى داخل في العرش، والعرش وما حوى داخل في علم الله جلت عظمته.

وأعلا الدراري السبعةزحل ثم المشتري ثم المريخ ثم الشمس ثم الزهرة ثم عطارد ثم القمر.

وزعم قوم من الحكماء الأوائل ان الكواكب ملائكة، وانه جعل لها من تدبير العالم ما لم يجعل لغيرها، فلذلك عظموها وعبدوها.

وزعم قوم منهم ان الخلق العالية الذين هم الملائكة اثنا عشر صنفاً بحذاء البروج الاثني عشر، وأنهم يتوارثون، جعل الله فيمن شاء منهم حولاًوقوة يقدر أحدهم أن يكون في صورة تملأالارض عظما، ويقدر احدهم ان يكون في صورة تدخل من خرق الابرة لطفاً، ويغوص في تخوم الأرض والبحار والجبال، لا يمنعه من ذلك مانع، ومنهم من له من الأجنحة مثنى وثلاث ورباع، كما قال الله عز وجل، يلتحقون اقطار الأرض كلمحة البصر، ومنهم مخلوق من النور، ومنهم زرق من نور النار، ومنهم شعاعيون، ومنهم ملائكة الرحمة، ومنهم الحفظة والخزنة.

وهؤلاء مخلوقون من رطوبة الماء وهم حسان الوجوه سمر الالوان، ومنهم مشغولون بعبادة الله لا يعرفون غيرها، وهم في صور لاتحصى.

وقال اصحاب الطبيعة: ان الافلاك لما تم خلقها كانت كالأجسام لكواكبهاوكانت الكواكب كالأرواح لها.

وقال هرمس لما خلق الله عز وجل البروج قسم لها دوامها في سلطانه، فجعل للحمل اثني عشر ألف سنة،

وللثور احد عشر ألف سنة، وللجوزاء عشرةآلاف سنة، وللأسد ثمانيةآلاف سنة، وللسنبلة سبعة آلاف سنة، وللميزان ستة آلاف سنة، وللعقرب خمسةآلاف سنة، وللقوس أربعة آلاف سنة، وللجدي ثلاثة آلاف سنة، وللدلو ألفي سنة، وللحوت ألف سنة، فصار للدور ثمانيةوسبعون ألف سنة، والباقي لسائر الكواكب.

و لم يكن في عدد الحمل والثور والجوزاء حيوان، وذلك ثلاثة وثلاثون ألف سنة، ولا في الأرض عالم روحاني.

فلما كان عالم السرطان تكونت دواب الماء وهوام الارض، ولما استقام الاسد في سلطانه تكونت ذوات الأربع من الدواب والبهائم.

فلما دخل سلطان السنبلة تكون الانسانان أدمانوس وحيوانوس، وكانت الطيور في سلطان الميزان.

واما مقادير الكواكب عندهم. فقالوا ان الشمس اكبر من الأرض بمائة مرة وثلاث وستين مرة، وزحل اكبر من الأرض باحدى وتسعين مرة ونصف مرة، والمشتري بإحدى وثمانين مرة، والمريخ بثلاث وسبعين مرة والزهرة بنيف وستين مرة، وعطارد بثلاث وثلاثين مرة وثلث مرة، والقمر بسبع عشرة مرة وربع مرةوكانت الشمس كالملك والدراري كما ذكرنا.

ومن الفلاسفة من يقول ان الكواكب حية ناطقة حساسة. ومنهم من قال ان لها حاسة السمع والبصر واللمس، وليس لها حاسة الذوق والشم لانها مشتغلة عن ذلك. ومنهم من زعم ان الفلك حي مميز لجميع ما فيه، ذو صورة فكذلك جميع ما فيه بهذه المترلة.

وقالوا إن ضياء القمر مأخوذ من ضوء الشمس، لأنهماإذا اجتمعا لم يكن للقمرنور.

وقال قوم منهم العالم محدث إلا أنه لا يبيد لأنه حكمة وصنعة حكيم، والحكيم لا يفسد صنعته.

ذكر عمر الدنيا

فأما ماذكروه من توقيت الزمان ومدته الى انقضائه، فانهم قالوا فيه أقوالاً لاتسلم لهم، إنماتسمع وتذكر على ما يتعجب منه لا على جهة التصديق به، نعوذ بالله. ففي كتاب السند هند الذي عمل منه المجسطي وغيره من الزيجات أن دوران الشمس من أول سيرها من الحمل انما سيرها ينقضي على ما حسبوه من الآلاف ألف ألف وأربعمائة ألف ألف وعشرون ألف دورة لكل دورة سنة، والسنة ثلاثمائة وخمسةوستون يوماً وربع يوم.

وقالوا إن أصل الدور أربعة آ لاف ألف ألف وثلاثمائة ألف ألف وعشرون ألف ألف عند كل بدء ألف سنة.

وأما أهل الأثر، فزعم قوم أن عمر الزمان الىآدم عليه السلام سبعةآلاف منه، ورواية محمد بن جرير الطبري على ما قدمنا ذكره أن من آدم الى انقضاء الخلق سبعة آلاف.

وذكر طلوع الشمس من مغربها قبل انقضاء العالم.

وقال قوم: إذا بلغ القلب خمس عشرة درجة من الأسد كان طوفان نار يحرق العالم بأسره فلا يبقى على وجه الأرض حيوان ولا في البحار، وتبقى الأرض خراباً من العالم، ثم يستانف الله عز وجل ما أراد في الخلق.

وكان أرسطاطاليس يرى أن الزمان لا يبيد، ولا ينفد. وأن الطبيعة قديمة، وأنه لا أول لها ولا آخر، الله تعالى جل جلاله.

ذكر الأمم المخلوقات قبل آدم عليه السلام

يقال إنه كانت الجملة ثمانياً وعشرين أمة بازاءالمنازل العالية التي يحلها لقمر، لأنه المستولي عندهم لتدبيرالعالم الأرضي باذن الله تعالى جل ذكره، خلقت من أمزجة مختلفة أصلها الماء والهواء والنار والأرض، فهي متباينة الخلق.

ومنها أمة طوال خفاف زرق ذات أجنحة كلامهم قرقعة، ومنها أمة أبدانهم كأبدان الأسد ورؤوسهم رؤوس لها شعور وأذناب طوال كلامهم دوي، ومنها امة لها وجهان قدامها وخلفها وأرجل كثيرة وكلامهم كلام الطير. ومنها الجن. ومنها صفة الجن، وهي أمة قي صور الكلاب لها أذناب وكلامها همهمة لا يفهم.

ومنها أمة تشبه بني آدم أفواههم في صدورهم يصفرون يصفيراً. ومنه أمة في خلق الحيات الطوال لهإذا أجنحة وأرجل وأذناب. ومنها أمة يشبهون نصف شق الانسان لهم عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة يقفزون تقفيزاً، وكلامهم مثل كلام الغرانيق.ومنها أمة لها وجوه كوجوه الناس وأصلاب كأصلاب السلاحف، وفي أيديهم مخالب، وفي رؤوسهم قرون طوال، كلامهم كعوي الذئاب. ومنها أمة لكل واحد منهم رأسان ووجهان كوجوه الاسد طوال لا يفهم كلامهم، ومنهاأمةمدورة الوجوه لها شعور بيض وأذناب كأذناب البقر يزرقون الناس من أفواههم. ومنها أمة في خلق النساء لهم شعور وثدي ليس فيهم ذكر، تلقح من الريح وتلد أمثالها، ولها أصوات مطربة يجتمع اليها كثير من هذه الأمم لحسن

أصواتها. ومنها أم في خلق الهوام والحشرات إلا أنها عظيمة الأجسام تأكل وتشرب مثل الأنعام. ومنها أمة بشبه دواب البحر لها انياب كالخنازير بارزة وآذان طوال.

وبقية الثمان والعشرين أمةعلى خلق لايشبه بعضها بعضاً الا إنها وحشية المنظر، ويقال ان هذه الأمم تناتجت فصارت مائة وعشرين أمة.

ذكر الجن وأجناسهم وقبائلهم

وسئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، هل كان في الأرض خلق من خلق الله تعالى قبل آدم يعبدون الله تعالى ؟ فقال: نعم خلق الله تعالى الأرض، وخلق فيها أمماً من الجن يسبحونه ويقدسونه لا يفترون، وكانوا إذا يطيرون إلى السماء، ويلقون الملائكة، ويسلمون عليهم ويتعلمون منهم الخير، ويعلمون منهم بخبر ما يجري في السماء، ثم إن طائفة من الجن تمردوا وعتوا عن أمر الله عز وجل، وبغوا في الأرض بغير الحق، وعلا بعضهم على بعض، حتى سفكوا الدماء؛ وأظهروا الفساد، وجحدوا الربوبية.وأقام الآخرون المطيعون على دينهم وعبادتهم وباينوا الذين عتوا عن امر الله، وكان يصعد إلى السموات عنها للطاعة، وخلق الملائكة كما قدمنا ذكره روحانين ذوي أجنحة يطيرون بها حيث صيرهم الله تعالى، وأسكنهم ما بين اطباق السموات يسبحونه ويقدسونه لا يفترون حتى اصطفى الله تعالى منهم الملائكة فكان أقربهم منه اسرافيل، ثم ميكائيل ثم جبرائيل صلوات الله تعالى وسلا مه عليهم أجمعين.

فصل

وأما الجن فذكرت الهند والفرس واليونان ولادات الجن وقبائلهم وأسماء ملوكهم، وزعموا أنهم مفترقون على إحدى وعشرين قبيلة، وبعد خمسة آلاف سنة ملكوا عليهم ملكاً منهم، يقال له الملك شمائيل ين أرس جن، ثم افترقوا فملكوا عليهم خمسة ملوك فأقاموا بذلك دهراً طويلاً، ثم أغار بعض الجن على بعض، وكانت بينهم وقائع كثيرة وحروب شديدة وكان إبليس منهم، وله أسماء كثيرة باختلاف اللغات غير أن اسمه بالعربية الحارث ويكنى أبا مرة. عظيم الخلق مطيقاً وكان يصعد إلى السماء ويقف في صفوف الملائكة، ويجتهد في العبادة، فلما بغى بعض على بعض وكانت تلك الحروب بينهم اهبط إلى الأرض في جند من الملائكة فهزمهم وقتلهم، وجعل ملكا غلىالأرض فتجبر وطغا، وكان امتناعه من السجود لآدم عليه السلام. كما أنبأنا الله عز وجل في كتابه، فاهبط في أقبح صورة وأشدها تشويها فأنكره جميع قبائل الجن واستوحشوا منه. فلما رأى ذلك سكن البحر، وجعل له عرشاً على الماء ثم جعل له ولادة كما جعلت لآدم عليه السلام. فألقيت عليه شهوة السفاد وجعل لقاحه كلقاح الطير، وبيضه كبيضه.

وذكر بعض العلماء صنوف الجن فزعم أن الشياطين خمس وثلاثون قبيلة وأن الذين يطيرون في الجو خمس عشرة قبيلة وان الذين مع لهب النار عشر قبائل وأن مسترقي السمع ثلاثون قبيلة، ولهذه القبائل كلها ملوك من كل قبيلة لدفع شرهم.

وحكي أن صنفاً من السعالي يتصورن في صور النساء الحسان ويتزوجن برجال الانس كما حكي عن رجل يقال سعد بن جبير، أنه تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم ما هي؛ فأقامت عنده وولدت عنده أولاداًوكانت معه ليلة على سطح يشرف على الجبانة، إذا بصوت في أقصى الجبانة نساء يتألمن فطربت وقالت لبعلها أما ترى نيران السعالي شأنك وببنيك استوص بهم خيراً فطارت فلم تعد اليه.
ومنهم من تظفر بالرجل الخالي في الصحراء أو الخراب، فتأخذه بيده فترقصه حتى يتحير ويسقط فتمص دمه.
ومنهم صنف لا تفارق صور الحياة وربما قتلها الرجل فهلك. يحكى ان فتى من الانصار قريب عهد بعرس استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تقدمه يوم الخندق وأن يلم بأهله فأذن له فلما انتهى إلى مترله وجد امرأته قائمة بالباب فأدركته غيرة وأهوى إليها برمحه، فقالت له لا تعجل وادخل حتى تنظر ما على فراشك، فدخل فرأى على فراشه حية عظيمة، فطعنها برمحه فقتلها، فمات هو من ساعته.
وتذكر العرب عن عبيد بن الابرص الاسدي أنه خرج في سفر له يريد الشام مع نفر، فلما صار ببعض الطريق إذ هو بشجاع يلهث عطشاً وخلفه حية سوداء تطرده، فترل فقتل الحية السوداء وحل إدواته ونضح على الشجاع من الماء فشرب وانساب حتى دخل جحره، ومضى عبيد حتى قضى حوائجه بالشام.
فلما انصرف أغفى وهو في مفازة فلما انتبه وجد قلوصه قد ضل، وهو على غير الطريق فأقام مكانه فلما جنه الليل إذا بهاتف يقول:

يا صاحب البكر البعيد مذهبه	ما عنده من ذي رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا نركبه	حتى إذا الليل تولى غيهبه
واقبل الصبح ولاح كوكبه	فبعد حط رحله نستلبه

فلما سمع عبيد ذلك من الهاتف التفت، فاذا عنده بكر كأحسن ما يكون فركبه فسار به بقية ليلته فاصبح في مترله، وكان بينه وبين مترله إحدى وعشرون مرحلة فترل عنها وأنشأ يقول:

يا صاحب البكر قد أنجبت من عطب	ومن حمام يضل المدلج الهادي

ارجع حميداً فقد اوليتنا مننــاً جوزيت من رائح بالخير أو غادي

فأجابه البكر:

أنا الشجاع الذي ألفيتني رمضاً في مَهْمَه نازح عن أهله صادي

فجدت بالماء لما ضن حامله رويت منه ولم تلمم بأنكاد

الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما اوعيت من زاد

ثم قال إن الاسود الذي رأيته يطردني عبد من عبيدي أراد قتلي فكفيتني شره، وأرويتني من ظمئي ولن يضيع الخير واستخلف الله عليك.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أكثر الحيوان الداجن صفة الجن، وان الكلاب من الجن، فاذا راوكم تأكلون فألقوا إليهم من طعامكم، فان لهم أنفساً - يعني ياخذون بالعين.

والعرب تذكر راكباً على جمل في قدرالشاة وفد عليهم بسوق عكاظ نادى ألا من يهبني ثمانين بكرة هجاناً وأدماً فلم يجبه أحد. فلما رأى ذلك ضرب جمله وطار به بين السماء والأرض كالبرق، فعجبوا منه.

فحدثهم رجل قال: لقيت رجلاً في بعض المفارز راكباً على نعامة وعيناه مشقوقتان بطول وجهه، فأخذتني منه روعة ثم استوقفته فقلت له: اتروي شيئاً من الشعر ؟ قال: نعم وأقرضه، وأنشدني:

أتاركة تحيتها قطام وضنا بالتحية و السلام

حتى أتى على آخرها فقلت له: هيهات سبقك إليها أخو بني ذبيان، فقال: أنا والله يأخي، نطقت بها على لسانه بسوق عكاظ، وكنت قلتها قبل ذلك بأربعمائة عام.

ويقال إن الله تعالى خلق ألفاً وعشرين أمة حذاء الكواكب الثابته منها في البحر ستمائةأمة، ومنها في البر أربعمائة أمة وعشرين أمة، أحسنها الانسان وأتمها وأحبها إلى الباري سبحانه وتعالى وأفضلها، فانه خلق على صورة إسرافيل عليه السلام وهو أقرب الملائكة الى الله تعالى.

وفي التوراة خلق الله تعالى آدم على صورته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ وفي الحديث "لا تضربوا الوجوه فإنها غلىصورة إسرافيل عليه السلام" وفي الحديث " لا تلجوا بالنظر إلى وجوه المرد فان فيها لمحات من الحور العين".

ويقال أن في الإنسان من كل الخلق، فلذلك سخر له جميع الحيوان وسلط عليها فاقتنصها وذللها، وسخر أكثرها وجمع له المأكول من النبات والحيوان البهيمي والوحشي وغيره، وله خلقت اللذات جميعاً، وعمل

بهذه الأعمال.
وله المنطق والضحك، والفكر والفطنة، واختراعات الأشياء، وله خاطب الباري عز وجل، وعليه وقع الأمر و النهي.
والإنسان هو الذي استنبط الأشياء وجمع العلوم، وعمل الآلات، وأثار المعادن، وأخرج ما في قعور البحار، وسخر له كل شيء.
ومن العجائب خلق النسناس وهو كمثل نصف الانسان بيد واحدة ورجل واحدة، ويثب وثباً ويعدو عدواً شديداً، وكان ببلاد اليمن، وربما كان ببلاد العجم، والعرب تصيده وتأكله. وفي بعض أخبارهم أن سيارة وقعوا في أرض كثيرة النسناس، فصادوا واحداً وذبحوه وطبخوه وكان سميناً، فلما جلسوا يأكلونه قال أحدهم: لقد كان هذا النسناس سميناً، فقال نسناس آخر، قد اختفى في شجرة بالقرب منهم: إنه كان يأكل السرو فذلك سمن، فنبههم على نفسه فأخذوه فذبحوه. فقال آخر من شجرة أخرى، قد اختفى فيها عنهم: لو كان عاقلا صمت و لم ينطق، فاخذوه وذبحوه. فناذاهم نسناس آخر تخبأ في بعض خروق الأرض: إني قد احسنت فلم أتكلم فأخذوه وذبحوه، وكان لهم فيها قوت. وقيل إنه يغتذي بالثمار والنبات، ويصبر على العطش.
وقيل إن في شرقي القلزم مما يلي في البحر أمة متولدة من صنف من السباع وبني آدم، وجوهها عراض كثيرة الشعر مثل وجوه السباع، وعيونها مدورة بصاصة، وأنيابها بارزة طوال، وآذانها طوال، وأبدانها كأبدان الناس إلا أن لهم أظفاراً كباراً، معقفة محدودة، وليس وراءهم غيرهم. وطعامهم دواب البحر.
ومما يشبه خلق إلا نسا ن أمه يقال لها الواق واق، وهي حمل شجر عظا م لشعورها، ولها أيدي وفروج مثل فروج النساء وألوان، ولأزلن يصحن واق واق، فان قطعت ا حدا هن سقطت ميتة لا تنطق. وفي كتاب الخزانة انه من جاوز أولئك وقع إلى ما هو اعظم منهن وأحسن أعجازا وفروجا ووجوهاً، فإن قطعت أقمت يوماًوبعض آخر، وربما جامعها من يقطعها، وهي تشبه النساء، وأطيب رائحة، وألذ مباضعه، وهذه الأرض أطيب رائحة من الكافور وليس بها إنس.وإنما يحكي ذلك عنها أهل المراكب اذا سقطوااليها، ومنها خلق بحرية على شبه النساء يقال لها بنات الماء، في صورة النساء الحسان، ذوات الشعور البسط، لها فروج عظام وثدي، كلامهم لا يكاد يفهم، ولهم قهقهة. وحكى بعض البحريين ان الريح ألقتهم إلى جزيرة فيها شجر، وأنهار عذبة، وانهم كانوا يسمعون ضوضاة وضحكا، فكمنوا لهن وأخذوا منهن امرأتين فأوثقوهما.وأقامتا مع اللذين أخذاهما يقعان عليهما في كل وقت ويجدان لهما لذة عجيبة، وأن احدهما وثق بصاحبته فأرسلها من وثاقها فهربت إلى البحر و لم يرها بعد ذلك، وبقيت الاخرى، فلما حصلت في المركب رحمها صاحبها فحل وثاقها فحملت منه وولدت له ولداًذكراً، وانهم

ركبوا في البحر، فلما كان بعد ذلك بيوم، ظهرت له وألقت اليه صدفاً فيها در نفيس.قال المسعودي رحمه لله: وقد ذكرنا من أخبار الروحانية، على ما نقل ألينا والله اعلم بخلقه، ومن اشياء كثيرة على طريق التعجب لامن طريق التصديق، فمن قرأ كتابنا هذا فليعلم العذر فيما أوردناه، وبالله التوفيق والتسديد والمعونه والتأييد.

ذكرالارض وما فيها روى ابن عبد الحكم قال: خلقت الأرض على صورة الطائر رأسه وصدره وجناحاه ورجلاه وذنبه.

فالرأس مكة والمدينةواليمن، و الصدر الشام ومصر، والجناح الأيمن العراق إلى الواق الوقواق وأمم السند والهند، والجناح الأيسرناسك ومنسك ويأجوج ومأجوج، وأمم كثيرة والذنب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس والبحر الأسود.

وفي الحديث "ان الله عز وجل خلق مدينتين واحدة في المشرق واسمها جابلقا، وأخرى في المغرب واسمها جابرضا، طول كل مدينة عشرة آلاف فرسخ، لكل مدينة منها عشرة آلاف باب، بين كل بابين فرسخ، للباب كل ليلة عشرة آلاف رجل لا تلحقهم النوبة إلى يوم القيامة، وانهم يعمرون سبعة آلاف سنة ألا ما دونها ويأكلون ويشربون ويتناكحون، وفيهم حكم كثيرة ولهم خلق عظام تامة، وان هاتين المدينتين خارجتين من هذا العالم لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يعرفون آدم ولا إبليس، يعبدون الله تعالى ويوحدونه وان لهم نوراً يسعون فيه من نور العرش من غير شمس ولا قمر".

وروي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال" مر بي جبريل عليه السلام ليلة أسري بي عليهم فدعوتهم إلى الله تعالى فأجابوني فمحسنهم مع محسنكم ومسيئهم مع مسيئكم".

روى وهب بن منبه بإسناد له عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال"إن الله تعالى ثمانية عشر ألف عالم الدنيا منها عالم واحد، وما العمران في الدنيا إلا كخردلة في كف أحدكم".

وقال بعض أهل الأثر فيما رواه: إن الله عز وجل دابة في مرج من مروجه، والمرج في غامض علمه رزقها في كل يوم، مثل رزق العالم بأسره. سبحان القادر على كل شيء.

ذكر البحر المحيط وما فيه من العجائب

ويقال إن فيه عرش إبليس لعنه الله فوق البحر المظلم يتشبه بالباري عز وجل، ويحمله نفر من الأبالسة والعفاريت العظام لحمله، ويحيط به عفاريت من الجن الذين هم في طاعته فمنهم من في لجحه لا يفارقه، ومنهم من يتصرف عن أمره، وإنه لا يزول مرتبته إلا إلى من يطمع في فتنته أو عبد صالح يريد كيده،

والباقون من أعوانه الذين يسعون إلى الناس ويضلوهم، وسجنه في جزيرة منه يحبس فيه من خالفه من الجن والشياطين.

وفيه هيكل سليمان النبي عليه السلام، وفيه جسده وهو قصر عجيب في جزيرة، وفيه مواضع لا تزال على مر الزمان ترمي ناراً ترتفع على مائة ذراع وفيه أسماك طول الحوت مدة أيام، وكل صورة عجيبة مختلفات الأشكال والصفات الملونة في كل لون من الألوان.

وفيه مدائن تطفو على الماء وتغيب عنهم.

وفيه الثلاثة أصنام التي عملها أبرهة أحدها أصفر يومئ بيده كأنه يخاطب من جاوزه، ويأمره بالرجوع. والصنم الثاني أخضر رافع يديه باسط لهما كأنه يريد إلى أين تذهب، والصنم الثالث اسود مفلفل الشعر يومئ بأصبعه إلى البحر: من جاز هذا المكان غرق، مكتوب على صدره"هذا ما صنع أبرهة ذو المنار الحميري لسيده الشمس تقرباً إليه".

وحكي أن فيه كالحصون ترتفع على الماء، ويظهر منها الصور الكثيرة وتغيب في الماء.

ويقال إن عمق هذا البحر يختلف، فمنه ما لا يلحق قعره ولا يدري، ومنه ما يكون سبعة آلاف باع وأكثر وأقل، ومنه ما يكون فيه شجر كالمرجان.

وأما البحر الأسود الزفتي وهو متصل به وهو شديد النتن، وليس فيه غير القلعة الفضية، قيل إنها معمولة، وقيل إنه خلقة.

ويخرج من هذا البحر بحر الصين أوله من بلاد الغرب، بحر فارس إلى بلاد الصين، وهو بحر ضيق فيه مغايص اللؤلؤ.

وقيل إن فيه أثني عشرة ألف جزيرة، وثمانمائة جزيرة وفيه الدردور موضع يدور فيه الماء فاذا سقط فيه مركب لم يزل يدور فيه حتى يتلف، وفيه كسير وعوير وهما جبلان.

وفي هذا البحر عجائب كثيرة وصور شتى وحيتان ملونة، منها ما يكون طوله مائة ذراع ومائتي باع وأقل وأكثر يأكل بعضها بعضاً.

وفيه جزائر تنبت الذهب وبها معادن الجواهر، وفيه ثلاثمائة جزيرة عامرة مسكونة فيها ملوك عدة.

ويقال إن في هذا البحر قصراً من البلور، على قلعة تضيء طوال الدهر بقناديل فيه لا تنطفيء.

وبعد هذا بحر لا يدرك عمقه، ولا يضبط عرضه، تقطعه المراكب بالريح الطيبة في شهرين وأكثر، وليس في البحر المحيط أكبر منه ولا أشد هولا، وفيه من جميع المعادن من الزمرد ومنابت القنا والخيزران، وفيه أيضاً كل سمكة يكون طولها أربعمائة ذراع وأقل وأكثر، وسمكة صغيرة بقدر الذراع فإذا طغت هذه السمكة وبغت وآذت سمك البحر ومراكبه سلطت عليها هذه السمكة الصغيرة فصارت في أذن هذه

الكبيرة فلا تفارقها حتى تقتلها، وربما لم تقرب الكبيرة ذلك الموضع خوفاً من الصغيرة.
وفيه سمكة يحكي وجهها وجه الإنسان تظهر في الماء، وفيه أسماك طيارة تطير ليلاً وترعى الندا، فإذا كان قبل طلوع الشمس رجعت إلى البحر.

وفيه سمكة تكتب مرارتها الكتابة فتقرأ بالليل.
وفيه سمكة خضراء دسمة من أكل منها اعتصم عن الطعام أياماً كثيرة لا يريد ذوقه.
وفيه سمكة لها قرنان كأنهما قرنا السرطان، يرميان بالليل نارا.
وفيه سمكة مدورة يقال لها المصح فوق ظهرها كالعمود، مستحد الرأس لا تقوم لها سمكة في البحر، لأنها تلقاهن بهذا القرن فتقتلهن، وربما نقبت به المراكب، وقرنها أصفر كالذهب مجزع، يقال إنه ضرب من الحوت.
وفيه سمكة يقال لها هفس من صدرها إلى رأسها مثل الترس يطيف به عيون تنظر بها ورأسها طويل مثل الحية في طول عشرين ذراعا بأرجل كثيرة مثل أسنان المنشار من صدرها الى آخر الذنب، فليس تتصل بشيء إلا أتلفته ولا ينطوي ذنبها على أحد إلا أهلكته، ويقال إن لحمها يشفي من كل ألا وصاب، وقليل ما يوجد وفيه عنبر.
وبحر آخر يقال هركند فيه جزائر كثيرة وفيه سمك ربما ينبت على ظهره الحشيش والصدف، وربما أرسا عليها أصحاب المراكب فيعتقدون أنه جزيرة فإذا فطنوا به أقلعوا عنها وربما نشر هذا السمك أحد جناحيه الذي في صلبه، فيكون كالجبل العظيم، وإذا رفع رأسه من الماء فيكون كالجبل عظماً، وربما إذا رفع أذنيه فيكون مثل المنارة العظيمة، فإذا سكن البحر جر السمك بذنبه ثم فتح فمه فيترل السمك الى حلقه كأنه يترل إلى بئر، ويقال له العنبر طوله ثلاثمائة ذراع.
واهل المراكب يخافون منه، فهم يضربون بالليل بالنواقيس مخافة إن يتكئ على المركب فيغرقه.
وفيه حيات عظام تخرج إلى البر فتبتلع الفيلة، وتلتف على صخور في البر فتتكسر في أجوافها ويسمع لها صوت هائل، وفيه حية يقال لها الملكة لا تظهر إلا مرة واحدة، وربما احتال فيها ملوك الزنج فأخذوها وتطبخ حتى يخرج ودكها ويدهن به الملك فتزيد في قوته ونشاطه ويستعمل من جلود هذه الحية - وهي منمرة -فرش إذا جلس عليها صاحب السل ذهب عنه السل، ومن جلس عليه أمن السل أن يصيبه أبدا.
وريح هذا البحر من قعره، وربما ألقى عند اضطرابه ناراً لها ضوء شديد.
والبحر الرابع يقال له دوانحد وبينه وبين بحر هركند جزائر كثيرة، يقال إنها ألف وتسعمائة جزيرة، ويقع بين هذه الجزائر عنبر كثير وهذا العنبر ينبت في قعر البحر نباتاً، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره،

فيرتفع مثل الرمل والحمأة، وهو عنبر دسم.

وقرأت في كتاب الطيب الذي ألفه إبراهيم بن المهدي، أن أحمد بن حفص العطار قال كنت في مجلس أبي اسحق وهو يصفي عنبراً قد أذابه، وقد أخرج ما كان فيه من الحشيش الذي على خلقه مناقير الطير، فسألني فقلت هذه مناقير الطير الذي يأكل العنبر إذا راثته دوابه، فضحك أبو اسحق وقال هذا قول تقوله العامة. ما خلق الله دابة تروث العنبر، وما العنبر إلا شيء يكون في قعر البحر.

ولقد عني الرشيد بالمسألة عن العنبر، فأمر حماداً البدوي في البحث بالمسألة، فكتب إليه أن جماعة من أهل عدن أعلموه أنه شيء يخرج من عيون في قعر البحر تقذفه الريح بالأمواج، كما تخرج أرض هتبة القار وهي أرض الروم الزفت الرومي.

وآخر جزائر هذا البحر بسرنديب في بحر هركند وهي رأس هذه الجزائر كلها، وفي سرنديب أكثر مغايص اللؤلؤ ونبات الجوهر، وببحر سرنديب طرق بين جبال، وهي مسالك لمن أراد بلاد الصين، وفي جبال هذا البحر معادن ذهب فيه أيضاً مغايص اللؤلؤ، وفيها بقر وحشية وخلق مختلفة الصور، ويسلك من هذا البحر إلى بلاد المهراج وربما أظلت السحاب هذا البحر يوماً وليلة، ولا ينقطع عنه المطر ولا تظهر حيتانه ودوابه، وتخرج منه إلى بحر الصنف، وفيه يكون شجر العود وليس فيه أحداً يعرفه ورأسه تخرج من قرب الظلمة الشمالية وتمر أيضاً على بلاد الواق.

وفيه ملك الجزائر الذي يدعى المهراج، وله من الجزائر والأعمال ما لا يحصى كثرة، ولو أراد مركب من مراكب البحران أن يطوف بجزائره في سنين كثيرة لم يقدر أن يطوفها، ولملكه جميع أفاويه الطيب والكافور والقرنفل والصندل والجوزة والبسباسة والقاقلة والعود، وليس لملك من الملوك ما لملك هذا البحر من أصناف الطيب، ويقال إن فيه قصراً أبيض يسير على الماء ويتراءى لأصحاب المراكب في السحر فيتباشرون به إذا هم أبصروه ويكون لهم دليل السلامة والربح والفائدة.

وفيه جزيرة برطايل، فيها جبال مسكونة يسمع فيها بالليل والنهار العزف والطبول والأصوات المنكرة ووجوه أهلها مثل المجان المطرقة، وهم مخرقو الآذان وأكثر البحريين مجمعون على أن الدجال فيها، ومنها يخرج إذا بلغ منتهاه.

وفيها يباع القرنفل، ويشترونه التجار من قوم لا يبصرونهم وفيه البراقية وهي مدينة لطيفة من حجر أبيض براق يسمع فيها ضوضاء وأصوات، ولا يرى بها ساكن وربما نزل إليها البحريون وأخذوا من مائها فوجدوه أبيض زلالا حلو الطعم فيه روائح الكافور.

ومنه جزيرة بها مساكن وقباب بيض تلوح وتتزايا للناس فيطمعون فيها وكلما قربوا منها تباعدت منهم

فلا يزالون كذلك حتى ييأسوا منها فينصرفوا عنها.

ويتصل هذا البحر بالواق، ويقول البحريون انهم لا يعرفون منتهاه غير أن أقصاه جبال تتوقد ناراً ليلا ونهاراً يسمع لها قواصف مثل قواصف الرعود من شدة التهابه، وربما سمعوا من تلك النار صوتاً عرفوه يدل على موت ملك من ملوكهم أو كبير من كبرائهم، وبحر هذا الموضع لا يدرك قعره.

وبعد بحر الصنف الذي ذكرناه بحر الصين، وهو بحر خبيث بارد ليس في غيره من البحار مثل برده، ويقال: إن ريحه من قعره، ويقال إنه بحر مسكون له أهل في بطن الماء.

واخبر الثقة من أصحاب البحر انهم يرونهم إذا هاج البحر في جوف الليل كهيئة الريح، ويطلعون إلى المراكب، وليس يكون ذلك الا عند هيجان البحر.

وذكر البحريون أنهم لا يعرفون بعد بحر الصين بحرا يسلك، وهو بحر يغلي كما تغلي القماقم، وليس صفة ما به كسائر البحار.

وفي بحر الصين سمكة مثل الحراقة يرمي بها الماء إلى الساحل، فإذا انجذر الماء بقيت على الطين، فلا تزال تضطرب مقدار نصف نهار، ثم تنسلخ في اضطرابها ذلك، فيخرج لها جناح فتستقل به فتطير.

وزعموا أن عرض بلاد الصين الذي تمر عليه المراكب ألف وخمسمائة فرسخ وفي هذا البحر يرى وجه عظيم على صور الناس إلا أنه أعظم منه، مستدير يشبه لون القمر، يغطي ما بين جبلين وأبواب الصين في البحر بين كل جبلين فرجة.

وقيل إن بمدينة بقمولية وهي القسطنطينية الأولى كنيسة في جوف البحر وربما تنكشف يوماً في السنة فيحج أهل النواحي إليها ويستعدون لها قبل ذلك فيقيمون فيها يومهم ويتفرقون ويهدون إليها بدنهم فإذا كان العصر بدا الماء في الزيادة فينصرفون ويبادرون الخروج عنها ولا يزال الماء يغطيها فتغيب إلى رأس السنة أيضاً.

ويقال إن في بحر الهند حيواناً يشبه السرطان، فإذا خرج من الماء صار حجراً يتخذ منه كحل لبعض علل العين.

وأما بحر المرجان فهو في بحر الأندلس خاصة، ينبت في قعره مثل الشجر فما بعد منه عن درك الغواصين يحتال في قلعه، بأن يربط بالشرايط في كتان القنب، ويثقل بالرصاص ويدلى حتى يصل إلى الشجر، ثم يحرك المركب بالجذب، وتلك منوطة بها يمنة ويسرة حتى يعلم تشبكها في اغصان المرجان، ثم تقلع الشرايط، فيوجد المرجان قد اتخذ، وله نفاق كثير بالحجاز والهند والصين، وفيه عنبر كثير، وفيه سمك من أكل منه رأى كأنه ينكح، وفيه سمك في صور الناس.

خبر تنيس

أما خبر تنيس فكانت جنات وكرومات ومتنزهات وكانت مقسومة بين ملكين من ولد ابريت بن مصر، وكان احدهما مؤمناً، والآخر كافراً، فأنفق المؤمن ماله في وجوه البر حتى باع حصته منها من أخيه، وفرق الذي أخذ بها في وجوه البر فأفلحها، وزاد فيها عروشاً كثيرة، وأجرى فيها انهاراً، وبنى فيها بنياناً، واحتاج أخوه إلى ما في يده فكان يمنعه ويفتخر عليه بما له، من المال والجنة فخاطبه أخوه في بعض الأيام مبسطاً عليه، فقال له: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً، فقال له أخوه: فما أراك شاكراً لله تعالى على ما أعطاك، ويوشك أن ينزع ذلك منك، ويقال إنه دعى عليه فغرق ماء البحر جميع ما كان له في ليلة واحدة حتى كأن لم يكن قبل ذلك. وقيل إن هذين الرجلين اللذين ذكرهما الله تعالى في كتابه فقال: "واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين إلى قوله أحداً" وكانت تنيس عظيمة، لها مائة باب وباقي ذكرها عند ذكر مدائن مصر إن شاء الله تعالى.

وقيل إن بحيرة تنيس تعذب وقت مجيء النيل وتقيم ستة أشهر حلوة ثم تملح وبالقرب منها عين لا يخرج ماؤها إلا عند أوقات الصلوات فيتوضأ منها ثم تفيض لذلك عند وقت كل صلاة، وهي معروفة تسمى عين الأوقات.

ولأهل الهند نهر عظيم معهم عليه شجرة باسقة من حديد أو نحاس، وتحتها عمود من نحاس أو حديد مثبت في الأرض مائل إلى الماء طوله على الأرض عشرة أذرع وعرضه نحو الذراع، ويزيد قليلاً، في رأسه ثلاث شعب غلاظ مستوية محدودة كالمنار، وعنده رجل يقرأ كتاباً ويقول للنهر: يا عظيم البركة، وسيل الجنة، أنت الذي خرجت من عين الجنة، ودللت للناس عليها، فطوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى نفسه على هذا العمود، فينتدب الواحد لذلك والعدة ممن حوله ويصعدون على تلك الشجرة، ويلقون أنفسهم على العمود فيقطعون قطعاً ويقعون على الماء فيدعون لهم أصحابهم بالطوبى والمصير إلى الجنة واللذة.

ولهم نهر مكران الذي مد النيل فيما ذكروا منه، وقالوا إنه يخرج من الجنة، وإنه لو لم ينجس بالذنوب لمإذا كان يموت من شرب منه.

ولهم نهر آخر من سنتهم أن يحضره رجال بأيديهم سيوف قاطعة، فإذا أراد الرجل من عبادهم أن يتطهر ويتقرب إلى الباري سبحانه، أتى في جماعة يأخذون ما عليه من الحلى واللباس وأطواق الذهب والأسورة والقراطق لأن أبناء الملوك كثيراً ما يخرجون إلى هذا النهر ثم يطرحونه على لوح عظيم ويأخذون بأطواقه ويضربونه بسيوفهم ويقطعونه نصفين فيلقون أحد النصفين في هذا النهر والنصف الآخر في بحر كند

ويزعمون أن هذين النهرين يخرجان من الجنة.

وفي جبال سرنديب وادي الماس وهو بعيد القعر وبه حيات عظام مؤذية فإذا أرادوا إخراج الماس طرحوا فيه ما أمكنهم لحماً حاراً طري السلخ، فترى نسور تلك الجهة وهي به كثيرة، ذلك اللحم فتنقض عليه وتأخذه وترفعه إلى حيث تأكله خوفاً من حيات الوادي، فيقصد طالب ذلك إلى موضع المأكول فيجدون بها ما تعلق باللحم من الماس على قدر العدسة والفولة والحمصة، وأكبر ما يجدونه قدر الباقلا، ويتخذ منه الملوك فصوصاً لخواتم يلبسونها.

وذكر صاحب المنطق أن من الماس حجارة كبار إلا أنه لا يوصل إليها لأجل الحيات التي في ذلك الوادي.

وبالهند وادي القرنفل و لم يدخل إليه من التجار ولا ممن سلك البحار ولا ذكروا أنهم رأوا شجرة، وإنما تبيعه الجن فيما يقولون للناس يرسون بالمراكب في جزيرتهم، ويجعلون بضاعتهم على الساحل ويعودون إلى مراكبهم فيكونون بها، فإذا أصبحوا جاءوا فوجدوا إلى جانب كل بضاعة جزءاً من القرنفل وربما ترك البضاعة والقرنفل إذا طلب الزيادة فربما يزاد فيه.

وذكر عن بعض الناس أنه طلع إلى الجزيرة وأمعن فيها فرأى قوماً صفراً بغير لحى، في زي النساء، ولهم الشعور فغابوا عنه، وأن التجار أقاموا بعد ذلك مدة يترددون إلى ساحل تلك الجزيرة، فلا يخرج إليهم بشيء من القرنفل، فعلموا إن ذلك من اجل من كان نظر اليهم، ثم عادوا بعد سنين إلى ما كانوا عليه.

ويقال إنه إذا كان رطباً كان حلو المطعم يأكلون منه فلا يمرضون ولا يهربون، وذكر أن لباسهم من ورق شجر عندهم فهم يلتحفونها ولا يعرفها الناس وأما الجزائر فذكر بطليموس أن في البحر الأخضر سبعاً وعشرين الف جزيرة عامرة وغير عامرة، منها جزيرة فيها أمة من بقايا النسناس، ولهم شجر يقال له اللوب يأكلون ثمره ويلتحفون بورقه ويأكلون لحوم الدواب البحرية.

وجزيرة المرجان فيها شجر المرجان في ضحضاح بين الملوحة والعذوبة، وقد اطلعت رؤوساً مشعبة، فإذا سقطت إليها مراكب أخذوا من ذلك المرجان ما قدروا عليه.

وجزيرة في وسطها كالصنم العظيم من حجر أسود براق لا يدرى ما داخله وحوله أموات وعظام كثيرة. وقد كان بعض الملوك سار إليها فلما نزل عليها وقع على أصحابه النعاس، وخدر الأجسام، وضعفت أنفسهم؛ و لم يقدروا على الحركة، فبادر من حضر منهم إلى المراكب، وهلك من أخلد منهم إلى المقام والتخلف.

ويقال إن ذا القرنين لما صار إلى الظلمة مر بجزيرة فيها أمم روؤسهم روؤس الكلاب العظام، بادية أنيابهم، يخرج من أفواههم لهب النار، يخرجون إلى المراكب فحاربوه وحاربهم وتخلص منهم، وسار فرأى نوراً ساطعاً فقصده فإذا هوقد بلغ جزيرة القصر وهذه الجزيرة في وسطها قصر مبني من البللور الصافي على

شاطئ البحر، فأراد النزول بها فمنعه من ذلك بهرام فيلسوف الهند، وعرفه إن من نزل إليها وقع عليه النوم وغرب عنه عقله، و لم يستطع الخروج عنها حتى يهلك.

ويقال انه ظهر بها قوم قد صار لباسهم ورق الشجر، فسأل بهراماً عن مقامهم فيها كيف امكنهم على ما ذكره، فأخبره بهرام إن بها ثمراً إذا أكلوه زال ذلك عنهم.

وذكروا أنه إذا كان الليل ظهر بشرفات ذلك القصر مثل المصابيح تسرج إلى الصبح ثم تخمد نهارها إلى الليل ثم تسرج ايضاً.

وفي هذا البحر جزيرة بيضاء واسعة وبها ماء وشجر وفيها قوم شقر وجوههم فيما وراءهم وهم عراة، وللواحد منهم ذكر وفرج امرأة يتكلمون بمثل كلام الطير وطعامهم من نبات يشبه القطور والكمأة ويشربون من غدران هناك.

وجزيرة التنين فيها جبال وأنهار وزروع وهي عامرة وعلى مدينتهم حصن عالي، وكان بها تنين عظيم قد سام أهلها أقبح سوم فيقال إن الاسكندر وصلها، وإن اهلها استغاثوا به، وذكروا عنه أنه أتلف مواشيهم حتى جعلوا به ضريبة في كل يوم ثورين ينصبوهما قرساً من موضعه فيخرج فيبتلع الثورين ويعود إلى موضعه، ثم يعود من غد، فقال لهم أروني مكانه، فلما أصبح أوقفوا الاسكندر في موضع يشرف عليه ونصبوا له الثوريين، فأقبل كأنه سحابة سوداء وعيناه كالبرق، والنار تخرج من جوفه فابتلع الثورين، وعاد إلى موضعه، فأمر الاسكندر بثورين عظيمين فسلخهما، ثم أمر فملئت جلودهما زفتاً وكبريتاً وجبساً وزرنيخاً، ومزج تلك الاخلاط كلاليب حديد وأجسادا، ثم نصبها في ذلك الموضع، فأقبل التنين على عادته فابتلعها ومضى لوجهه، فيم يلبث الا قليلاً فاضطربت تلك الاخلاط في حلقه فخر مستلقياً لا يملك من نفسه، وفتح فاه ليستروح، فأمر الاسكندر بقطع الحديد فأحميت وجعلت على ألواح من حديد فقذفت في حلقه فمات في الوقت، واستراح أهل ذلك البلد منه وفرحوا لموته وانكفأوا للاسكندر وحملوا إليه من طريف ما عندهم.

وكان فيما حملوه إليه دابة في خلق الارنب وَبرها اصفر يبرق كما يبرق الذهب يسمونه بتراح وفي رأسها قرن واحد أسود، فإذا الأسود والسباع والطيور والوحش هربوا منها، وكذلك كل دابة تراها تهرب منها، وتفر بين يديها.

وفي هذا البحر جزيرة تظهر ستة اشهر وتغيب ستة أشهر بكل من فيها وتعود إلى هيئتها، وقيل إنها جزيرة مدبرة.

وجزيرة ملكان، وملكان دابة عظيمة بحرية، قد استوطنت تلك الجزيرة ولهذه الدابة رؤوس كثيرة، ووجوه

مختلفة، وأنياب معقفة، وليس لها طعام إلا ما تصيده من دواب البحر.
وقيل الها مركب لبعض ملوك الجن من أهل البحر، لأن لها جناحين إذا أقامتهما، وجمعت بين رأسيهما صارا كأفهما رف يلتبس بظل من الشمس..وذكرها الأوائل، وزعموا أها بقدر الجبل، وجزيرة ملكان فيها أمة مثل خلق الإنسان إلا أن رءوسهم مثل رءوس الدواب يغوصون في البحر ويخرجون بما قدروا على إخراجه من دواب البحر فيأكلونه.

وجزيرة صيدون، وصيدون هذا ملك وهذه الجزيرة مسيرة شهر في مثله، وكان بها عجائب كثيرة وأشجار وأنهار، وكان في وسطها مجلس على عمد مرمر ملون، وكان المجلس من ذهب مفصل بأنواع الجوهر يشرف على هذه الجزيرة وقيل إن هذا الملك كان ساحراً وكانت الجن تطوف به وتعمل له العجائب فدل بعض الجن سليمان عليه السلام عليه فغزاه سليمان وخرب الجزيرة وقتل اكثر أهلها، لأنهم كانوا يعبدونه، وأسر منهم خلقاً كثيراً وآمن به أكثرهم، واسر ابنة لصيدون لم يكن على وجه الأرض في زمانها اجمل منها ولا اكمل كمالاً وظرفاً وحلاوة، فاصطفاها سليمان عليه السلام لنفسه وتزوجها وكانت تديم البكاء والحزن لمفارقتها لملك أبيها وغضارة نعيمها وأنس حشمها وخدمها وأهلها، فقال لها سليمان عليه السلام: ما لي اراك بهذه المترلة من الحزن واتا خير لك من أبيك ملكي اجل من ملكه قالت: اجل، ولكني إذا ذكرت كوني مع أبي وأنسي به هاج لي ذلك وجداً فلو أمرت الشياطين إن يصور والي صورته، فلعلي إذا رأيتها سلوت فأمر سليمان فصوروا لها صورة أبيها في مجلس يشبه المجلس الذي كان فيه، ويقال إن الذي صوره شيطان كان يصحب أباها، وقيل انه هو كان أشار عليها بذلك حتى سألت سليمان عليه السلام ذلك، فأمر الشياطين بعملها فكان في مقاصرها التي اسكنها سليمان عليه السلام في قصر بناه لها، وقد غرس فيه بدائع الشجر وفجر الأنهار في قنوات ذهب وفضه مطوقة بأصناف الجواهر على النعت الذي كان رآه لأبيها في مساكنه، فعمدت إلى تلك الصورة فألبستها أصناف الثياب الفاخرة المنسوجة بالذهب المزينة بأنواع الجواهر، وجعلت على رأسه اكليلاً من الجوهر النفيس، وتوجته بتاج من ذهب منظوم بالجوهر الملون وأجلسته في صدر المجلس وجعلت حوله مخاد الديباج واوقدت بين يديه مجامراً من العود والعنبر، ونثرت عليه سحيق المسك، وفرشت بالبعد منه بحيث تحاذيه أصناف الأفاويه والريحان والزعفران، وكانت تدخل عليه بكرة وعشية، فتسجد له مع جميع وصائفها وخدمها، لما كانت تصنع لأبيها، وخرج الخبر واتصل بآصف بن برخيا، وكان من قراء سليمان عليه السلام وكاتبه وهو الذي كان عنده علم من الكتاب، وهو الذي احضر عرش بلقيس وكان عنده علم موضع المرأة من قلب سليمان وحبه لها فلم يدر كيف يدخل إلى تعريفه بذلك إلى أن اتجه له الأمر في ذلك فقال لسليمان يا نبي

الله: أني سائلك شيئاً. قال: سل. قال أني قد كبرت ولست آمن إن يفجأني الموت، وقد أردت إن اقوم مقاماً اذكر فيه الأنبياء واثني عليهم واصف فضائلهم فلتأمر باحضار الناس وتجمع وجوه بني إسرائيل، فيجلسون في مراتبهم، وتنصب لي منبراً أرقى عليه واتكلم بما يمكن إن يحضرني من الكلام في النحو الذي أريد الكلام فيه ففعل سليمان عليه السلام ذلك.

فقام على المنبر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وأقبل يذكر الأنبياء واحداً بعد واحد، فيثني على من ذكره منهم في صغره وكبره ومدة أيامه إلى أن ذكر داود، فأثنى عليه واستغفر له حتى مات، ثم ذكر سليمان فأثنى عليه في صغره خاصة و لم يذكره بشيء في كبره، ولا ذكر شيئاً من أيامه بخير ولا بشر فأحفظ ذلك سليمان ودعاه لما فرغ فقال له سليمان أخبرني عنك يا آصف سمعتك ذكرت جميع الأنبياء فأثنيت عليهم في أيامهم وفي جميع أحوالهم، فلما بلغت ذكري أثنيت عليّ صغيراً وتركتني كبيراً فلم فعلت هذا ؟ فقال به ذكرت ما علمت، فلما ألح عليه قال وبما استحققت أني أثني عليك في أيامك هذه ؟ فقال له وما الذي صنعت فيها؟ قال لأن غير الله يعبد في دارك منذ أربعين يوماً، وما هذا جزاء نعمته عليك ولا شكر تمليكه لك ما ملكك وأباك من قبلك، فاستغفر سليمان وقال صدقت ودخل فعاقب المرأة وكسر الصنم وهرب شيطانه فظفر به بعد ذلك وحبسه.

ويقال إن ذلك الصنم كان يخاطب المرأة بلسان أبيها، يقول لها قد أحسنت فيما فعلت، وكان يغويها ذلك بالسجود فعنف الله سليمان لذلك، وأخذت الجن خاتمه وخرج من ملكه، وكان يطوف في بني إسرائيل فيذكرونه، ثم سأل الله فرد ملكه وخاتمه بعد أربعين يوماً، وهي عدد الأيام التي سجدت المرأة فيها للصنم وقيل إن المرأة ماتت وكان ولد سليمان عليه السلام منها ومنها جزيرة الرود وهم خلق لهم أجنحة وشعور وخراطيم ضيقة، يمشون على رجلين وعلى أربعة، ويطيرون ويعودون إلى الجزيرة، وقيل إنهم من الشياطين الأول.

ومنها جزيرة القاس وهو دابة ململمة كالكرة تصيح صياحاً شديداً، ولا يدرى من أين يخرج صياحه، ويقال إنها تقيم ستة اشهر في البحر وستة أشهر يكون ظاهراً في تلك الجزيرة، ولا يعرف ما هو ولا أي شيء يأكل، ولا من أي موضع يأكل.

ومنها جزيرة مر بها قوم، وقد هاج عليهم البحر وعظم، فنظروا فإذا شيخ ابيض الرأس واللحية، وعليه ثياب خضر مستلق على وجه الماء، وهو يقول سبحان مدبر الأمور، وعالم ما في الصدور، وألجم البحر بقدرته على أ ن لا يفور، سيروا بين الشمال والشرق حتى تنتهوا إلى جبال الطوق، فاسلكوا وسطها تسلموا من الغرق.

ففعلوا ذلك فإذا هم إلى مدينة بها أمة طوال الوجوه، معهم قضبان الذهب يعتمدون عليها، ويحاربون بها وطعامهم الموز والقسط، فأقاموا عندهم شهراً وأخذوا القضبان الذهب التي عندهم، فلم يمنعوهم، ثم ساروا على ذلك السمت فخلصوا.

ويقال إن الرجل الذي أرشدهم الخضر عليه السلام وإن هذه الجزيرة مكانه وهي وسط البحر الأعظم.

وذكر بطليموس أ ن في بحر الشرق والصين ثلاث عشرة الف وسبعمائة جزيرة، وذكر بعضها.

منها جزيرة سرنديب، يقال إنها ثمانون فرسخاً في مثلها، ونقول أهل الهند إ ن بها الجبل الذي اهبط الله تعالى عليه آدم عليه السلام تراه أهل المراكب على أيام.

وتذكر البراهمة أن عليه قدم آدم عليه السلام مغموسة وهي سبعون ذراعاً وأن على هذا الجبل مثل البرق ليلا ونهاراً فلا يمكن أحد من النظر إ ليه، وأن آدم عليه السلام خطا فيه إلى البحر خطوة واحدة، وهي على مسيرة يومين، وحوله ألوان الياقوت ولأشياء كلها وعليه أصناف العطر والأفاويه، ودواب المسك. أرضه السنبادج، وفي أوديته الماس، وفي أنهاره البلور، وحوله في البحر غوص اللؤلؤ. ويتصل بها جزيرة الرامي، والرامي مدينة بالهند، وبها الكركند، وفيها البقم؛ وعروقه دواء من السم لساعته، وقد جربه البحريون من سم الأفاعي والحيات.

وبها جواميس لا أذناب لها، وناس عراة في غياض لا يفهم كلامهم، وهم متوحشون من الناس، وطول الواحد منهم أربعة أشبار، وللرجل منهم فرج صغير، وكذلك المرأة. وشعورهم زغب احمر، يتسلقون على الشجر من غير أن يستعينوا بأيديهم، وهم يلحقون المراكب سباحة وهم في سرعة الريح يبيعون العنبر بالحديد، ويحملونه في أفواههم، وبقرب من هؤلاء قوم سود، وشعورهم مفلفلة؛يأكلون الناس أحياء إذا ظفروا بهم يشرحونهم تشريحا، ولهم فيها جبل طينه فضة، إ ذا أصابته النار ذاب. ويتصل بها ارض الكافور، وهو شجر نبت بها تظل الشجرة منها مائة إنسان واكثر، تثقب الشجرة فيسيل منها يملأ عدة جرار، ثم يكون ذلك ماء الكافور، والكافور صمغ يخرج على أغصانها قطعا، وخشبها ابيض خفيف.

وفي هذه الجزيرة عجائب كثيرة بحريات، وأطيار عجيبة، وغير ذلك من العجائب.

وجزيرة كله وهي جزيرة كبيرة يسكنها الهند، وفيها معدن الرصاص القلعي ومنابت الخيزران وهو عن يمينها على يومين منها. وجزيرة مالوا عن، وأهلها يأكلون الناس، وبها موز كثير وكافور ونارجيل وقصب سكر وأرز.

وجزيرة خاقه وبها مدينة سلاهيط وبها ملك يسير أحسن سيرة، لباسه الثياب المذهبة، وعلى رأسه قلنسوة من ذهب، مكللة بغرائب الجواهر، وبها نارجيل وموز وسكر وصندل وسنبل وقرنفل. وبحذائها جبل في ذروته نار تتقد مقدار سمكها علو مائة ذراع في مثلها فهي بالليل نار، وبالنهار دخان. وجزيرة الطيب من

هذه خمسة عشر يوما، من البحر، فيها من كل الأماويه وفي مملكة المهراج جزيرة، يقال لها فرطائيل يسمع منها الطبول والعزف والزمر وأصناف الغناء، البحريون يقولون إ ن الدجال فيها، وبالقرب منها موضع في البحر يخرج منه خيل لها أعراف تجرها في الأرض.

وجزيرة ميمونة في طريق الصين، فيها العود والكافور، ومنها إلى قماري إلى الساحل أيام يسيرة وبقماري العود القماري والصندل.

وجزيرة الصندل على الساحل، وبها العود الصنفي، وهو عندهم أفضل من العود القماري، لأنه يغرق في الماء لجودته وثقله، وبها بقر وجواميس.

وبلاد الواق وجزائرها في مشارق الصين وهي كثيرة الذهب، حتى إن مقاود دوابهم وسلاحهم وسلاسل كلابهم ذهب، ويعملون القصب المنسوجة بالذهب ذات التماثيل العجيبة.

ومن هذه النواحي يجنى العود والمسك والآبنوس والدراصيني، وأصناف التجارات والعجائب.

وجزيرة الزنج وفيها أمم مختلفو الأشكال والأخلاط، وملوك مختلفة المعاني والمذاهب، وفيها أصناف من الدواب.

وفي بحر الزنج جزائر كثيرة يستخرجون منها الود ع والحلزونات الملونة، وهم يلبسونها مثل الحلى.

ويدفنون أنياب الفيلة، فإذا عفنت أتى تجارها من الهند و السند فاشتروها منهم.

وفي بحر هركند على ما ذكره بطليموس وجماعة من البحريين ألف وسبعمائة جزيرة عامرة سوى الخراب، ويملك هذه الجزائر كلها امرأة، ويقع إليها عنبر كثير، وربما وقع إليها القطعة بقدر البيت أو نحوه، وإنما يخرج هذا العنبر إذا هاجت الريح من قعر البحر رمت من تحته فقذفت به إلى السواحل.وهذه عامرة بالناس وتجارتهم الود ع، ويدخره ملوكهم في خزائنهم، وهو أكبر عددهم ويقال أن هذا الود ع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح، فيأخذون شقف النارجيل فيطرحونها على وجه البحر، فيتعلق هذا الود ع بها فيأخذونه منه ويجمعونه.

وملك المهراج عظيم مملكته ليس في البحر بالشرق أكثر من جزائره، ولو شاء إنسان أن يركب مركبا، ويطوف بها لم يدرها في سنين كثيرة.

وهو بحر لا تحصى عجائبه، وعند ملوكه جميع الأفاويه من الكافور والقرنفل والجوزة والبسباسة والقافلة والكبابة والعود، وليس لغيره من الملوك ما له من العطاء، ولا يشاركه في ذلك احد منهم ببلاد الصين، يقال إن بلاد الصين ثلاثمائة مدينة ونيف، عامرة كلها سوى القرى والأطراف والجزائر، وأبواب الصين اثنا عشر بابا، وهو جبل في البحر بين كل جبلين منها فرجة وبحر يصار منه إلى موضع مدينة من مدائن

الصين المعروفة الكبار.

وهذه الجبال التي تمر بينها المراكب مسيرة سبعة أيام فإذا جاوزت السفينة هذه الأبواب صارت في بحر فسيح وماء عذب، وصارت كذلك حتى تسير إلى الموضع الذي تريده من بلاد الصين.

وأول مرسا تنزله خانقوا وماؤها عذب من أنهار عذبة وفي كلها أمن ومصالح وشجر وعمارة وزرع، وفي تلك الميناء أودية كلها تدور بين جزيرتين في اليوم والليلة، وفي هذا المرسا أسواق وتجار وخروج ودخول وتجارات تحط، ومراكب تذهب وتجيء.

وجزيرة خلنجان فيما بين سرنديب وفلنتن ببلاد الهند فيها قوم سود عراة إذا وقع إليهم إنسان عربي من غير بلادهم، علقوه من كسائه وقطعوه قطعا، وليس لهم ملك.

وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، وبها آجام تنبت الخيزران، وهم عراة لا يستترون بشيء، وبقرب الصين موضع من البحر يقال له منجي وهو أخبث البحار وأكثرها رياحا وموجا ومضايقا وجبالا، تتطاير منه إلى المراكب صبيان مثل صبيان الزنج، طول أحدهم نحو خمسة أشبار يخرجون من الماء ويتواثبون إلى المراكب ويدورون فيها، ولا يؤذون أحداً ثم يعودون إلى البحر، فإذا كان ذلك منهم وظهروا كان ذلك علامة لأخبث الرياح عندهم، فيستعدون ويأخذون أهبتهم، ويخففون المراكب، ويلقون بعض ما فيها ويقطعون من الذقل ذراعا أو ذراعين إن خافوا كسرها.

ويقولون أيضاً إنهم إذا رأوا على دور المكان سمكة يقال لها البليقة يكون منها ما طوله مائة ذراع في عرض عشرين ذراعا وينبت على ظهرها الحجارة، وربما تعرضت للمراكب فكسرتها.

وزعموا أنها ربما قربت من الساحل وهي لا تعلم، فتندفع بقوتها تتبع لبعض السمك الهارب منها فلا تشعر الا وقد حصلت في البر بجملتها فلا يمكنها الرجوع فتهلك.

فإذا كان كذلك قطع لحمها وذوب في القدور فيذوب لحمها كله، ويصير دهنا ينتفع به في المراكب وغيرها.

وجزيرة بقرب الزنج فيها جبل يقال لها جبل النار يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لهب نار، فلا يقدر أحد على الدنو منه.

وجزيرة المدر وهم سودان ولهم مدينة لها بارند، وأهل هذا البلد يقطعون الطريق ويسبون ويقتلون.

فالمراكب الصينية يعد فيها التجار السلاح والنفط، وربما كان في المراكب أربعمائة نفس من التجار وخمسمائة مقاتل، فلا يطمع فيهم، ويطمع في سواهم، وتغتال سفينتهم.

وجزيرة الرانج وهي جزيرة عظيمة كثيرة الأهل والزرع والتجارات، ويقال إنها لما فسد من بالصين بالخوارج والهرج صارت المراكب الصينية تقصد جزيرة الرانج هذه ويقاتلون أهلها وكذلك جزائرها

كلها ومدائنها.
وأصبح أبواب الصين في التجارات الباب الذي يدخل منه إلى خانقوا وهو أقرب، ومن دخل من غيره بعد الطريق عليه.

وجزائر الرانج كثيرة منها جزيرة تعرف بسديدة، تكسيرها أربعمائة فرسخ وبها متاجر وطيب.
وجزيرة الرامي أيضاً عامرة يقال إن تكسيرها ثمانية فراسخ فيها منابت البقم وفيها الكافور الأفاويه وتكسيرها ثمانون فرسخاً.
وجزيرة كله، يقال إنها النصف بين أرض الصين وأرض العرب وتكسيرها ثمانون فرسخاً.وبكله مجتمع الأمتعة من العود والكافور والصندل والعاج والرصاص القلعي والآبنوس والبقم، والجهاز إليها في هذا الوقت من عمان.
وجزيرة المهراج الذي هو ملك هذه الجزيرة، وهي جزيرة كبيرة في غاية العمارة والخصب.
حكي عن بعض التجار الذين يوثق بقولهم أن الديكة إذا غردت بها في الأسحار تجاوبت من نحو مائة فرسخ لاتصال عمارتها، وانتظام قراها لامفاوز فيها ولا خراب، وأن المسافر يسافر فيها بلا زاد، وينزل حيث أراد.
وفي جزيرة سرنديب موضع يجتمع إليه أهلها يتدارسون فيه سريانياتهم، وقصص ملوكهم في الزمن السالف.
وبها صنم عظيم من ذهب مبلغ وزنه وقدر الجوهر الذي عليه مائة رطل وهو في هيكل لهم.
وفيها مواضع أخرى يجتمع فيها اليهود وأهل الملك يتدارسون فيها علومهم ويتكلمون في أديانهم والملك يبيح لهم ذلك.
وفي هذه الجزيرة أعناب يقال لها أعناب سرنديب، والعنب واد عظيم يجوز المجتاز في هذا العنب شهرين وأكثر في رياض وغياض وهواء معتدل، والشاة عندهم بنصف درهم، وأكثر عملهم القمار بالنرد والشطرنج، ويستزير الرجل المرأة بعلم أهلها.
وجزيرة الرانج جزيرة كبيرة واسعة، وكلما يزرع فيها من ذرة وقصب وسائر النبات فهو أسود، ولهم في جزائرهم قوم يعرفون بالمخرمين قد خرمت أنوفهم، وقد أتموا أسلحتهم ويأخذ بطرف كل سلسلة يجره ويمنعه من التقدم حتى يسفر السفراء بينهم فان وقع الصلح وإلا شدت تلك السلاسل في أعناقهم وتركوا للحرب، فلم تقم لهم قائمة، ويأكلون من وقعت عليه نهشا، ولا يزول أحدهم من مركزه دون أن يقتل.
وللعرب في قلوب الزنج هيبة عظيمة، فإذا عاينوا رجلاً منهم سجدوا له وقالوا هذا أبن مملكة تنبت في

بلادهم شجر التمر، لجلالة التمر في صدورهم، ولأن العرب إنما يصرفون صبيانهم بالتمر.

وفيهم خطباء بلغاء بألسنتهم، ومن يتعبد منهم يستتر بجلد نمر، ويأخذ بيده عصا، يجتمع إليه الناس ويقف على رجله من أول النهار إلى الليل يخطب ويذكرهم الله تعالى، ويذكر لهم أمور من ملك منهم، ومن مضى من الملوك وجزيرة سقطرى وبها منابت الصبر السقطري، وموضعها بين بلاد الزند وبين بلاد العرب، وأكثر أهلها نصارى.

والسبب في ذلك إن الاسكندر لما غلب على ملوك فارس وقتل فور الهندي، وكان يكاتب ارسطاطاليس بما يجري من أمره، ويعرفه بما وقف عليه وغلبه عليه من الممالك، وكان ارسطاطاليس يكتب إليه ويؤكد عليه في طلب جزيرة في البحر تعرف بسقطرى لان بها منابت الصبر السقطري، وبها الدواء العظيم الذي لاتتم الأيارجات إلا به، وأن الجزيرة إن وجدها لا ينتقل عنها حتى يصلح عمارتها ويسكنها قوما من اليونانيين ويطوف لهم بملكها والحفظ لها ففعل الاسكندر ذلك، وتقدم إلى ملوك الطوائف بالاحتفاظ بها، وكان ذلك حتى بعث السيد عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم وتنصرت الروم ودخل هؤلاء في الجملة وتنصروا مع الناس فبقاياهم بها إلى هذا الوقت مع سائر من يسكنها من عندهم؛ وفي البحر الكبير الذي عن يمين الخارج من عمان جزائر كثيرة، وهي تحاذي بلاد الشجر فيها منابت اللبان، وما يتصل بذلك من أرض عاد وجرهم والتبابعة.

وفيها قوم من العرب وهم في هذه الجزيرة في قشعمة وضيق عيش إلى أن تتصل بعمان وسواحل اليمن فيتسع أمرهم قليلا، وعيش هؤلاء من السمك ومن نبات عندهم، وربما وقع إليهم العنبر فباعوه من أصحاب المراكب.

وبحر اليمن متصل ببحر البحار والقلزم، وينقطع هناك، ومن عجائب الجزائر التي في هذا البحر جزيرة يقال لها سلطا منها قوم يسمع كلامهم وضجيجهم وتصرفهم في معاشهم، ومن وصل إليهم يخاطبهم ويخاطبونه ولا يراهم، وسئلوا عن أمرهم فذكروا أنهم من الأنس، وأنهم كانوا بعث إليهم نبي يقال له سافر بن جردول فآمنوا به وهم على دينه.

وإذا نزل الغريب إليهم جعلوا له من الزاد في ليلة ما يكفيه ثلاث ليال تمرا في نهاية الحلاوة والطيب ونارجيلا وطيورا مشوية على قدر اليمام، أطيب مضغة من اليمام، وإذا أراد من وقع عندهم الرجوع إلى أهله سيق له مركب، وأكثرهم لا يتجه له المسير عنهم حتى يحمل وإن لم يجعلوه أقام على حاله و لم يسر إلى بلاد غيرها لطيب الموضع وكثرة الخير، وقد عرف ذلك البحريون.

وجزيرة فرش، وهو شجر عرفت به الجزيرة يحمل ثمرا في خلق اللوز إلا أنه اكبر منه، يؤكل بقشره فيقوم

مقام كل دواء، ومن أكل منه لم يمرض إلى موته و لم يهرم، وإن كان شعره أبيض عاد أسود، ولهذه الجزيرة ملك يمنع منها، وذكر أن بعض ملوك أهل الهند جلبه وزرعه فأورق و لم يثمر.

وجزيرة الدلهان وهو شيطان في صورة الإنسان راكب على ظهر طائر يشبه النعامة وعلى قدرها، يأكل لحوم الناس وإذا طرحهم البحر رفعهم إلى موضع لا خلاص لهم منه وأكلهم واحداً بعد واحد عند إرادته، ويأكلهم أحياء.

وحكي أن البحر حمل مركباً إلى تلك الجزيرة وقد كانوا سمعوا به، فلما أتاهم وقفوا على مركبهم ورموه وحاربوه وصبروا على قتاله، فصاح بهم صيحة سقطوا منها مغشيين على وجوههم، وجعل عبرهم إلى موضع عادته.وكان فيهم رجل صالح فدعا الله عليه فهلك من حينه، وصار موضعه ذلك مطلباً لما معه من أموال الناس وأمتعتهم.

وجزيرة الضريف، وهي جزيرة تلوح لأصحاب المراكب فيطلبونها حتى إذا ظنوا أنهم قد قربوا منها تباعدت عنهم، وربما أقاموا كذلك أياماً لا يقدرون على الوصول إليها ولا يقول أحد من أهل البحر إنه وصل إليها ولا دخلها، وهم يرون فيها شخوصاً ودواباً وعمارة وشجراً.

وجزيرة البيدج فيها صنم من زجاج أخضر يجري من عينيه دمع على ممر الأيام يقول البحريون إنه يبكي على قومه لأنهم كانوا يعبدونه فغزاهم بعض الملوك فاستباهم وقتلهم وأراد كسر الصنم، فكانوا إذا ضربوه بشيء لم يعمل فيه وعاد الضرب إلى وجوههم فتركوه، وإذا دخلت الريح إلى أذنيه صفر تصفيراً عجيباً.

وجزيرة سرهانة، بها عمارة وشجر وأكثر أهلها أوانيهم ذهب، وثيابهم منسوجة بالذهب، وسلاحهم أعمدة ذهب، ولهم ملك متى وقع لهم من يريد الخروج بشيء منه دفعه عنه.

ومن الجزائر ببلاد الغرب صقلية وهي جزيرة كبيرة دورها أكثر من خمسة عشر يوماً، ومملكتها واسعة ولها جبال وأشجار وأنهار ومزارع، وهي بازاء أفريقية، وبها جبل البركان لا يزال يظهر دخانه بالنهار وناره بالليل ويطير منه في البحر شرارات، وهي حجارة سود مثقبه مثل الإسفنج تطفو على الماء فتحملها الناس إلى البلاد يحكون بها في الحمامات أقدامهم.

وربما خرج من هذا البركان فيدخل في البحر فيحرق كلما صادف من دوابه وحيتانه، فتلقيه الأمواج إلى الساحل، فلا يقدر أحد على الدنو من هذا الموضع.

وجزيرة سردانية، وهي جزيرة كبيرة مسيرة عشرين يوماً وفيها شجر وعيون وزروع وجبال وتجارات.

وجزيرة أقريطش، وهي في بحر الروم، وبها جبال ومعدن ذهب وأنهار وثمار، وهي اثنا عشر يوماً في ستة أيام، وفي البحر الكبير جزيرة ترى على بعد في البحر فإذا قرب منها القاصد بعدت عنه وغابت، فإذا رجع إلى الموضع الذي كان فيه رآها كما كان يراها قبل.

وقيل إن بها شجراً يطلع بطلوع الشمس ولا يزال طالعاً إلى نصف النهار ثم يعود إلى الانحطاط حتى تغيب الشمس، ويقول البحريون إن في ذلك البحر سمكة صغيرة يقال لها السائل إذا حملها الإنسان مع نفسه أبصر الجزيرة و لم تغب عنه ودخلها، وهذا شيء عجيب ظريف.

وجزيرة طاوراق، وهو ملك له أربعة آلاف امرأة، ومن لم يكن له ذلك فليس بملك ويتفاخرون بكثرة الأولاد وعندهم اشجار إذا أكلوا منها قووا على الباه قوة عجيبة.

وجزيرة السيارة، والبحريون مجمعون عليها، منهم من يذكر أنه رآها مراراً كثيرة وليس بمسكون فيها. وهي جزيرة فيها جبال وعمارة، فإذا هبت الريح من الغرب صارت إلى الشرق، وإذا هبت من الشرق صارت إلى الغرب، هذا دأبها.

ويقال إن حجارتها خفيفة يكون الحجر العظيم الذي وزنه عندنا قناطير يزن عدة أرطال واقل من ذلك ويحمل الإنسان القطعة العظيمة من الجبل.

وذكر بعض اليهود لعنهم الله من أصحاب التجارات أن مركبهم انكسر بهم في بعض السنين، وان البحر طرحهم إلى جزيرة ترابها وحجارتها وكل ما فيها ذهب، فأقاموا فيها أياماً لا يجدون غذاء غير السمك وهو مع كل ذلك قليل، فلما خافوا على أنفسهم التلف وكانوا مع ذلك سلم لهم زورق للمركب فجروه عندهم فأوسقوه من ذلك الذهب وثقلوه بالطمع فوق ما يحمل، ثم دخلوا به البحر واجتهدوا في طلب النجاة فلم يسيروا به إلا يسيراً حتى عطب بهم الزورق وتلف الذهب و لم ينج منهم إلا بعضهم من أهل السباحة نحو مهب الريح من إلى الساحل.

وذكروا أن في جزائر الكافور قوماً يأكلون الناس، ويأخذون رءوسهم فيجعلون فيها الكافور والطيب ويعلقوها في بيوتهم ويعبدونها، فإذا عزموا على أمر من الأمور أخذوا رأساً من تلك الرءوس، فكبروا به وسجدوا بين يديه، وسألوه عما يريدونه، فيخبرهم بكل ما سألوه عنه من خير وشر.

وجزيرة النساء، وهذه الجزيرة في تخوم من الصين، وحكوا عنها أنه لم يسكنها إلا النساء، وأنهن يلقحن الريح ويلدون نساء، وقيل إنهن يلقحن من الريح.

وزعموا إن الذهب عروق عندهم مثل الخزران، وتربتها ذهب، وأنه وقع إليهن مرة رجل فهممن بقتله، فرحمته امرأة منهن وحملته على خشبة وسلمته في البحر فحملته الأمواج والرياح، حتى أتت به بلاد الصين فدخل إلى ملك الصين وعرفه حال الجزيرة، فوجه المراكب في طلبها فطافت تطلبها ثلاثة أشهر فما وقعوا لها على خبر ولا أثر.

وجزيرة ابن أسعلاق، فيها شخص مشوه لا يدرى ما هو، ذكره قوم أنه شيطان تجسد بين الجن والأنس،

وزعم قوم أنه خلق بحري مشوه مقارب لصورة الإنسان، وانه يأكل من وقع إليه من الناس.
وفي خبر ذي القرنين: إن مراكبه وقعت إلى جزيرة بيضاء نقية ذات أنهار وأشجار وأثمار، وفيهم خلق على خلق الإنسان في الانتصاب، رءوسهم مثل رءوس السباع والكلاب، فلما دنوا منهم غابوا عن أبصارهم، وبوسط الجزيرة نهر شديد البياض بشاطئه شجرة عظيمة فيها من كل ثمرة طيبة لذيذة الطعم مشرقة بأنواع الألوان ورقها كالخلال كبراً وليناً وحسناً، والشجرة تسير بسير الشمس من الغد والى الزوال، فإذا زالت الشمس تقلصت وانحطت بانحطاط الشمس، وغابت بعد نبتها، وثمرها أحلى من العسل والين من الزبد، وورقها أطيب رائحة من المسك، فجمعوا من ورقها كثيراً ليحملوه إلى الاسكندر، فضربوا وظهرت عليهم اثار الضرب و لم يروا من يضربهم وصيح بهم "ردوا ما قد أخذتم من هذه الشجرة ولا تتعرضوا لها فتهلكوا، فردوا ما كان أخذوه من ذلك وركبوا مركبهم وساروا.
ودخل الاسكندر جزيرة العباد فوجدها قفاراً غير حشيش فيها وغدران ووجد فيها قوماً قد أنهكتهم العبادة وصاروا كالحمم من سواد الألوان، فوقف بهم وسلم عليهم فردوا عليه، فقال لهم ما عيشكم في بلادكم هذه؟ فقالوا ما يأتينا من رزق من اسماك البحر وضروب الحشيش، وما نشربه من ماء هذه الغدران، قال أفلا أنقلكم إلى موضع اخصب لكم من هذا المكان، فقالوا وما نصنع به إن عندنا في جزيرتنا هذه ما نغنى به عن جميع العالم، ويكفيهم لو أنهم وصلوا إليه، قال وما هو؟ قال: فانطلقوا به إلى واد لهم يسرج من الوان الدر والياقوت فوق ما تتوهم النفس، وأخرجوه من هناك إلى أرض واسعة كثيرة الفواكه فيها من أصناف الثمرات ما لا يوجد مثله ببلد من البلدان، فقالوا له أتصل بنا إلى اكثر من هذا ؟ قال والله ولا إلى بعضه، فقالوا فهذا بين أيدينا فما نلتفت إلى شيء منه، وإنا لنؤثر الحشيش عن هذه الفواكه، فذهب أصحابه ليأخذوا من ذلك الجوهر شيئا فمنعهم، وودع القوم وانصرف إلى مركبه متعجبا منهم.
وحكي أنه ذكرت له جزيرة في البحر الأخضر فيها قوم حكماء فصار إليهم فرأى قوما سرابيلهم ورق الشجر وبيوتهم الكهوف، وعليهم السكينة فسألهم عن مسائل من الحكمة فأجابوه فقال لهم سلوني ما أحببتم، فقالوا له إنا نسألك الخلد فقال أنى لي به، ولا أقدر على زيادة نفس واحد في أنفاسي .فقالوا فعرفنا بقية آجالنا، فقال أنا لا أعرف بقية أجلي، فكيف لي بمعرفة أجل غيري قالوا فامنحنا منحة تبقى لنا ما بقينا، فقال وهذا ما لا أبلغه لنفسي فكيف لغيري ، قالوا فدعنا نطلب ذلك ممن يقدر عليه.

وجعل الناس منهم يتطاولون بالنظر إلى عساكر الاسكندر، وكان على شاطئ البحر رجل حداد لا يرفع بصره إليه، ولا إلى شيء من عساكره، فعجب الاسكندر من ذلك فأقبل عليه وقال له ما منعك من

النهوض إلي والنظر إلى عسكري؟ فقال له لا يعجبني ملكك فأنظر إليه، قال و لم ؟قال أني عاينت قبلك ملكا لا يبلغ ملكك ملكه، وكان في جواري رجل مسكين لا يملك شيئاً، فمات الملك والمسكين في يوم واحد، ودفنا في ناحية واحدة فكنت أتعاهدهما حتى بليت أكفانهما وبقيت رممهما، ثم اختلطا فجهدت إن اعرف الملك والمسكين فلم أقدر على ذلك، فهان عليَّ كل ملك بعد ذلك.

قال فصناعتك تكفيك؟ قال أنا اكسب بها ثلاثة دراهم كل يوم أنفق درهما واقضي درهما وأسلف درهما، فالدرهم الذي انفق هو مؤنتي ومؤنة عيالي، والدرهم الذي أقضيه عما يلزمني في كراء بيتي وموضع عملي، والدرهم الذي أسلفه هو الذي أنفقه على ولدي لينفقه علي إذا كبرت.

قال أفلا تنفق ذلك على أصحابك؟ قال هم لا يحتاجون إلى ذلك، وأنا لا أحتاج إليه، وإنما يحتاج إلى ذلك من لا ينصف عن نفسه، فأما من انصف منها فلا يحتاج إلى شيء.

فعجب ذو القرنين من حكمهم وانصرف عنهم.

ذكر آدم عليه السلام وولده

أجمع أهل الأثر أن آدم عليه السلام خلق يوم الجمعة، لست خلون من نسيان وكساه الله لباساً من ظفره، وأسجد له ملائكته فسجدوا إلا إبليس، وكان ملكا على الأرض يصعد إلى المساء متى شاء فأبى من السجود لآدم، وقال أنا كنت خليفتك على الأرض وهو من تراب كنت أطؤه، وأنا من نار وهو من طين، فلي عليه الفضل من كل جانب، وأفضله بالأجنحة التي أغشى بها أقطار الأرض في اقل من لمح البصر، فلما امتنع من السجود أبلسه الله ولعنه.

وخلق حواء وألبسها لباسه واسكنها الجنة لثلاث ساعات مضت من ذلك اليوم وأباحهما جميع ما في الجنة الا الشجرة التي نهاهما عنها، وهي على قول اكثر أهل العلم البر، وكانت الحبة بقدر الأترجة فألقتهما الحية، وكانت من أحسن دواب الجنة، وكانت ذات قوائم.

ولما رأى آدم ما أعطيه من الكرامة اشتاق إلى الخلود فطمع فيه إبليس، فاحتال حتى ادخله الجنة.

فخاطب حواء فيها وقال" مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا إن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما أني لكما من الناصحين" و لم يزل بحواء حتى أكلت من الشجرة وأطعمت منها لآدم فأكل، فلما أكلا منها انكشف لباسهما إلى أطراف أصابعهما وبدت لهما سوآتهما، وهرب آدم في الجنة يميناً وشمالاً لا يدري ما يصنع، فتعلقت به شجرة الاترج وحبسته بناصيته ومعه حواء، فطفقا يأخذان من ورق الجنة ويستتران بها فقال الله عز وجل قد جعلت هذه الشجرة غذاء لكما ولذريتكما، يعني الشجرة التي آكلا منها عاصيين فاهبطوا جميعاً أنتما وإبليس والحية فان بعضكم لبعض عدو.

ونزع الله من الحية قوائمها فهبطوا، فكان مقام آدم في الجنة مع حواء ثلاث ساعات، مقدار مائتين وخمسين سنة من أيام الدنيا، وهو ربع يوم من أيام الآخرة الذي هو ألف سنة.

فاهبط آدم على جبل سرنديب وعليه الورق المخصوف من الجنة، فلما جف الورق وذهبت رطوبته تقطع وسقط فنسفته الريح وطرحته إلى كل جهة فنبت منه بأرض الهند أنواع الطيب الأفاويه، والتمر الذي لا يوجد إلا هناك، وفيه العود ودواب المسك، وحوله أصناف اليواقيت والماس، وفي بحره مغايص اللؤلؤ.

وسمى الله آدم عبد الله وكناه أبا محمد وكان طويلا جعد الشعر أحسن من خلق الله تعالى، فلما نزل إلى الأرض نقص من لونه وحسنه وطوله.

وكان يتكلم بالعربية فحول الله عز وجل لسانه إلى السريانية، وانتزع منه ما علمه ثم رده الله سبحانه وتعالى بعد توبته إليه.

وأهبط حواء على جدة وبيدها قبضة من جوهر الجنة فتناثر منه من يدها شيء فكانت الجواهر منه، ونقص أيضاً من حسنها وبهائها.

وأهبط إبليس ومعه قبضة من النار وعصا من بعض شجر الجنة يقال إنه العوسج، ويقال إنها كانت من آس الجنة، وهي التي صارت إلى موسى عليه السلام.

وأنزل معه ثلاثين قضيباً من ثمار الجنة وجعلها إكليلاً على رأسه، منها عشرة ظاهرة القشور وهي: الجوز واللوز والبندق والفستق والخشخاش والبلوط والقسطل وجوز الهند والرمان والموز.

وعشرة لها نوى وهي: الخوخ والمشمش والأجاص والتمر والزعرور والغبيرا والقراصيا والشاه بلوط والنبق والمقل.

وعشرة لا قشور لها ولا نوى وهي: التفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والأترج والخرنوب والخيار والبطيخ والبر وكان أول ما خلق الله تعالى في الأرض الكمثرى.

وتاب الله سبحانه على آدم عليه السلام بعد مائة سنة؛ أتاه جبريل عليه السلام وعلمه الكلمات، وهي لا إله إلا أنت عملت سوءً فاغفر لي وأنت خير الغافرين.

وقيل في طوله أنه كان يبلغ السماء فلما أهبط إلى الأرض جعل طوله مائتين وسبعين ذراعاً، وعلم استخراج الحديد وسبكه وعمل الزبدة المطرقة والكلاليب والمدية وآلات الأرض وما يحتاج إليه من جميع الآلات.

وعلم ما يأكله من دواب الأرض، وما يجتنبه وأمر بالمسير إلى مكة، وكان موضع قدمه عمراناً وما بينهما مفاوز، وأتى جدة فوجد بها حواء تبكي فقال لها هذا عملك.

وقيل له إيت الكعبة فطف بها، فمشى إليها فتلقته الملائكة بالأبطح فقالوا له حياك الله يا آدم، لقد طفنا قبلك هذا البيت بألفي عام ولسنا بأول من حجه، وعلمه جبريل عليه السلام المناسك وأنزلت عليه إحدى وعشرون صحيفة، وفرض عليه الصلاة والزكاة والاغتسال من الجنابة والوضوء، وزرع وحصد، وخبز، ثم قيل هذا دأبك أنت وذريتك، فقال يا رب ما بلغت هذا إلا بشق النفس فقيل له هذا بخطيئتك. وعوقبت حواء بعشر خصال: وجع العذرة، ووجع الولادة، وطول الحمل، والحيض، وحزن الموت، وقناع الرأس، وملكة الرجال للنساء، وأن تكن تحت الرجل عند الجماع، والولولة عند المصيبة، ورقة القلب عند الحزن وجمع بين آدم وحواء بجمع وتعارفا.

وعوقب آدم بنقصان طوله، وتغير حسنه، وخوفه من السباع، وكانت تخافه، وحتم عليه وعلى ذريته بالموت، وحفظت عليه أعماله، وكلف النظر في رزقه والتعب فيه وعوقبت الحية بقص جناحيها وعدم يديها ورجليها ومشيها على بطنها وشق لسانها، وخوفها من الناس وعداوتهم لها، وجعل من التراب غذاؤها، وإن طلبت أن تقتل أخرجت للناس لسانها.

وإن آدم غشي حواء فولدت له قابيل وتوأمته قليما، وكان كذلك يولد له توأمين في كل بطن.

ثم ولدت له هابيل وتوأمته لبوذا فشغل قابيل بالحرث، وشغل هابيل برعي الغنم، ثم أمره أن يزوج هابيل من أخت قابيل فضربها وقال أنا أحق بأختي منه، فأمرهما أبوهما أن يقربا قرباناً فأيهما تقبل قربانه كان أحق بأخت قابيل، فرضيا بذلك.وقرب هابيل أسمن كبش كان عنده، وقرب قابيل من أرذل ما كان عنده من الغنم وكان ذلك بينهما يوم الجمعة، وجاءت النار إلى القربان، وأخذت الكبش الذي كان لهابيل، وحملته و لم تتقبل قربان قابيل، فأغضبه ذلك وعزم على قتل أخيه بعد منصرفهما من منى، فيم يدر كيف يقتله فتصور له إبليس لعنه الله في صوره إنسان، وأخذ طائراً ففشخ رأسه بحجر فقتله، وحمله معه حتى غاب عن عينه فاغتفل قابيل هابيل حتى نام عند غنمه، وهي ترعى فحمل حجراً فطرحه على رأسه فقتله فاصبح من النادمين، وطال تحسر آدم عليه السلام على ابنه هابيل وعلى الجنة فانزل الله تعالى له خيمة من خيام الجنة من ياقوتة حمراء وضعت مكان الكعبة.

ولمائتين وثلاثين سنة من مهبط آدم ولد له شيث وهو هبة الله وتوأمته، فتقول أصحاب التواريخ: إنه ولد له مائة وعشرون بطناً، وأمر آدم عليه السلام بكتب الصحف، وعلم اللغات كلها، وعلم الأسماء التي قهر بها الجان والشياطين وعلم حساب الأزمنة وسير الكواكب.

وسأل ربه أن يريه الدنيا وما يكون فيها من خير وشر، فمثلت له براً وبحراً فنظر اليها والى ملوكها وسكانها من ولده، وصور الأنبياء وما يكون في العالم ويدور فيه من خير وشر الى انقضائه.

ولما كثر ولده وولد ولده بعثه الله إليهم وأمره أن يأمرهم بما أمره الله به وينهاهم عما نهاه عنه، ويقال إنه

أرسل وهو ابن تسعمائة سنة وسبعين سنة.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن يتوفاه أمره ان يسند وصيته الى ابنه شيث ويعلمه جميع العلوم التي علم بها ففعل وكان سبب وفاته عليه السلام أنه انصرف من الفلاحة موعوكاً فحم ومرض إحدىوعشرين يوماً والملائكة تختلف اليه.

ويقال إنه اشتهى قطفاً من عنب الجنة فوجه بعض ولده يسأل له ذلك ممن لقيه من الملائكة، فلقيه جبريل عليه السلام فعزاه في ابيه وقال ارجع فان أباك قد مات.وكان سنه يومئذ تسعمائة وثلاثين سنة، وقالوا تسعمائة وخمسين سنة بعد ما وهب لداود منها خمسين سنة وأتاه جبريل عليه السلام بكفن وحنوط من الجنة.

وعلم شيث كيف يغسله ويكفنه، وقيل هذه سنة لكم في موتاكم بعده، وحمل الى غار الكتر في جبل أبي قبيس فدفن فيه، وكانت وفاته عليه السلام يوم الجمعة، ومات وولده وولد ولده أربعون ألف بيت ورفعت مع موته الخيمة الياقوت التي كانت بموضع الكعبة.

وحزنت عليه حواء حزناً شديداً وبقيت بعده سنة ثم ماتت، عليه السلام والرحمة، وصلى عليها شيث ودفنها الى جانب آدم صلى الله عليه وسلم وعلى جميع النبيين والمرسلين.

ذكر شيء من أخبار ولده

كان قابيل ولد آدم عليه السلام، وأول من عصا وقتل وكفر ولما قتل أخاه هرب عن ذلك الجبل بأخته وبنى قرية يقال لها خلوا وسكنها، وقابيل أول من عبد النار، وقيل إنه أشقى البرية وإن عليه نصف عذاب الخلق، وقيل إنه متى سفك دم بغير وجه حق كان شريكاً لصاحبه فيه.

شيث بن آدم بعثه الله الى ولد أبيه وأنزل عليه سبعاً وعشرين صحيفة عليه وعلى أبيه، وأمره ببناء البيت هو وولده بالحجاز، وأمره بالحج والعمرة، وكان أول من اعتمر، وأمر بجهاد ولد قابيل إلا أنه لا يبرح بين تهامة ومكة.

وولد الأنوش بن شيث عليها السلام وهو بكره ووصيه، ومن ولد أتركين ابن شيث يغوث ويعوق ونسر وسواع وود، فكان هؤلاء النفر قوماً صالحين، فلما ماتوا حزن عليهم أبناؤهم حزنا شديداً فتمثل لهم إبليس وصور لهم صورهم من المرمر، وجعلها في بيوتهم ليتذكروا بها ويتآنسوا ويخف حزنهم عليهم، فلما ملكوا ونشأ غيرهم صور عندهم إبليس أنه آلهة وأن آباءهم كان يعبدونها واستهواهم فعبدوها، وكان عمر شيث سبعمائة سنه واثنا عشرة سنة، وولد له وهو ابن مائة وخمسين سنة.

وأوصى الى ابنه قينان وقد كان علمه الصحف وبين له قسمة الأرض، وما يكون فيها، وأمره بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج، وبجهاد ولد قابيل ففعل ما أمره به أبوه ومات قينان وله سبعمائة سنة وعشرون سنة وأوصى الى ابنه مهلايل ووصاه بما أوصاه به، وكان عمر مهلايل ثمانمائة سنة وخمسة وسبعين سنة.

وأوصى الى ابنه بوارد وعلمه الصحف وعلمه قسمة الأرض، وما يحدث في العالم ودفع إليه كتاب سر الملكوت الذي علمه مهلاييل الملك لآدم عليهما السلام وكانوا يتوارثونه مختوماً لا ينظرون فيه.

وولد لبوادر وهو ابن مائة سنة ابنه خنوخ، ويقول بعض اهل التاريخ إنه تم للعالم في وقته ألفان وستمائة سنة وأربع سنين.

خنوخ هو إدريس النبي عليه السلام ونبأه الله تعالى وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله عز وجل، وسنن الدين وأنزل الله سبحانه وتعالى عليه ثلاثين صحيفة فكملت الصحف المترلة يومئذ ثلاثين صحيفة، وعهد بوارد إلى خنوخ ورفع إليه وصية أبيه وعلمه العلوم التي كانت عنده ودفع اليه مصحف السر فلم يدفعه بعد شيث غير إدريس عليهما السلام.

وفي بعض الأخبار انها أول من كتب من ولد آدم عليه السلام.

وقال آخرون إنه لم يخل قط جيل ولا أمة من الكتابة لان إدريس بدت فيه النبوة وعلم عدة خطوط وأمر بجمع المصاحف وتركها في الهيكل وأمر بني آدم وغيرهم بدرسها، وفي بعض الأخبار انهم كانوا يلبسون القمص من فاخر الحرير والخز وغيرهما من الملونات والمنسوجات بالذهب والمنظومات بالجوهر ويلبسون التيجان.

وقد كانت حواء أمرت بالنسج والمغزل، فغزلت القطن والكتان والوبر ونسجت وكست أولادها، وقد لبس آدم عليه السلام من غزل حواء.

ويقال إنه لما ولد إدريس عليه السلام ضعف أمر عبادة الأصنام من أولاد قابيل، وسقط عظيم من أصنامهم الذين كانوا يعبدونه ويعتكفون عليه ويذبحون، وكان ملكهم يومئذ يمحويل، فاجتمعوا اليه ليتداولوا فيما ظهر لهم، فجاءهم ابليس في صورة شيخ قد كثر شيبه، وكان الشيب عندهم عجيباً لأنهم لم يكونوا رأوه، إذ لم يكن قبل ذلك شيب ولا ظهر لهم إلا بعد نوح عليه السلام بعد الطوفان.

وقيل أول من شاب إبراهيم عليه السلام، فقال يارب ما هذا؟ قال وقار، قال اللهم زدني وقاراً.

ويقال إنه أتاهم إبليس في صورة روحاني له جناحان، فقال لملكهم يمحويل إنه قد ولد الآن لمهلاييل ولد يكون عدواً للآلهة وعدواً للملك، وسبب فسادها ولذلك أصابكم ما أنتم به مشغولون، فقال يمحويل

فهل تقدر على هلاكه؟ قال سأحرص على ذلك فوكل الله بإدريس ملائكة يحفظونه، فاذا أتاهم إبليس ومن معه من جنوده منعوهم منه.
وظهر في وقته كوكب من كواكب الذوائب أقام ظاهراً نيفاً وثلاثين يوماً، فجعله أبوه سالماً الهيكل، وعلمه الصحف، وكان حريصا على دراستها وعلى الصوم والصلاة حتى شب فنبأه الله عز وجل على رأس أربعين سنة، فأتاه وراييل الملك يعلمه الفلك والكواكب وسعودها ونحوسها وصور الدرج والبروج. وقيل أنه أول من نظر في النجوم بعد آدم عليه السلام.
وفي التوراة ان إدريس عليه السلام احسن خدمة الله فرفعه الله تعالى اليه.
ولما رأى إدريس بني قابيل في المعاصي وعبادة الأصنام سأل الله ان يرفعه اليه، وان يطهره من خطاياه فأجابه إلى ذلك، وأوحى الله اليه ان يلازم الهيكل هو وشيعته أربعين يوماً وأوصى إدريس الى ابنه متوشلخ لأن الله أوحى اليه ان اجعل الوصية في ابنك متوشلخ فإني سأخرج من ظهره نبياً يرتضي فعله.
فقيل انه رفع الى السماء السابعة، وقيل إنه كانت له قصة مع ملك الموت، وقد سأل الله ان يذيقه طعم الموت، ثم سأل الله ان يريه رضواناً ويدخله الجنة، ففعل و لم يخرج من الجنة، ورفعه الله وهو ابن مائة وخمسين سنة.
وأما متوشلخ فأقام مع أخوته وبني أخيه، أمام الهيكل يعبدون الله تعالى والنقباء السبعون معهم.
ولما رفع الله تعالى إدريس عليه السلام كثر الاختلاف بعده والتنازع وأشاع عليه إبليس أنه هلك، وأنه كان كاهناً أراد الصعود إلى الفلك فأحرق، وحزن عليه ولد آدم المتمسكون بدينه حزناً شديداً، وأظهر عن صنمهم الأكبر أهلكه فزاد في عبادة الأصنام وتحليتها والذبائح لها، وعملوا عيداً لم يبق احد إلا حضره وكانت لهم يومئذ سبعة أصنام يغوث ويعوق ونسر وود وسواع ومزية وضمر، وسنذكرها عند ذكر المتعبدات.
وانقطع الوحي بعد إدريس عليه السلام، ومات أولئك النقباء، فكلما مات واحد منهم صور بنوه وأهله صورته في بيت لهم ليذكروه ويستغفروا له، وكان متوشلخ أراد فساد تلك الصور فامتنعوا عليه، فلما حضرته الوفاة أوصى الى ابنه لمك ومعنى لمك الجامع، وعهد اليه أبوه ودفع اليه الصحف والكتب المختومة التي كانت لإدريس عليه السلام، وكان عمر متوشلخ تسعمائة سنة.
وانتقلت الوصية الى لمك وهو أبو نوح عليهما السلام، وقد كان رأى أن ناراً أخرجت من فيه، فأحرقت العالم ورأى وقتاً آخر كأنه على شجرة في وسط بحر لاغير.
ولما ولد له نوح عليه السلام، ذكر العلماء والكهان ذلك ليمحويل الملك وعرفوه أن العالم يهلك في زمانه وأنه يكون طويل العمر.

وقد كانوا رأوا أنه طوفان يغرق الأرض، فأمر يمحويل أن يبنيا له المعاقل على رءوس الجبال، بنياناً عالياً ليحصنوا بها، فعملوا منها سبعة معاقل بعدة الأصنام التي كانت لهم وعلى أسمائها، وزبروا عليها شيئاً من علومهم ويقال إن الملك عملها لنفسه خاصة.

وكبر نوح عليه السلام فنبأه الله عز وجل وهو ابن خمسين سنة وارسله الى قومه، و كان من نعته أنه آدم رقيق البشرة، في رأسه طول، عظيم العينين رقيق الساعدين والساقين، كثير لحم الفخذين طويل اللحية عريضها، طويل، جسيم وكان حياً بعد إدريس عليهما السلام، وهو من أهل العزم من الرسل.

وفي بعض الأخبار أن عمره ألف ومائتين وخمسين سنة، وأنه لبث في قومه يدعوهم الى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً كما قال الله تعالى، وقال من ينكر طول الأعمار على مذهب الفلاسفة ان حياته لبنيه، وكانت شريعته التوحيد والصلاة والصيام والحج ومجاهدة أعداء الله من ولد قابيل، وأمر بالحلال ونهى عن الحرام، و لم يكن فرضت عليه أحكام ولا مواريث ولا حدود، وأمر أن يدعو الناس الى الله تعالى، ويحذرهم عذابه، ويذكرهم آلاءه.

وعلى رأس مائتي سنة من عمره هلك يمحويل ملك الكفرة وملك بعده ابنه الدرمشيل، فشدد في عبادة الأصنام، وأعلى أمرها وجمع الناس اليها، وأخذهم بالتعبد لها، فأظهر نوح عليه السلام دين الله عز وجل، وكان يدور في محالهم وأسواقهم وهياكلهم يدعوهم الى الله تعالى كانوا يطوون ذلك عن مليكهم، ويزجرون مع ذلك نوحاً ويهددونه، ويهولون عليه، إلى أن جلت قصته، وعظم أمره، وتحاماه الناس، وتخاطبوا في أمره، الى أن اتصل ذلك بمليكهم فأحضره وانتهره، وتقدم اليه أن لا يعاود.

ويقال إن الذي فعل هذا يمحويل، وإنه حبسه، وبعد ثلاث سنين من حبسه هلك يمحويل.

وولي الدرمشيل، فأخرجه من الحبس، وتقدم اليه أن ينتهي عن إفساد الدين وسب الآلهة، فكان لكل صنم من أصنامهم الكبار عيد في وقت من أوقات السنة يحضرون وينحرون له ويطوفون به، فحضر عيد يغوث، فاجتمع الناس اليه من كل مكان، فأتاهم نوح عليه السلام، فقام في وسطهم وناداهم أن قولوا لا إله إلا الله، فوضعوا أصابعهم في آذانهم، وأدخلوا رءوسهم تحت ثيابهم وسقطت الأصنام عند ندائه عن كراسيها، فوثبوا عليه فضربوه وشجوه، حتى سقط على وجهه وسحبوه الى قصر الملك حتى ادخلوه عليه، وكان في مجلس مزخرف بأنواع الألوان، وبدائع التصاوير والأصباغ، مفروش برفيع الحرير، وعلى سرير مصفح بالذهب، منظوم بالجوهر.

فلما مثل بين يديه قال له: ألم اهد إليك وانهك عن التعرض لشيء من أمور الآلهة، و ان تدعوهم الى ما لا يعرفونه، وزاد أمرك حتى سجدت الآلهة، وألقيتها عن كراسيها، ومواضع شرفها وعزها؟ من علمك ذلك

ومن أين وصل إليك؟ فقال له نوح عليه السلام وهو مخضوب بدمائه: لو كانت آلهة لما سقطت، فاتق الله يا درمشيل، ولا تشرك بالله فانه يراك ! فقال له الملك، فكيف قدرت أن تخاطبني بهذا الخطاب!فأمر بحبسه الى أن يحضر عيد الصنم الآخر فيذبحه له تقربا به اليه، وأمر برد الأصنام على كراسيها.

وأن الدرمشيل رأى رؤيا هالته في أمر نوح عليه السلام، فأمر بإخراجه وتخلية سبيله، وأخبرهم أنه مجنون لا حرج عليه.

وكان في زمانه سويدين الكاهن فعرفهم بأمر الطوفان، وقرب زمانه، وكان يأمر بقتل نوح عليه السلام والله يعصمه منهم.

فولد لنوح بعد خمسمائة سنة من عمره سام وبعده حام وبعده يام وبعده يافث، وطال أمر نوح معهم فلم يؤمن به إلا نفر يسير من العالم، وقيل له أنؤمن بك، واتبعك الأرذلون.

وقيل كانوا من أهل صنعته، وكان صلى الله عليه وسلم نجارا، ومضت لهم ثلاثة قرون، قرن بعد قرن، ونوح عليه السلام يذكرهم ويدعوهم إلى الله تعالى فلا يزدادون إلا طغياناً وعتواً وتجبراً واستكباراً، وقتل من كان اتبعه فكان يدعوهم الى الله سبحانه فأوحى الله اليه" إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن" فحينئذ يئس منهم ودعا عليهم، فقال" رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا".

وأمر نوح عليه السلام بعمل السفينة وقد قطع الله عن قومه النسل، وكثر عليهم القحط، وقلت عمارتهم وكانوا يستعينون على عبادتهم بأصنامهم ولا تنفعهم.

وابتدأ نوح بعمل السفينة، أقام في قطع خشبها من الساج وفي عملها ثلاث سنين، ثم صنع المسامير وأعد كل ما يحتاج اليه ونصبها في رجب، وأمر أن يجعل طولها ثلاثمائة ذراع؛ وعرضها خمسين ذراعا، وعمقها سبعين ذراعا. ويقال إنه لم يدر كيف يعملها فأتاه جبريل عليه السلام، وأمره أن يعملها على صورة الدجاجة وكانوا يهزءون منه وهو يصنعها فيضحكون منه، ويرمونه بالحجارة وجعل بابها في جنبها، فأقامت بعد أن فرغ منها في البر سبعة أشهر الى أن أخذا من أصحاب نوح الذين كانوا معه ثلاثة رجال فذبحوا الأصنام تقربا ليندفع عنهم القحط فيما زعموا، فحق عليهم العذاب. وأمر نوح عليه السلام أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من جميع الحيوان، وكانت الطبقة السفلى للدواب والأنعام والوحوش، والثانية للطعام والشراب، والثالثة لهم وكانوا ثمانين نفساً نوح وبنوه عليه السلام سام وحام يافث، وأهله وناسه، وحملت الملائكة تابوت آدم عليه السلام من خشب فيه جسده، وكان معهم في السفينة، وكان التابوت بتهامة، وكان معه في السفينة. وركب معه المؤمنون من ولد أبيه وجده إدريس عليه السلام، فلما نزلوا من السفينة بنوا قرية وسموها سوق ثمانين، فهي اليوم تعرف بذلك هناك. ويقال أنه لما اتصل الخبر

بدرمشيل، أن نوحا قد ركب السفينة وحمل زاده قال وأين الماء الذي يحملهم ؟ فركب في عدة من أصحابه وسار إلى السفينة، وقد أجمع على إحراقها، فنادى نوحا عليه السلام فاستجاب له، فقال وأين الماء الذي يحمل سفينتك ؟ قال هو يأتيك في مقامك هذا، فقال وهذا أعجب، إنك تقول إنه يكون في أرض يبس ماء غمر يحمل مثل هذه السفينة، انزل منها أنت ومن معك وإلا أحرقتكم أجمعين، فقال له نوح عليه السلام ما أكثر اغترارك بالله عز وجل، فعجل الإيمان، واخلع أنداد الله تعالى تسلم وترشد، وإلا فالعذاب بين يديك. فهو في محاورته إذ أتاه من أخبره أن امرأة كانت تخبز في تنور لها، فنبع الماء منه، فقال وما عسى أن يكون من ماء نبع من تنور.

فقال له نوح عليه السلام ويحك إنه علامة السخط، وكذلك أوحى إلي ربي، وآية ذلك ان الأرض تتخلخل من جميعها فأزل فرسك من موضعه، فان الماء ينبع من تحت قوائمه، فأزال الملك فرسه من موضعه، فاذا الماء ينبع من تحت قوائمه، فسار إلى موضع آخر فكان كذلك، وعادت رسله تخبره أن الماء كثر وفار، فرجع الى داره ليأخذ أهله وولده ويمضي الى المعاقل التي كان عملها لنفسه. وقيل إن علم الطوفان كان عندهم إلا أنه لم يأت وقته.لما أراد الله تعالى وكان قد جعل في تلك المعاقل طعاما، فاراد الصعود الى الجبال، فاذا الصخور تنحط على رؤوسهم من أعلى الجبل، وانفتحت أبواب السماء بما لا يعلم قدره إلا لله تعالى من الماء، فساروا لا يدرون أين يتوجهون ويقال انه كان الماء حارا منتنا.

ويقال إن يام بن نوح ممن سار الى السفينة مع الدرمشيل، فناداه أبوه"يابني اركب معنا، ولاتكن مع الكفرين، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء" مع الملك وأصحابه" قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم"وقدكان رأى التنور يفور.

وقيل إن السفينة أقامت في الماء خمسين ومائة يوم، وقال قوم من أهل الاثر إنها أقامت أحد عشر شهرا، وقال آخرون كان الطوفان في رجب ووقفت على الجودي في المحرم.

وفي التوراة أن الله تعالى آلى على نفسه أن لايعذب أمة بعدها بالغرق، وكان بين مهبط آدم عليه السلام وبين الطوفان وفور الماء أربعون يوما، فأمر نوح أن تفتح أبواب السفينة، ثم أرسل الغراب لينظر له فمضى و لم يعد اليه، فدعا عليه أن يكون مباعدا، وأن يكون رزقه في الخوف.ثم ارسل الحمامة فرجعت وقد انصبغت رجلاها بالطين، فدعا لها أن تكون إلفا لبني آدم ومنقارها ورجلاها مصبوغة من يومئذ، و لم تكن كذلك قبل ثم أرسلها بعد أيام فرجعت وفي مناقرها ورقة خضراء من الزيتون، وقيل كانت من عشب الأرض. وفي التوراة أن الأرض جفت في سبعة وعشرين من الشهر الحادي عشر، ولماتغيب الماء ووقفت السفينة على الجودي أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أن يخرج من السفينة هو ومن معه، فأخرج البهائم والهوام.

وقالوا هم الاسد أن يعبث في السفينة فصاح به نوح عليه السلام، فألقى الله الحمى في جسده، وأن النجوآذاهم فلطم الفيل فعطس خنزيراً، فالتقط ذالك النجوفهو يعيش منه، وأن الفأر أذاهم فلطم الأسد فعطس هراً. ونزل نوح عليه السلام من السفينة وبنوه سام وحام ويافث ويحطون، وهو الذي ولد له في السفينة، ولما خرجوا ليستقروا على الأرض بنوا قرية سموها سوق ثمانين فسكنوها، فقال لهم الله اكثروا واملأوا الأرض واعمروها فقد باركت فيكم، ورفعت اللعنة عن الأرض، وآذنت بركاتها وأخرج ثمرها وكلوا مما رزقناكم حلالاً طيباً، واجتنبوا الأوثان والميتة والدم ولحم الختزير وماذبح لغير الله، ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق.

ووجه نوح التابوت الذي فيه جسد آدم عليهما السلام إلى غار الكتز بمكة فدفن فيه.

ولما كثر ولد نوح عليه السلام قسم الأرض بينهم، فدب إبليس اليهم ليرمي بينهم العداوة والبغضاء فقال لبني حام ويافث إن اباكم أعطى ساما وولده خيرالأرض ومنعكم منها وأعلاهم عليكم، و لم يزل بذلك فيهم حتى قتل بعضهم بعضاً. فالآن نبدأ بذكر بني نوح عليه السلام وأنسابهم وتفرقهم في البلدان، وما ولد كل واحد منهم من الأمم، فنبدأ بذكرحام، وبعده بذكر يافث، وبعده بذكر يحطون، وبعده بذكرسام، متصلابالعرب والأنبياء صلوات الله عليهم اجمعين.

حام بن نوح عليه السلام

يقول أهل الأثر إن نوحاً عليه السلام دعا عليه بتشويه الوجه وسواده، وأن يكون ولده عبيداً لولد سام. فولد له بعد كنعان كوش، فكان أسود، فهم أن يقتل امرأته فمنعه سام، وذكره دعاء أبيه عليه فغضب، ونزغ الشيطان بين الاخوة وحمل بعضهم على بعض، وكان آخر أمر حام أن هرب الى مصر، وتفرق بنوه، ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى انتهى الى الأقصى، الى موضع يعرف اليوم بأصيلا، وهو آخر مرسى تبلغه مراكب البحر من نحو الأند لس إلى ناحية القبلة، وليس بعده للمركب مذهب. فيقال ان بنيه اغتموا لمكانه، وندموا على تركه، فخرجوا على أثره يطلبونه في النواحي التي قصدها، فيقال ان منهم طوا ئف وقعت عليه، فكانوا معه الى ان مات وقطنوا ذلك البلد وسكنوا به وهم أصناف السودان فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً فيطلبه فانقطع خبره عنهم أقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه، و لم يصل اليه إلا بنوه فقط.

ولما مات حام خرج بعضهم من ذلك الموضع فأقاموا بمكان البربر، وكان عمر حام أربعمائة سنة وإحدى واربعين سنة. ولما مات دفنه بنوه في صخرة منقوبة في جبل أصيلا.

ذكر كنعان ابن حام

هو أكبر ولد حام وهو أول من غير دين نوح عليه السلام، وألقى العداوة بينه وبين بني جده من الجبابرة والكنعانيين الذين كانوا بالشام، ويقال فراعنة مصر منهم، وجالوت منهم الذي قتله داود عليه السلام فهؤلاء العمالقة، لأن العمالقة هم من ولد حام، ومن هؤلاء الكنعانيون الذين قاتلهم موسى عليه السلام، ويوشع بن النون من بعده وهم الذين عنى الله عز وجل بقوله" ان فيها قوماً جبارين" وكانت خلقهم عظيمة.

وفيما يقال ان كنعان الأصغر رتبهم في ناحية الشام والجزيرة ومن ولده فوسطن وصبرا وهما وسمساوس، ومن ولده نبيط، والنبيط هو السواد وقيل سموا بذلك لأنهم استنبطوا الأرض وعمروها وكانوا اصحاب عمارة وتدبير.

ومن ولد سودان بن كنعان امم منهم الأشبان والزنج وأجناس كثيرة تناسلت بالمغرب نحو سبعين جنساً وهم مختلفون في أفعالهم، ولهم ملوك.

ومنهم أجناس يلبسون الجلود وهم عراة، ومنهم من يتزر بالحشيش، ومنهم قوم يعملون لرؤوسهم قرونا من عظام الدواب، وعندهم فأر ابيض يأكلونه ويسمونه منَّ السماء.

ويتزوج الواحد منهم عشرة نسوة يبيت كل ليلة عند اثنتين منهن، فان جامعهن على ما تحب وإلا طلقهن الملك بعد ثالثة.

وبينما اجدبوا، فاذا أرادوا ان يستسقوا جمعوا عظاماً فكوموها كالتل، ثم أضرموها بالنار، ودارو حولها ورفعوا ايديهم الى السماء، وتكلموا بكلام فيترل المطر ويسقوا.

فاذا اعرس أحدهم لطخوا وجهه بشيء يشبه الحبر، ثم أجلسوه على تل، وجلسوا على تل واجلسوا المرأة بين يديه وجعلوا قصبا مثل القبة، وستروها بشيء من الحشيش وأقاموا حولها ثلاثة أيام يشربون نبيذ الذرة ويلعبون، ثم ينصرفون ويأخذ الزوج امرأته ويسيرهاالى موضع سكناه.

ويلبسون حلق النحاس في ايديهم وآذان نسائهم، ويحمل اليهم الكرداونية التي تصبغ بالحمرة يلبسونها ولا يلبسها منهم إلا الملك.

ولهم شجرة عظيمة يعملون لها عيدا في كل سنة يجتمعون عندها، يلعبون حولها حتى يسقط عليهم ورقها فيتبركون به ويزينون المرأة بحلق النحاس والودع في شعرها.

ومن ولد سودان الكركر وبهم سميت المملكة، التي هي اعظم ممالك السودان وأجلها قدراً، وكل ملك لهم

يعطي ملك الكركر حق الطاعة، وتنسب الى الكركر ممالك كثيرة.

ومملكة عانة وملكها ايضاً عظيم الشأن، ويتصل ببلاد معادن الذهب وبها منهم امم عظيمة، ولهم خط لا يجاوزه من صدر اليهم فاذا وصلوا الى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكسية عليه وانصرفوا، فيأتون أولئك السودان، ومعهم الذهب فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون، ويأتي اصحاب الأمتعة فإن أرضاهم وإلا عادوا ورجعوا فيعود من السودان، فيزيدونهم حتى تتم المبايعة كما يفعل التجار الذين يتاعون القرنفل من أهله سواء بسواء، وربما رجع التجار بعد زوالهم مختفين فوضعوا النيران في الأرض، فيسيل الذهب فتسرقه التجار. ثم يهربون لأن الأرض كلها ذهب عندهم ومعدن ظاهر، وربما فطنوا لهم فيخرجون في آثارهم، فإن أدركوهم قتلوهم.

وفي صحاريهم معادن الأشبار سم ويكبر حتى يظهر مثل الحصى الظاهر في الرمل وكل ما يحصل للتجار من الذهب يضربونه بمدينة سجلماسة، وهي مدينة كبيرة فيها أربعة جوامع وشارع يسار منه نصف يوم، وفيها نخيل كثير وفيها يضربون الدنانير.

وتحت يد ملك عانة عدة ملوك وممالك كلها فيها الذهب ظاهر على الأرض يستخرجه أهله، ويعملونه مثل اللبن.

ومن الأجناس المشهورة منهم ملك الدهدم يسار اليها من كركر على شاطئ البحر مغربا من هؤلاء ويحارب بعضهم بعضاً، ويأكلون الناس، ولهم ملك كبير تحت يده ملوك، وفي بلده قلعة عظيمة في صورة امرأة يتأهبون لها ويحجون اليها.

ومملكة الزغاوةواسعة كبيرة، منها على النيل مما يحاذي النوبة، ويحاربون النوبة.

ومملكة توان وهي كبيرة، ويسار فيها يوماً واحداً فيوجد فيها مومياء في ابيار غير انها تتحرك مثل الزئبق، وهذه الآبار في بقعة واحدة مقدارها نصف ميل بنوا عليها حصنًا وهم يستعملون المومياء.

ويقال البقعة بمغرا من الصحراء، وممالك النوبة وهم من ولد نوبا بن قوط بن مصر بن حام لأنهم لما صار جدهم الى مصر مع مصر مات مصر وبقي بنوه فتولى امره بعده قبطم وثبت القبط بمصر، وهو من أولاد قبطم بن مصر.ووجه قبطم اخوته يسعون في البلاد لطلب ممالك وعيش، فخرج نوب بن قوط بأهله وولده وسار على عبر النيل فملكوا هنالك.

ويقال لمدينتهم العظمى دنقله، وبلادهم بلاد نخل وزرع ومقدار اتساعها شهران، وهم نصارى على دين اليعقوبية.

ويكون هؤلاء مملكة النوبة من ناحية الصعيد، وهم أوسع ملكاً وأعظم خطراً وأصفى لوناً، ومسيرة ملكهم ثلاثة أشهر ومدينتهم العظمى يقال لها دخلولة وهم أيضاً نصارى وملكهم جليل، ولهم لباس

وأساورة والذهب أيضاً عندهم يظهر على الارض، ولهم أيضاً نخل وكرم وهم أجناس كثيرة ولهم ملوك وبلدهم واسع.

مملكة البجة: وهي تلي النوبة وهي أيضاً ممالك عديدة، وهم بين النيل والبحر وفي كل مملكة ملك، فأول ممالك البجة من حد السودان وهي آخر عمل المسلمين، والمسلمون يعملون عندهم في المعادن ووراء ذلك ممالك ومدن.

وتتصل بهم الحبشة وهم من ولد حبش بن كوش بن حام، وأكبر ممالكهم مملكة النجاشي وهو على دين النصرانية، واسم مدينتهم الكبرى كفر، و لم تزل العرب على قديم الأيام تأتي هذه المملكة للتجارات.

وتتصل بمملكة الحبشة مملكة الزنج، وهم على البحر المالح، ولهم ممالك واسعة، وهم من ولد سودان بن كنعان، ولهم أيضاً ملوك عدة وممالك، واسم ملكهم الأكبر كوخه يكون بموضع يقال له نكد، وهو على البحر، يحدون أسنانهم حتى ترق، وهم كبار الأفواه نظاف الثغور على كثرة أكلهم السمك.

ولهم افيلة يبيعون أنيابها من تجار البلدان التي تقرب منهم، ولهم الجزائر التي يخرج منها الودع ويتحلون به، ويبيعونه، وهم أجناس كثيرة، ولهم ممالك.

وأما الكوكة فهم أمة لهم أربعة أملاك ملكوا الى أيلة الحجاز وبنى كل واحد منهم مدينة سماها باسمه، وجعلوا سائر الأرض خيما، وقسموها على ثلاثين كورة مقسومة على اربعة أعمال لكل عمل ثمانون كورة، ولكل عمل ملك يجلس في مدينة على منبر من ذهب، وفي كل عمل بربا وهو بيت الحكمة، وهيكل لأ حد الكواكب وفيه أصنام ذهب مرتبة له.

وكانت الاسكندرية لهم واسمها راقودة وجعلوا لها خمس عشرة كورة وجعلوا فيها كبار الكهنة ونصبوا في هياكلها من أصناف الذهب أكثر مما في غيرها، وقسموا الصعيد ثمانين كورة على أربعة أقسام.

وكان عدد مدن مصر الداخلة في كورها ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب والكور مثل اخميم وقفط وقوص والفيوم.

ذكر يافث بن نوح

وأما ولد يافث بن نوح فقال اصحاب التاريخ ان جميع اللغات اثنان وسبعون لغة منها سبع وثلاثون في ولد يافث: وثلاث وعشرون في ولد حام، واثنتا عشرة في ولد سام، فذكروا ان ولد يافث من ظهره سبعة وثلاثون لكل واحد منهم لغة يتكلم بهاهو ونسله.

وكان في قسم ولد يافث أرمينية وما جاوزها إلى الابواء؛ فمنهم الأشبان والروس والبرجمان والخزر

والترك والصقالية ويأجوج ومأجوج وفارس ومزنان وأصحاب جزائر البحر والصين والبلغار وأمم لا تحصى.

ذكر يأجوج ومأجوج

فأما يأجوج ومأجوج فانه لا يقدر على استقصاء ذكرهم لكثرة عددهم، وقد زعم ان مقدار ربع الأرض مسيرة مائة وعشرين سنة.

فذكروا ان تسعين منها ليأجوج ومأجوج واثني عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لبقية الأمم.

وسمى أصحاب التاريخ يأجوج ومأجوج أربعين أمة مختلفي الخلق والقدود، قي كل أمة منها ملك ولهم زي ولغة، فمنهم من طوله الشبر والشبران وأطول من ذلك، ومنهم المشوهون، ومن يفترش إحدى أذنيه ويتغطى بالأخرى، ومن له ذنب وقرن وأنياب بارزة، ومنهم من مشيه وثب ويأكلون الحيتان والناس والخشاش والطير كله والرخم والحدأة، وبعضهم يغير على بعض.

ومنهم من لا يتكلم إلا همهمة وفيهم شدة وبأس، وأكثر طعامهم الصيد، وكانوا يغيرون على الأمم التي تليهم ويخربون بلدانهم، حتى عمل ذو القرنين السد وهم يستفتحونه آخر الزمان كما قال الله عز وجل.

وربما أكل بعضهم بعضاً، والزلازل عندهم كثيرة، وذكر أن عندهم أمم تعرف المناسك.

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج هل بلغتهم دعوتك ؟ فقال" جزت ليلة أسري بي عليهم فدعوهم فلم يستجيبوا".

ذكر الصقالبة

وأما الصقالبة فهم عدة أمم؛ فمنهم النصارى، و من يقولون بالمجوسية ويعبدون الشمس، ولهم بحر حلو يجري من ناحية الشمال إلى الجنوب، ولهم أيضاً بحر يجري من المشرق إلى المغرب حتى يتصل ببحر آخر يجيء من ناحية البلغر، ولهم أنهار كثيرة، وهم كلهم في ناحية الشمال، وليس لهم بحر مالح لأن بلدهم بعيد عن الشمس، فماؤهم حلو وما قرب من الشمس مالح، وما جاوزهم من الشمال لايسكن لبرده وكثرة زلازله، وأكثر قبائلهم مجوس يحرقون أنفسهم بالنار ويتعبدون لها.

ولهم مدن كثيرة وبلاد، ولهم كنائس فيها أجراس معلقة يضربونها كالنواقيس.

ومنهم أمة بين الصقالبة والافرنج على دين الصابئين، يقولون بعبادة الكواكب، ولهم عقول وصناعات

لطيفة من كل فن، وهم يحاربون الصقالبة وبرجان والترك. ولهم سبعة أعياد في السنة بأسماء الكواكب، وأجلها عندهم عيد الشمس.

ذكر اليونانيين

وأما اليونانيون فهم الروم الأولى من ولد يونان بن يافث بن نوح وهم حكماء الأمم، ولهم النجامة، والحساب، والهندسة، و الطب، وصناعات المنطق، والصناعات اللطيفة، وكل حكم مذكور.
وكانت الأندلس والاسكندرية ومن جاورهم من الأمم يدينون بطاعتهم إلى أن غلب عليهم رومي بن ديقطون من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، لأن عيصو لما فارق أخاه يعقوب سار إلى العدوة القريبة، وهي مساكن الروم اليوم فغلب عليها، وهم الذين بنوا رومية وإليهم تنسب وهم بنو الأصفر.
وكان آخر ملوك اليونانين أيلاوبطره بنت بطليموس صاحب كتاب الحكمة والطلسمات، ثم رجع الملك الى الروم، وقد كان ملك قبلهما منهم كثير.
ومنهم الحكماء الذين تكلموا في علم الفلك والهندسة والطب والحساب والموسيقى والمرائي العجيبة والطلسمات والحيل الروحانية والزيجات وكل حكمة.

وكان أبقراط منهم وأبقراط الثاني وهرمس وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس واقليدس وجالينوس وجماعة يطول الكتاب بذكرهم.

ذكر الصين

وقطع قوم من بني عامر بن يافث الى ناحية الصين، وكان زعيمهم قد عمد الى مراكب على حكاية سفينة جده نوح عليه السلام فركب هو وأهله وولده فيها، وقطع البحر إلى الصين، فعمروه وبنوا المدن وعملوا الحكم ودقاق الصناعات ولطيفها، وأثاروا معادن الذهب فيها، وملكوا ثلاثمائة سنة.
وملك بعده ابنه صاني مائتي سنة، وبه سمي الصين، فجعل جسد أبيه في تمثال ذهب، وأقاموا يطوفون به وهو على سرير من ذهب، فصار ذلك رسم كل ملك يملكهم، وصوروا صورهم في هياكلهم، وهم على دين الصابئين ثم عبدوا الذرة، بعد ذلك اقتداء بالهند ومن ذلك عبدوا ملوكهم، وكانوا يجعلون أجسادهم في تماثيل ذهب ويسجدون لها.
ومنهم حكماء تكلموا في الفلك والطب والصنعة وكثير من علوم الهند، وبلد الصين واسع يقال إن فيه

ثلاثمائة مدينة ونيفاً عامرة سوى القرى والرساتيق وبها عجائب كثيرة، ومن خرج في البحر قطع سبعة بحار لكل بحر منها ريح ولون سمك ليس لما يليه.

أولهما بحر فارس وملكهم اليوم اليعقوفز وهو في مدينتهم العظمى التي يقال لها انصوا، وبينها وبين خانقوا التي تتراءى لها مراكب التجار ثلاثون يوماً.

ومن سيرتهم أن عمال الملك وأصحاب خراجه وجيوشه خدم، وذلك أن المرأة إذا لم تكن محصنة وأرادت الفجور رفعت أمرها إلى الملك تذكر حالها فيدفع إليها خاتم نحاس من خواتم الملك فجعلته في عنقها ولبست المصبغات، وعملت ما شاءت علانية، وإذا ولت الذكور خصوا واستعملهم الملك في داره وأعماله وان ولدت أنثى كانت على رسم أمها.

وأهل الصين بيض الى الصفرة فطس، ومن سنتهم أن احدهم اذا تظلم إلى الملك من بعض عماله كشف عن أمره، فان كان صادقاً أنصفه وعاتب ظالمه، وإن كان كاذباً ضرب بالخشبة ضربا شديداً لاجترائه على عمال الملك بالكذب.

ومن سنتهم أنه إذا أراد خادم من خدم الملك شيئا ضرب جرس كبير يدخل الناس دورهم، ويخلون له الطرقا ت لئلا يرونه.

ومن سنتهم ان تقسم المد ينة قسمين، فيكون الملك واهل بيته وعماله وحشمه في القسم الواحد، والعامة والرعية وأسواقهم في النصف الآخر، لا يدخل احد منهم الى ناحية الملك.

ومن سنتهم ان يورثوا الأنثى أكثر من الذكر، ولهم عند حلول الشمس الحمل عيد كبير يأكلون فيه ويشربون سبعة أيام.

واشرف حليهم من قرون الكركند، وهو الموشان، لأنها إذا استوت ظهر فيها صور عجيبة مختلفة فيتخذون منها مناطق تبلغ المنطقة اربعة آلاف مثقال من ذهب.

والذهب عندهم كثير حتى يتخذون منه لجم دوابهم وسلاسل كلابهم، ولهم ثياب الحرير المنسوجة بالذهب.

ذكر الاهتردة

وأما الاهتردة فهم من ولد عامر بن يافث نزلوا بين الروم والافرنج ومملكتهم واسعة، وملكهم جليل القدر ولهم مدن كثيرة وأكثرهم اليوم نصارى، ومنهم من لادين له وهم يحاربون الافرنج والصقالبة الذين يجاورونهم ويطرودونهم، وزيهم زي الروم، ومنهم صنف يحرقون أنفسهم.

ذكر الافرنج

وأما الافرنج فهم ايضاً من ولد يافث ومملكتهم واسعة كبيرة، ولهم ممالك يجمعها ملك واحد ومدينتهم الكبرى يقال لها دريوه، وهم ايضاً نصارى وهم اليوم اربع عشرة قبيلة ووراءهم اجناس اخرى وأكثر اعتدائهم الى الصقالبة، ولهم اتساع مملكة، وهم يحاربون الروم والاهتردة، ومنهم متجر وفيهم نصارى، ومجوس وزنادقة، ومنهم من يحرق نفسه.

مملكةالاندلس

الأندلس اربع وعشرون مدينة يملكهم ملك واحد إلا ان دينهم دين الصائبة، ولهم في ممالكهم أصنام للكواكب ثم انصرفوا عن ذلك وتنصروا وكانت لهم معرفة، وحكم وكان في دار مملكتهم بيت اذا ولي منهم ملك أقفل على بابه قفلا، الى ان ولي ملكهم لذريق و لم يكن من اهل الملك فطلب ان يفتح اقفال ذلك البيت وكانت عدتها اربعة وعشرين قفلاً، فاجتمعوا اليه وسألوه ان لا يفعل وبذلوا له على ذلك جميع ما في أيديهم من الأموال فأبى الا فتحها، فلما رأوا منه الجد تشاءموا به وتركوه، ففتح الأقفال ودخل البيت فوجد فيه صور العرب على الخيل والجمال، وعليهم العمائم الحمر وبأيديهم الرماح الطوال والقس وكتاب فيه" إذا فتح هذا البيت غلب على هذه البلاد قوم على صور هؤلاء، ففتحت الاندلس في تلك السنة والتي بعدها تولى فتحها طارق بن زياد مولى موسى بن نصير في سنة اثنتين وتسعين ايام الوليد بن عند الملك، وقتل ملكهم لذريق وسباهم وغنم، ووجد في ذلك البيت مائدة سليمان عليه السلام وكانت من ذهب عليها اطواق جوهر مفصلة، ووجد المرآة العجيبة الغريبة التي ينظر فيها إلى الأقاليم السبعة وهي مدبرة من أخلاط، ووجد فيها آنية سليمان من الذهب، والزبور منسوخاً بخط يوناني جليل بين ورقات ذهب مفصلا بجوهر، ووجد فيه اثنين وعشرين مصحفا محلاة كلها بالذهب منها التوراة ومصحفا آخر محلى بفضة فيه منافع الأشجار والأحجار، وعمل الطلسمات، وكان مصحف فيه عمل الصبغة وأصباغ اليواقيت، ووجد فيه فقاعة كبيرة من حجر مملوءة أكسيد الكيمياء مختومة بالذهب، فحمل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك.

لما فتحت الأندلس نزلها المسلمون وتفرقوا في مدنها، وتملكوا أكثرها إلى ان صار اليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك في سنة ثمان وثلاثين ومائة فغلب عليها وتملكها فذريته إلى اليوم فيها.

ذكر مملكة البرجان

وأما البرجان فهم من ولد يونان بن يافث وهي مملكة كبيرة واسعة وهم يحاربون الروم والصقالبة والخزر والترك، وأشد الامم حربا لهم الروم.

وبين القسطنطينية وبلاد برجان خمسة عشر يوما، ومملكة برجان مسيرة عشرين يوما في ثلاثين يوماً، وعلى عمل برجان كله سياج وعليه شبه الشباك من الخشب فهو كالسور على الخندق والقرى دون السياج.

وأهل برجان مجوس، وليس لهم كتاب، ودوابهم التي للحرب راتعة أبدا في مرج لا يركبها أحد منهم إلا في وقت الحرب، وان وجدوا رجلاً قد ركب دابة حربية في غير وقت قتلوه، وإذا خرجوا للحرب اصطفوا صفوفا فجعلوا اصحاب النشاب أمامهم، وجعلوا خلفهم جميع العيال والذرية.

وليس لبرجان دنانير ولا دراهم وإنما تبايعهم وترويجهم بالبقر والغنم، وإذا وقع بينهم وبين الروم الصلح أدت برجان الى الروم جواري وغلمانا من بني الصقالبة ومن شبههم.

وإذا مات لأهل برجان ميت عمدوا الى ما ترك من خدم وحاشية، فجمعوهم وأوصوهم بوصايا وأحرقوهم مع الميت، ويقولون نحرقهم نحن في الدنيا فلا يحرقون في الآخرة.

ولهم ناووس عظيم إذا مات الميت أنزلوه فيه وانزلوا معه امرأته وحشمه فيبقون هناك حتى يموتوا.

ومن سنتهم إذا أذنب عبد أو أخطأ وأراد مولاه أن يضربه انبطح من قبل نفسه و لم يمسكه أحد فيضربه مولاه ما أحب فان قام من غير أن يأذن له مولاه وجب عليه القتل، ومن سنتهم أن يورثوا النساء أكثر من الرجال.

ذكر مملكة الترك

وأما الترك فهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وهم أجناس كثيرة وهم اصحاب مدن وحصون، ومنهم قوم في رءوس الجبال والبراري، في خيم اللبود، وليس لهم عمل غير الصيد، ومن لم يصد شيئاً ذبح دابته وأخذ دمها وشواه، وهم يأكلون ألرخم والغربان وغيرها. وليس لهم دين، ومنهم من هو على دين المجوسية ومنهم من يتهود.

وملكهم الأكبر خاقان، وله سرير من ذهب وتاج ذهب ومنطقة ذهب ولباسهم الحرير، وقيل ان ملكهم الأعظم لا يكاد يظهر، وإن ظهر لم يقم بين يديه أحد، وفيهم مكر وفيهم حقد، وشدة وبأس.

وللملك عندهم يوم توقد لهم فيه نار عظيمة ويأتي ويقف وهو مطل عليها، ويتكلم بهمهمة فيرتفع منها وهج عظيم، فان كان الى الخضرة كان الغيث والخصب وإن كان إلى البياض كان الجدب، وإن كان الى

الحمرة كانت هراقة الدماء، وإن كان الى الصفرة كانت علل ووباء، وإن كان الى السواد دل على موت الملك أوعلى سفر بعيد، فان كان ذلك عجل بالسفر والعودة.

ذكر مملكة الروم

وأما الروم فهم من بني عيصو والروم لقب لهم، فلما صار الأمر الى قسطنطين قال بالنصرانية وجمع الأساقفة على المعمودية ثم تفرقت النصارى بعده على طبقات: البطريق والأسقف والقسيس والشماس والمطران والدمستق صاحب الفرق، وهم يفطرون يوم الأحد اذا صاموا، ويفطرون السبت من الظهر، ولا يتزوج الرجل عندهم الا واحدة ولا يتسرى عليها، ولا يشرب من الخمر حتى يسكر، والسكر عندهم حرام، وتعظيم الأحد عندهم، لأن المسيح قام من قبره ليلة يوم الأحد، وارتفع إلى السماء يوم الأحد بعد اجتماعه مع الحواريين.

ولا يرون الاغتسال من الجنابة ولا الوضوء، وإنما عبادتهم بالنية ولا يأخذون القربان، ويقولون هذا لحمك ودمك، يعنون المسيح عيسى عليه السلام، ويعتقدون أنه ليس بلحم ولا خبز وإذا تفرقوا بعد أخذه قتل بعضهم بعضا، ولا يتكلم إذا أخذ القربان حتى يغسل فمه، ويورثون النساء جزئين والرجال جزءاً، وليس لهم طلاق.

ومن سيرتهم أن لا يلبس أحد منهم خفين أحمرين إلا الملك، فان كان ولي عهد لبس فرداً أحمر وفرداً أسود، ولا يأكل ملكهم إلا على الموسيقى والألحان والغناء، وأكثر طعامهم الكرديانات والمرققات والاستبدناجات والسكباجات.

ولهم الأرغن وفيهم الطب والحكمة وعمل الصناعات والحذق بالصور حتى أنهم ليصورون صورا يظهر عليها الحزن، ويصورون أخرى يظهر عليها الفرح والسرور، ويسمى ملكهم الملك الرحيم، ويظهر العدل والإنصاف وهو ينوح.

ذكر مملكة الفرس

وأما الفرس فهم من ولد يافث بن نوح، والفرس تدفع ذلك ويزعمون أنهم لا يعرفون نوحا ولا الطوفان ولا ولد نوح، ويحسبون ملوكهم من كيومرت الأول وهو آدم.

وزعموا أن الفرس كلها من ولد افريدون الملك، وزعم قوم أن أول ملك في العالم بعد الطوفان أوسبهبد بن نوح بن عامر بن يافث وأنه ملكهم ألف سنة وطلع إلى الفلك.

وبعده منوشهر وهذه الطبقة الأولى إلى أن غلب الاسكندر دارا بن دارا ورتب ملوك الطوائف، ثم هلكت

الأكاسرة من أل أردشير بن بابك إلى انقضاء ملكهم وقد نسبهم قوم الى سام، وبذلك جاءت الآثار.

وكان دينهم دين الصابئة، ثم تمجسوا وبنوا بيوت النيران، ويقال إنه كان يكسي ملكهم بيوت النيران ويذر فيها كبريتا وزرنيخا فيستوقد من نفسه لا يستعملون الحطب لتلك النار الا أوقية أوقية بثلاثين فضة.

ويقال إن من كان يريد التعبد في تلك البيوت يقعد على كرسي وبين يديه هاون حجر كبير قد جعل فيه ماء وبيده دستج خشب يضرب به الملك أبدا ويحركه بعنف شديد وقوة واجتهاد كأنه يعذبه لعبادته النار.

وجميع أهل الممالك يعترفون للفرس ويقرون لهم بالرئاسة وحسن التملك وتدبير الحروب ودقيق الألوان وتأليف الطعام والطب واللباس وترتيب الاعمال ووضع الأشياء مواضعها والترتيل والخطابة ووفور العقل وتمام النظافة والشكل وهيبة الملوك، هذا كله لهم فيه السبق.

ومن كتب سيرهم استعمال من جاء من بعهدهم من رسوم الملك وتدابير الرئاسة، وأمرهم أشهر من أن يستقصى في هذا المكان.

ذكر مملكة خراسان

فاما ملوك خراسان مثل الصغد وغيرهم من قد غلبه والأشروسنية والبرجان وهو اهل الد يلم والجبل واللد والاكراد والشماس، وما وراء النهر فقد كانت لهم ملوك عدة بطارقة اكثرهم كان يعبد النار ويتمجس.

ويقال ان اردشير رأى شيطانه فقال له علمني علما انتفع به، فقال له على أن تنكح أمك فهي أقرب اهلك، ففعل وصار دين المجوسية.

والفرس تزعم أن نكاح الاخوات من وقت آدم، ثم أطلق لهم بعد ذلك زنادقتهم نكاح الام، وقالوا لهم هي أحق اليه من الأخت ففعلوا

وخلف جزيرة الصين أمم عراة ينسق لون شعورهم وأمم لاشعور لهم وأمم حمر الوجوه شقر الشعور، وأمم إذا طلعت الشمس هربوا الى مغارات يأوون اليها من حر الشمس ولا يخرجون منها حتى تدور الشمس الى الوجه الغربي، وأكثر ما يغتذون نباتا يشبه الكمأة وسمك وخشاش الأرض، وتحاذيهم من ناحية الشمال أمم بيض شقر عراة يتناكحون كما تتناكح البهائم، ويجتمع على الواحدة الجماعة، ولايمنع أحد من أنثى لينالها.

ذكر سام بن نوح

واما سام بن نوح عليه السلام فان الله تعالى جعل له الرئاسة والكتب المترلة والأنبياء، ووصية نوح في ولده سام خاصة دون اخوه، فولد سام، أرفخشذ.

وكان عمره أربعمائة سنةوخمساً وستين سنة منه، وولد أرفخشذ شالخ، وولد شالخ عابر، وعاش عابر أربعمائة سنة وثلاثين سنة.

وولد عابر قحطان، وولد قحطان فالغ، وولد فالغ يعرب، وقيل إنه أول من تكلم بالعربية، وكانت لغاهم السريانية، وولد يعرب سبأ وولد سبأ حمير، وسمي بذلك لأنه كان له تاج، وكان له جوهر أحمر فاذا جلس أضاء على بعد منه، فكان يقال له الملك الأحمر، ثم غير اللفظ فقيل له حمير.

وكهلان بعد حمير بن سبأ ومن كهلان كانت ملوك اليمن من التبابعة والأذوين، ومنهم كان أبرهة والاحابش، والمغاربة والانجاد.والاذواء جماعة غزوا الامم وتحولوا في البلاد، ومنهم إفريقس الذي بلغ آخر المغرب.

ذكر إبراهيم عليه السلام

وأما إبراهيم عليه السلام فولد له سيدنا اسماعيل عليه السلام، وأمه هاجر القبطية واسحق وأمه سارة بنت هارون، وهو من بني حران وكانت حياة إبراهيم عليه السلام مائة وخمسا وسبعين سنة، وكان ملك بابل في وقته النمروذ من ولد كوش بن حام، فلما ان حاجه إبراهيم عليه السلام وكسر الاصنام أضرم الملك له نارا عظيمة وألقاه فيها فجعلها الله تعالى عليه بردا وسلاما، واتت ريح فنسفت النار في وجوه الواقفين مع الملك كذلك.

وخرج إلى حران فآمن به ابن أخته لوط وسارة بنت عمه. وكان خروجه وهو ابن سبع وثلاثين سنةوتزوج سارة بوحي أتاه، وخرج معه ثلاث صحف بالعبرانية وكانت لغته سريانية، وكان في الصحف امثال وتسبيح وتهليل وتحميد، وأمر بالمسير فعبر الفرات وسار إلى مصر وسنذكر قصته في أخبار مصر.

ذكر اسماعيل عليه السلام

وأما اسماعيل عليه السلام فقطن الحرم ونبع له زمزم بامر الله تعالى، ونبأه الله وارسله إلى العماليق وجرهم وقبائل اليمن، فنهاهم عن عبادة الأوثان، فآمنت به طائفة منهم وكفر اكثرهم، وغلب على الحرم وتزوج في خيرهم.

وولد له اثنا عشر ولداً ومات وهو ابن مائة سنة وسبع وستين سنة، وأوصى إلى ابنه عدنان بأمر البيت، فدبر امر البيت.

فمن عدنان ولد محمد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وجميع العرب العاربة من ولده.
وذكر آخرون أنه من ولد قيداربن اسماعيل، واختلفوا في ولد اسماعيل اختلافا كبيرا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغ بالنسب الى معد بن عدنان، قال عدنان بن أعراق الثري. ومن اسماعيل وعدنان أمم كثيرة.

حدث البلبلة

كان الناس بعد الطوفان مجتمعين بمكان واحد بأرض بابل ولغتهم السريانية ثم تفرقوا فسلك قحطان وعاد وثمود وعملاق، وطسم وجديس طريقا، وألهمهم الله تعالى هذا اللسان العربي فساقتهم الأقدار إلى اليمن فسارت عاد إلى الأحقاف ونزل ثمود ناحية الحجر ونزل جديس اليمامة، ثم شخص طسم فترل اليمامة مع جديس، ثم شخص عملاق فترل أرض الحرم، وسار ضخم أرم فترل الطائف، وسار جرهم فترل مكة، فهؤلاء ولدهم ونسلهم يسمون العرب العاربة، وولد إسماعيل يسمون العرب المستعربة لأنهم تعلموا منهم وتكلموا بلغتهم.

ذكر عاد

وأرسل الله هوداً إلى عاد وهم باحقاف الرمل وملكهم الخلجان بن الوهم، وكانوا يعبدون ثلاثة أصنام وكذبوه، فدعا عليهم فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين فأجهدهم ذلك فوجهوا الى مكة رجالا يستسقون لهم في الحرم.

و لم تزل العرب تعظم موضع البيت، وكان موضعه بعد الطوفان ربوة حمراء، وأهله العماليق وسيدهم معاوية بن بكر، فقدم عليه وفد عاد للاستسقاء وفيهم قيل بن عمرو ويزيد بن ربيعة، ونعيم بن هذال، ولقمان بن عاد، فقدموا ونزلوا على معاوية بن بكر وأقاموا عنده شهراً يأكلون ويشربون وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان كانتا لمعاوية بن بكر، فلما طال أمرهم أشفق عليهم معاوية بن بكر لأنهم أخواله وخاف عليهم، فصنع شعراً ينبههم به ويحثهم على ما قدموا له، وأمر الجاريتين فغنتاه:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم	لعل الله يمطرنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً	قد أمسوا لايبينون الكلاما
وأنتم هاهنا فيمااشتهيتم	نهاركم وليلكم التماما

فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية ولا السلاما

فانتبه القوم لما سمعوا الشعر ونهضوا يستسقون، فلما استسقوا نشأت لهم ثلاث سحائب بيضاء وسوداء وحمراء، ونودي قيل منها اختر لقومك قال البيضاء جهام قد فرغت ماءها، والحمراء ريح والسوداء غيث فاختارها فقيل قد اخترت رماداً رمدداً لا يبقي من عاد أحداً، لا والداً ولا ولداً.فدخلت الريح على عاد من واديهم، فأقامت سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، والحسوم الدائمة حتى هلكوا عن آخرهم، وتهدمت ديارهم و لم يمنعهم جدار ولاجبل حتى هلكوا عن آخرهم، و لم يبق إلا رسمهم.

و روي أنه لما استسقى وفدهم بمكة، ساروا في طريقهم فنودوا في طريقهم: إن عاداً قد هلكوا عن آخرهم، فاختاروا لأنفسكم، فاختار قيل أن يلحق بقومه، فسار نحوهم فلقيته الريح فأهلكته، واختار مزيد براً وصدقاً وكان مؤمناً بهود عليه السلام، فأعطى ما سأل.

واختار نعيم حياة ألف سنة لايمرض ولايهرم، ولاتصيبه حاجة فأعطي ما اختار، واختار لقمان عمر سبعة أنسر فأعطي ما أختار، وكان يأخذ النسر فرخاً يربيه حتى يهلك، ثم يأخذ عند هلاك ذلك فرخاً آخر، فيفعل به كذلك، حتى بلغ سبعة ا88 أنسر، وكان آخرها لبد، وقد ضربت العرب به الأمثال في أشعارهم قال الأعشى:

ألم تر لقمان أهلكه ما مر من سنة ومن شهر

وبقي نسر كلما انقرضت أيامه عادت إلى نسر

ما مر من أمد على لبد وعلى جميع نسوره السمر

قد ابلت الأيام نضرته وأودعت لقمان في القبر

وقال النابغة الذبياني:

أمست خلاء وأمسى أهلها انقرضوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

ولما قسم نوح عليه السلام الأرض بين بنيه جعل لسام وسط الأرض، والحرم وما حوله واليمن إلى حضرموت إلى عمان والبحرين إلى عالج إلى طرف بلاد الهند، وكان هذا كله مدناً وقرى وحصوناً وقصوراً ومصانع وبساتين يتصل بعضها ببعض، الى ان سخط الله على قوم هود فأفسد كثيراً منها.

وجعل الله في ولد سام النبوة والبركة، وجعل لحام بعض الشام ومصر إلى أعالي النيل وبلاد النوبة والبجة، وأصناف السودان مع البحر الأحمر إلى بلد الحبشة والهند والقوط والسند.

وقسم ليافث بلاد الترك والصين، ويأجوج ومأجوج، والصقالبة والروم وإفرنجة والأعبورة والأندلس الى البحر المظلم، وسواحله وجعل ليحطون صين الصين إلى بلاد الشحر إلى ناحية اليمن، فكثروا من كل

جانب وانبسطوا الى جهة بابل، وبورك فيهم فصاروا نيفاً من سبعين ألف بيت على خلق عظيم إلى أن ضرب بينهم إبليس، وكانت البلبلة فافترقوا.
وكان أول ملك منهم النمرود الأول بن كوش بن حام، وكان أسود أحمر العينين مشوها في جبهته كالقرن، وكان أول أسود يرى بعد الطوفان، فكان من ولده لدعاء نوح عليه السلام على ابنه حام، وذلك أن نوحاً عليه السلام نام فانكشفت عورته، فرآها حام فضحك و لم يغطه، وسكت يافث، و لم ينكر عليه فصاح سام عليهما، وعلم ذلك نوح فدعا على حام أن يكون ولده سوداً مشوهين عبيداً لولد سام، ودعا على يافث أن يكون ولده عبيداً لبني سام، وأن يكونوا أشرار الناس.

وكان حام من أجمل البرية وأتمهم كمالا وأطيبهم ريحاً، فاجتنب امرأته أن يطأها خوفاً من دعوة أبيه، فلما مات أبوه غلبه ذلك على اعتقاده، فقرب منها فحملت بكوش بن حام وأخته، فلما رآهما حام فزع منهما، وأتى اخوته فأخبرهما وقال لهما قلت لامرأتي هل شيطان أوأحد غيري أتاك ؟ فقال اخوته هذه دعوة ابيك فاغتم لذلك وترك امرأته دهراً، ثم غشيها فولدت قوطا وتوأمته، فلما رأى ذلك هرب في البلاد وغاب فلم يدر أين يذهب، و لم يكن أشد تجبرأوتكبراً وعتوا من النمرود الأسود.
وكان له بعض كهان فأتاه ابليس فقال له أنا كاهن من الكهان، و لم أر أحداً يعادلك في الكهانة أنا معينك ومتمم أمرك، وجاعلك ملك الملوك، على أن تذ بح لي ولدك قرباناً، وتصلي لي ثلاث صلوات فأقلدك وأكون معك، وأجعلك كاهناً كاملاً تاماً وأقيمك مقامي ففعل ما أمر به فأمر إبليس الشياطين بطاعته، وليكون معه، ثم أتوه بولد سام فحاربهم وعاونه إبليس فقهرهم واستبعدهم، فانقادوا له وأطاعوه فبنى له إبليس قصراً وصفحه بالذهب المكللة بالجوهر تضيء ما حوله ودفع اليه سيفاً يتألق نوراً في رأسه ثعبان يمتد إلى من يوميء اليه فيقتله، فلما رأى الناس ذلك أذعنوا له بالطاعة، ثم دعاهم إلى عبادته فأمر أن يبنى له صرح من الحجارة ومن الكلس فلم يبق احد إلا عمل فيه وقال يكون حصناً لكم.
وعاونته الأبالسة فبنى صرحاً عظيماً فبلغ ارتفاعه في الجو تسعمائة ذراع، ثم هندم أعلاه بأغرب بنيان وبنى فيه مجالس على أساطين غريبة، وكان عرض كل حائط من حيطانه الأربع ألف ذراع وما بين ذلك من الطبقات جعلها كلها مخازن وملأ جميعها من المال والطعام والشراب وجميع الآلات وكل ما يخاف أن يحتاج اليه يوماً من الدهر بما يقوم به هو وأهله مدة من الدهر طويلة، وجعل مجلسه أعلاه وأمر الناس أن يعبدوه.
واتخذ صاحب خبره جنياً بينه وبين الناس، فاذا رفع اليه أن أحداً امتنع عن عبادته أمر به فطرح من أعلى الصرح إلى أسفله.

وزعم قوم أنه يكون على السحاب ويصعد إلى الفلك، وكان يركب عجلة منصوبة على ظهور الشياطين وينحدر منها إلى الأرض ففرق الناس منه وافتتنوا به وعبده كثير منهم، وعظم أمره.واتصل بسام أنه يريد قتله، وقد عزم عليه فأخرج سام الأسماء التي علمه نوح عليه السلام إياها، وقال له لا تدع بها إلا في مهم عظيم ففيها اسم الله الأعظم، وقال: اللهم أنت الداعي لعبادك وبعينك ما هم فيه وما خرجوا من الفتنة اليه بغلبة هذا الجبار الذي قد استهوته الشياطين وانقيادهم له، وإن لم تغثهم ضلوا وهلكوا، وأنت أعلم بما يصلحهم، فاحقن دماءهم وامنع هذا الجبار منهم، وخذه بجريرته واكفنا أمره.

فأمر الله عز وجل الرياح الاربع فأقبلت على ذلك الصرح من جوانبه فجعلته دكا واتبع ذلك ظلمة شديدة ورجفة عظيمة تزعزعت لها الجبال.

فنهض العالم على وجوههم لا يرى بعضهم بعضاً، ولا يدرون أين يتوجهون وضعفت ألسنتهم عن الكلام.

وهلك اللعين عدو الله النمرود، وهلك من كان يعبده، ومشى الناس في الظلمة هاربين ثلاثة أيام ثم لاحت لهم شعوب فيها نور يسير، فتشعب كل شعب فرقة هربت نحوه طلباً للنجاة، وتبع كل فرقة قوم يحثونهم، وهذا بلغة غير لغة الفرقة الأخرى، حتى خرجت كل فرقة إلى ناحية من الأرض وقد تبلبلت ألسنتهم وكثرت لغاتهم، فاذا وصلت فرقة منهم إلى موضع ناداهم مناد"هذا موضعكم الذي تكونون فيه فاعتمروا فيه وأثمروا".

فخرج بنو سام لناحية اليمن إلى الشحر وحضرموت ألى آخر خط الاستواء، فمنهم العرب العاربة.

وخرج بنو حام إلى السند والهند وبلاد أسوان. وخرج بنو يافث إلى الشمال؛ فمنهم الروم والخزر والترك والصقالبة والافرنج، ويأجوج ومأجوج.

وخرج بنو يحطون إلى الصين الاقصى وأقاصي الشرق، فنزل كل قوم في موضعهم وعمروه وتوالدوا فيه إلى اليوم.

ونذكر من أخبار آدم عليه السلام ما وقع الينا في نقله بعض الخلاف، وفي ذكره فائدة.

آدم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكة على ما تقدم ذكره، وأسكنه جنته بفضله، وأهبطه بذنبه إلى الأرض، وتاب عليه، وعلمه جميع العلوم، وملكه على الارض، وكثر في جميع العالم منه أفاضلهم وأشرارهم وهو أول من صام وصلى وقرأ وكتب.

وكان من أحسن المخلوقين وجهاً، وكان أمرد أجرد، وأنزل الله تعالى عليه إحدى وعشرين صحيفة، وتوفاه الله وهو ابن سبعمائة سنة وخمسون سنة، وكان عمره الف سنة، فوهب لداود منها خمسين سنة لما

عرضت عليه أعمارهم وصورهم فرأى عمر داود قصيراً.

وأوصى بعده إلى ابنه شيث، وكان فيه وفي بنيه النبوة والدين والعبادة والقيام بحقوق الله تعالى وشرائعه.

وأنزل الله تعالى على شيث تسعاً وعشرين صحيفة، وكان مسكنه فوق الجبل وسكن ولد قابيل أسفل الوادي، وكان عمره تسعمائة سنة واثنتي عشرة سنة واستخلف ابنه أنوشا وكان عمره تسعمائة وخمسين سنة، واستخلف ابنه قينان وهو الذي كانت الوصية إليه وقسم الأرض بين بني أبيه، فطاف وهو ابن تسعمائة وعشرين سنة ، ودفع الوصية الى ابنه هطيل وفي وقته بنيت الكعبة، وكان عمره ثمانمائة سنة وخمساً وتسعين سنة، وأوصى إلى ابنه يرد وعلمه وضع العلوم، وأخبره بما يجري في العالم، ويحدث بنظره في النجوم، وفي كتاب سر الملوك الذي أنزل علىآدم عليه السلام.

وولد ليرد خنوخ وهو إدريس عليه السلام، وقد تقدم خبره مع يمحويل الملك ويقال إن يمحويل الملك بعث إلى أبيه أن يبعث اليه إدريس فامتنع؛ فوجه اليه جيشاً فمنعه منه أعمامه.

وجميع ولد شيث فلم يصل اليه، و لم يكن بعد شيث وحي؛ حتة نبأ الله تعالى إدريس عليه السلام.

وكان عمر يرد سبعمائة وخمسين سنة، ويقال إنه أول من استوقد واستعبد وغزا بني قابيل، ونظر في علم الفلك، ووضع المكيال والميزان، وأوتي علم الطب والنجوم، وعلم الزيجات بحساب غير حساب الهند، وسأل ربه فأراه الصور الفلكية العالية.

وكانت الارواح تخاطبه، وعلم أسماء الصعود والهبوط فصعد وهبط، ودار حول الفلك وعرف أشكال النجوم ووقف على مسير الكواكب، وعرف كل ما يحدث في العالم، فزبره على الحجارة وعلى الطين.

وزيد مع ذلك كل العلوم والصناعات، وكانت له قصص تطول مع ملك الموت ومات ثم عاش ونظر إلى النار ودخل إلى الجنة و لم يخرج عنها.

ورفع على رأس ثلاثمائة سنة من عمره، وكان يقال له هرمس باسم عطارد، وعلم ابنه صابيا الخط فقيل لكل من كتب الخط بعده صابيا.

وهو الذي أخبربالطوفان، وما يحدث في العالم ودفع الوصية، والصحف إلى ابنه متوشلخ وأمر صابيا بمعونته.

وكان صابيا قد بلغ مبلغاً جليلاً، وعاش متوشلخ تسعمائة سنة واثنتين وثلاثين سنة.

وانتقلت الوصيةإلى ابنه لمك فأخذ في البحث وجمع العلوم، وأقبل على بني أبيه فجمعهم وأمرهم ونهاهم وحضهم على الجور لولد قابيل ونهاهم عن قربهم وعن الاختلاط بهم، وهو الذي رأى ناراً خرجت من فيه، فأحرقت العالم.

ولماولد له نوح عليه السلام والملك يومئذ درمشيل بن يمحويل بن خنوخ بن يحمور بن قابيل ابن آدم عليه

السلام، وكان قد تجبر وقهر الملوك على ما تقدم، لكنا نعيد ذكره هنا لما ورد في هذا الخبرمن الزيادة والاستقصاء.

وكان إبليس قد استمال الملك ودعاه إلى عبادة الكواكب ودين الصابئة، وقال له هو دين أجدادك، فأجابه وعمل له الشيطان هياكل واصناماً عبدوها.

ويقال إنه لم يستخرج أحد من المعادن والجوهر واللؤلؤ والمرجان أكثر مما كان في وقت الدرمشيل، وكان شديداً على نوح والله تعالى يحفظه منه وعاش الملك ثلثمائة سنة.

ونبأ الله تعالى نوحاً عليه السلام وهو ابن مائة وخمسين سنة وأرسله الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان مائة سنة، وكان أول نبي بعد إدريس عليهما السلام.

وكانت شريعته التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج وجهاد الأعداء، فدعا قومه إلى الله تعالى وحذرهم عذابه، وكلما قام فيهم ودعاهم عنفوه وحذروه وأخفوا أمره عن الملك، وكان يحضر هياكلهم وبيوت أصنامهم، فاذا قال لهم قولوا لاإله إلا الله وأني عبد الله ورسوله جعلوا أصابعهم في آذانهم وادخلوا رءوسهم في ثيابهم تبرءاً مما يقول.

ولما قال لهم يوماً قولوا لا اله إلا الله وقعت الأصنام على وجوهها فقاموا اليه فضربوه حتى سقط على وجهه، وعرف الملك خبره فأحضره وقال به ما هذا الذي بلغني عنك من مخالفتك لديني وما عليه بنو أبيك وسبك لآلهتنا؟ وما هذا السحر الذي اسقطت به الأصنام عن كراسيها؟ ومن الذي علمك ذلك؟.

فقال له نوح عليه السلام لو كانت آلهة كما تزعم ماسقطت، وأنا عبد الله ورسوله فاتق الله تعالى ولا تشرك به شيئاً، فانه يراك فأمر بحبسه إلى أن يحضر عيد الأصنام فيذبحه تقربا اليه.

وأمر برد الأصنام على كراسيها، وإصلاح ما تغير منها، وحان العيد وقرب فنادى في الناس أن يجتمعوا ليروا ما يصنع به، فدعا عليه نوح عليه السلام فأصابه صداع في دماغ رأسه أذهب عقله، فأقام اسبوعا ثم هلك فحمل على سرير ذهب، وطيف به في هياكل الأصنام، وهم يبكون عليه ثم دفنوه، وشتموا نوحا ونالوا منه بألسنتهم كل قبيح.

وولى الملك ابن الدرمشيل فأخرج نوحا من حبسه، زعم أنه مجنون وتقدم إليه ونهاه أن لايعود الى ذلك الفعل فأقام إلى أن اجتمعوا في بعض أعيادهم عكوفا على أصنامهم خرج حتى أتى جمعهم.

فقال: قولوا لاإله إلا الله وإني عبد الله ورسوله، فتساقطت الأصنام وقاموا إلى نوح عليه السلام فضربوه وشجوه وسحبوه على وجهه، ثم أتوا به الملك فقال له الملك ألم أصفح عنك، وأسرحك من حبس ابي على أن لا تعاود؟ فقال له إني عبد مأمور بما أفعله، قال ومن أمرك ؟ قال إلهي، قال ومن إلهك قال اله

السموات والأرض وما فيها وخالق الخلائق اجمعين، قال وبماذا أمرك؟ قال ادعو الناس الى عبادته وحده، واخلع الأصنام، واعمل بما فرضه الله تعالى من الصلاة والزكاةوالصيام قال فان لم نفعل ما تقول، قال الأمر اليه إن شاء اهلككم وإن شاء امهلكم، قال فاترك إلهك وما يريده وكف أنت عنا نفسك، قال ماينبغي لي أن أكف ولاأقدر لأني عبد مأمور، فأمر بحبسه إلى أن يتقرب به إلى الأصنام.

فخرج على الملك سرنديب الكاهن الجبار، وكانت بينه وبينه حروب شغل بها عن أمر نوح عليه السلام وتشاءم بحبسه فأمر بتسريحه حتى يخلو له وجهه ثم صالح الكاهن على ناحية تركها له من عمله؛ وعاد الى ما كان فيه من ملكه.

وكان إبليس يحرضه على قتل نوح عليه السلام، ويزينه له فيمنعه الله تعالى منه وزاد أمر نوح عليه السلام، فوجه الملك إلى جميع ممالك الأرض ليوجهوا له كل كاهن، وكل عراف لمناظرة نوح عليه السلام فشخصوا اليه من الآفاق، فناظروه فغلبهم نوح عليه السلام بالحجة والبرهان.

فآمن منهم الكاهن فيملون المصري، واتبعه حتى دخل معه في السفينة، وأوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام ان اصنع الفلك بأعيننا، فقال كيف أصنعه؟ فأهبط الله تعالى جبريل عليه السلام حتى أراه إياها، وامره ان يبنيها على مثل صدر البطة فأقام في عملها عشر سنين، وعملهامن خشب الساج، وجعل طولها ثلاثمائة ذراع وقيل دون ذلك، وجعل ارتفاعهامن الأرض خمسين ذراعا، وجعلها ثلاث طبقات كما امر.

وكانوا يهزءون منه ويضحكون، وكان الرجل منهم يأتي إليه بأبنه الصغير فيحذره منه، وربما رماه الصبيان بالحجارة فآذوه، ولما فرغ من عمل السفينة جعل بابها في جنبها، وأقامت موضوعة على الأرض تسعة أشهر حتى حضر عيد لتلك الأصنام، فاجتمعوا اليه وقربوا اليه ثلاثمائة رجل ممن آمن بنوح عليه السلام، ذبحوهم بين أيديهم، فحق عليهم العذاب.

وأمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يدخل في السفينة من كل زوجين اثنين، فقال يارب من أين لي أن اجمع ذلك فأمر الله تعالىالرياح فحشرت اليه كلما أراد، وأمر به فأدخل فيها من كل زوجين اثنين.

وكانت السفينة ثلاث طبقات، فجعل الطبقة السفلى للبهائم والدواب والطير وجعل الوسطى لطعامهم، وجعل جسد آدم في تابوت فيها، وجعل العليا له ولمن دخل معه.

وركب الملك إلى هيكل الأصنام فاقام فيها حيناً، ثم مشى إلى السفينة، وقد علم بما شحنت فيه وعزم على حرقها، فلما وقف عليها قال يا نوح واين الماء الذي يحملها؟ قال هو يأتيك في مكانك هذا وأمر الملك فرميت السفينة بالنار، فرجعت عليه وعلى أصحابه فأحرقت بعضهم، وفار الماء على ماتقدم ذكره، وفتحت أبواب السماء بالمطر وحيل بينهم وبين صعود الجبال، و لم يدروا أين يتوجهون، وكانت المرأة تحمل ولدها على عنقها، فاذا لجحها الغرق طرحته، فقيل لو رحم الله الكافر لرحم الصبي وأمه.

وقال أصحاب النظر في الكواكب سلمت ثلاثة مواضع، لم يدخلها الطوفان ونحن لا نقول بذلك، والفرس لعنهم الله لا يقولون بالطوفان ولا بنبوة نوح عليه السلام، ونحن لا نقول بقولهم، والهند يزعمون أنه لم يكن ببلدهم من الطوفان شيء وكذلك أكثر سكان الجزائروالبحار يزعمون ذلك.

وقيل إن السفينة أقامت في الماء ستة أشهر، ويقال إنه سارت شرقاً وغرباً وأتت موضع الكعبة وكانت معهم خرزة يعرفون بها الليل، ومواقيت الصلوات.

ولما نزلوا من السفينة على ما تقدم ذكره أمرهم نوح عليه السلام بالزراعة وغرس الشجر، وتفقد الكرمةفلم يجدها، وسأل عنها فعرفه جبريل عليه السلام أن إبليس سرقها، لأن فيها شركة فاقتسمها معه، فقال نوح اعطه منها الربع، قال لا يكفيه فزده، قال فاعطه النصف، قال لا يكفيه ولكن يكون له الثلثان ولك الثلث، قال فنعم إذن.

قال فماطبخ من عصير الكرم بالنار حتى يذهب ثلثاه، كان حلالاً لك ولذريتك، وما نقص من ذلك كان له، ولمن كان من اتباعه.

وقال إبليس لنوح عليه السلام إن لك عندي يداً أرعاها لك قال وما مكافأتك؟ قال وصيةأوصيك بها، قال وما هي ؟ قال إياك والحسد والحرص والعجلة فان الحسد حملني على أن عصيت ربي، وغويت آدم حتى خرج من الجنة، والحرص حمل آدم وحواء حتى أكلا من الشجرة، فغضب الله عليهما، والعجلة التي حملتك علىأن دعوت على قومك فأهلكتهم جميعاً.

ذكر عناق بنت آدم عليه السلام

نرجع الآن إلى مايجب ذكره من بقية أخبار آدم عليه السلام، ولدت عناق بنت آدم مفردة بغير أخ وكانت مشوهة الخلق لها رأسان، وكان لها في كل يد عشر أصابع، لكل أصبع ظفران كلمنجلين الحادين.

ذكرها علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: هي أول من بغى في الأرض وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي واستخدم الشياطين، وصرفهم في وجوه السحر.

وكان الله عز وجل أنزل على آدم عليه السلام أسماء تطيعها الشياطين، وأمره أن يدفعها إلى حواء فتعلقها على نفسها فتكون حرزاً لها، ففعل ذلك، وكانت حواء تصونها وتحتفظ بها، فاغتفلتها عناق وهي نائمة، فاخذتها واستجلبت الشياطين بتلك الأسماء، وعملت السحر، وتكلمت بشيء من الكهانة وجاهرت بالمعاصي وأضلت خلقاً كثيراً من ولد آدم عليه السلام، فدعا عليها آدم عليه السلام، وأمنت حواء فأرسل

الله إليها في طريقها أسداً أعظم من الفيل فهجم عليها ببعض المغاور فقتلها، ومزق أعضاءها، وأراح الله آدم وحواء منها.
ويقول أهل الأثر: إن عوجا الجبار من والدها:وإن الطوفان لم يغرقه ولا بلغ ماؤه إلا بعض جسده، وأنه طلب السفينة ليغرقها فأعماه الله عنها، وعمر الى زمان فرعون، وقطع صخرة على قدر عسكر موسى عليه السلام وكان في أكثر من ستمائة الف، وحملها على رأسه ليطرحها عليهم، فارسل الله في طريقه ذلك عليه طيراً نقر ذلك الحجر حتى ثقبه، ونزل من رأسه إلى كتفيه فصار رأسه مضغوطاً في الحجر فمنعه الرؤية، وتعذر عليه الحركة، وأمر الله تعالى موسى عليه السلام بقتله، وكان لموسى ايد قوية، وكانت وثبته عشرة أذرع، وطول عصاه مثلهاوطوله كثيراً فوثب اليه فلم يضرب بطرف عصاه إلا عرقوبه، فسقط لثقل الحجر فقتله ووافق سقوطه عرض النيل. فأقام كالجسر يعبر الناس عليه والدواب كالقنطرة مدة طويلة.
وفي حديث آخر أنهم جروه في خمسة أشهر في كل يوم ألف ثور مقرنين بعجلات مع تعاونهم عليه في كل يوم نصف ذراع حتى طرحوه في بحر القلزم.
وقيل بل قطعوه قطعاً وجروه إلى البحر، وقيل إن سقوطه كان في صحراء مصر فترك في موضعه وردم عليه بالصخور والرمل حتى صار كالجبل العظيم.

ذكر أخبار الكهان من العرب

بلغ سطيح من الكهانة ما لم يبلغه أحد، وكان يسمى كاهن الكهان، وكان يخبر بالغيوب والعجائب فقيل إن ربيعة بن نصر اللخمي رأى رؤيا هالته، فأمر بجمع الكهان وأصحاب القيافة والزجر، فلما حضروا عنده قال لهم إني رأيت رؤيا هالتني فأخبروني بها، فقالوا له قصها علينا نخبرك بتأويلها، فقال ما أطمئن الى تأويلها إذا قصصتها عليكم، ولا أصدق في تأويلهاإلا من عرفها قبل أن أقصها عليه.
فقال له رجل منهم: لا يفعل ذلك ويوثق بقوله إلا سطيح الذئبي وشق اليشكري، فهما أعلم، فارسل اليهما ليقدما عليك.

فقدم سطيح قبل شق، وكان اسم سطيح ربيع بن ربيعة من بني ذئب بن عدي، فاكرمه ربيعة بن نصر، وقال له إني رأيت رؤيا هالتني، وأريد أن تخبرني بها وبتأويلها.
فقال سطيح: أقسم بالشفق، والليل إذا غسق، والطارق إذا طرق، لقد رأيت حممة خرجت من ظلمة، فوقعت في أرض تهمة، فأكلت كل ذات جمجمة.

قال صدقت فما تأويلها ؟ قال أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليطأن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أبين الى جرش.

قال ربيعة إن هذا لغائظ موجع، فهل في زماننا ؟ قال لا بل بعده بحين اكثر من سنين او سبعين، يمضين من السنين، ثم تقتلون بها أجمعين، وتخرجون منها هاربين.

قال فمن يلي ذلك منهم؟ قال غلام رحب الفطرة من آل ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحداً منهم باليمن.

قال فما تصنع اليمن؟ قال يملكها بعدهم قوم ذوو أخطار من رجال أحرار، قال أفيدوم ذلك أو ينقطع؟ قال بل ينقطع، قال ومن يقطعه؟ قال نبي ذكي أمين قوي، يأتيه الوحي من قبل الواحد العلي: قال وممن هذا النبي ؟ قال من ولدغالب بن فهر بن مالك بن مضر، يكون الملك في قومه الى آخر الدهر.

قال وهل للدهر من آخر ؟ قال نعم يوم انفطار السماء، والوقوف للجزاء، بالسعادة والشقاء.

قال وأي يوم هو؟ قال يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، ويسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون.

قال أحق ما تخبرنا به ياسطيح؟ قال نعم والشفق، والغسق، والقمر اذا اتسق، أن ما أنبأتك به لحق.

ومن أخباره أيضاً: أنه كان لعبد المطلب بن هاشم ماء بالطائف، يقال له ذو الهدم، فادعته ثقيف فجاءوه فاحتفروه، فمنعهم عبد المطلب فعظم خصامهم، فنافرهم عبد المطلب الى سطيح، فخرج عبد المطلب ومعه ابنه الحارث، وخرج معه جماعةمن قومه، وخرج خصمه جندب بن الحارث في جماعة من ثقيف، فلم كان في بعض الطريق نفذ ماؤهم فطلبوا الى الثقيفيين أن يسقوهم فلم يفعلوا، فترل عبد المطلب وأصحابه، وهم لا يشكون أنه الموت، ففجر الله عين ماء عذب من تحت جرات بعير عبد المطلب فشربوا واستقوا وحمد الله عز وجل عبد المطلب وشكره وساروا على طريقهم فنفد ماء الثقيفيين فسألوا عبد المطلب أن يسقيهم ففعل فقال له الحارث: لأن أدخل سيفي في بطني أخف علي من أن أفعل ذلك! قال له يا بني اسقهم فان الكرم ثقيل الحمل، فسقاهم فساروا فقطعوا رأس جرادة فجعلوه في خرز مزادة وعلقوه في جلد في عنق كلب لهم اسمه سوار، وكانت في عنقه قلادة لا تعارقه.

فأتوا سطيحاً فلما دخلوا عليه قالوا إنا أتيناك سائلين، قال فماذا تسألون؟ قالوا نسأل عن شيء قد خبأناه، ونحتكم عندك في شيء وقع التخاصم بيننا فيه، فقال خبأتم رأس جرادة في خرز مزادة في عنق سوار ذي القلادة، قالوا صدقت فأخبرنا عما اختصمنا فيه اليك، قال احلف بالضوء والظلم، والبيت ذي الحرم، أن الدفين ذا الهدم، لهذا العربي ذي الكرم، فانصرفوا وقد قضى لعبد المطلب.

ومن أخباره أن كسرى ابرويز لما رأى في نومه كأنه سقط من قصره ست عشرة شرفة ارتاع لذلك، فوجه الى الموبذان فعرفه بذلك وقال أن ذلك قد هالني وأفزعني. قال الموبذان: أيها الملك عسى أن يكون

خيراً، وإني أيها الملك كنت أرى البارحة ان النيران قد خمدت، وقلعت بيوتهاوهلك سدنتها وقد اغمني ذلك، وكنت عزمت على أن لا أخبر الملك حتى يوجه إلي فأتيته.

قال كسرى فما الداعي ؟ قال الموبذان قد بلغني ان بأرض العرب كاهناً يقال له سطيح، يخبر بما يكون قبل كونه، فلو أرسل اليه الملك رسولاً يسأله عن ذلك، فلعله أن يخبره بالجواب فيه.

قال كسرى ومن لنا بحصيف ينفذ في ذلك ؟ وكان على باب الملك فيمن وفد عليه من العرب رجل، يقال له عبد المسيح من وهط سطيح، فأشار به الموبذان على كسرى، فأحضره و لم يخبره بما رآه، وقال انطلق إلى سطيح، فاسأله عن رؤيا رأيتها، فاذا اخبرك بها، فاسأله أن يخبرك بتأويلها، فاذا أخبرك فارجع مسرعاً ولا تتخلف، قال أفعل أيها الملك، فأمر له بمال وجائزة، وحمله جائزة الى سطيح.

فركب عبد المسيح راحلته، ومضى مبادراً يقطع المفاوز والفيافي، حتى لحق مكان سطيح بعد ايام، فلما بلغ بيته وجده عليلاً لما به فوقف عليه وسلم وجعل يرتجز ويقول ليسمعه:

اصم ام يسمع غطريف اليمن   يافاصل الخطة اعيت من ومن

قال سطيح مجيبا له عبد المسيح، على جمل فسيح، أوفى على سطيح، وقد أشفى علىالضريح، يسأل عن ارتجاج الايوان، ورؤيا الموبذان، وخمود النيران.

قال: فالتأويل يا سطيح ؟ قال: تنقضي أيامهم، وتنقطع آثارهم، وتملك العرب ديارهم، عند ظهور صاحب التلاوة، والقضيب والهراوة.

قال: ومتى ذلك يا سطيح ؟ قال: إلى أن يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وقبل ذلك ينقضي امر سطيح ويواريه الضريح، ولا يصلح له فيها قرار.

وقد روي هنا الكلام على غير هذا النوع واكثر منه كلاماً فرجع عبد المسيح إلى كسرى، وقد دعى كلامه، فعجب كسرى وسره وقال: إلى أن يلي منا ستة عشر ملكا يكون سعة لدفع الهم، ولعل ذلك لا يكون، فرأى الملك منهم تلك العدة في سنين قليلة حتى انقضى ملكهم في خلافة عثمان رضي الله عنه.

وقيل إن الرؤيا كانت ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقال إن سطيحا عاش أربعمائة سنة.

وأما شق الاول، وهو شق بن حويل بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، فهو اول كاهن في العرب العاربة، وارم ابو الجبابرة من عاد وثمود وطسم وجديس وغيرهم، ويقال إنه كانت له عين واحدة في جبهته، ويقال إنه كان يشق وجهه نار.

ويقال ان الدجال من ولده، ويقال إنه هو الدجال بعينه، أنظره الله إلى وقته، وهو محبوس في بعض جزائر

البحر.

وفي حديث تميم الداري انه خرج في بعض الأسفار فوقع الى جزيرة، فرآه وخاطبه، وسأله عن ظهوره، وانه وجده مغلولا، مشدوداً إلى صخرة، وان الشياطين تأتيه بمايأكله، على ما يقول.

وفي خبر آخر أنه لا يحتاج الى الغذاء، ورآه تميم الداري، وله عين واحدة؛ وحدث بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وكان يرويه عنه فيقول: حدثني تميم الداري، ويذكر طرفاً من خبر الدجال.

ويقال إن أمه امرأة من الجن عشقت أباه حويلا؛ فتزرحته فأولدها الدجال وهو خوص بن حويل، وكان مشوهاً مبدلاً، وكان إبليس يعمل له العجائب، فلما كان وقت سليمان عليه السلام دعاه فلم يجبه، فحبسه في جزيرة في البحر.

وقيل أن أباه استهوته الشياطين لما كانت أمه منهم، وانه من مدينة ماريول التي غلبت عليها الجن، وهي من مدائن المغرب، وأن الجن في طاعته.

ويقال إن خوصاً هذا كان يحضر السارق فيأمره برد ما سرق، فان فعل وإلا صار حية فيلتوي في عنقه فيقتله، وقيل أنه ربما خاطبهم ولا يرونه، وكان إذا حكم على أحد فلم يرض حكمه بصبص أحذقته في احدى عينيه فرده أعور.

وقيل أن مجلسه كان في قبة بوادي برهوت في اليمن، وكانوا يحجون اليه، وقيل انه لم ينم قط، وانهم كانوا يرون فوق عينيه ناراً بيضاء، وكذلك عن الموضع الذي هو فيه مسجون انه يعلوه بالليل نار مضيئة وبالنهار دخان.

وأما شق اليشكري وكان حكيم العرب في الجاهلية، وقد كان ربيعة بن نصر لما رأى رؤياه وجه الى شق وسطيح، فأتاه سطيح قبل شق، وكان من جوابه ما قدمنا ذكره في أخبار سطيح، فلما قدم عليه شق قال له: يا شق اني رأيت رؤيا هالتني فماهي؟ وكتمه قول سطيح، فقال له شق رايت حممة، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روض وأكمة فأكلت كل ذات نسمة، قال: صدقت فما تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحرتين من انسان، ليطأن أرضكم السودان، وليغلبن على كل طفلة البنان، وليملكن ما بين أبين الي نجران.

قال: أيكون في زماننا هذا؟ قال: بل بعده بزمان، ثم يستنقذكم عظيم ذو شان، قال: وممن هو هذا العظيم؟ قال: غلام من بيت ذي يزن؛ فلا يترك احداً منهم باليمن، قال: فهل يدوم ذلك ؟ قال: بل ينقطع برسول يرسل، يأتي بالعدل بين اهل الدين والفضل، يكون الملك فيهم إلى يوم الفصل، قال: وما يوم الفصل؟ قال: يوم يدعى من السماء بدعوات، يسمع بها الأحياء والأموات، ويجمع الخلق فيه للميقات، ويكون فيه لمن آمن الخير والخيرات، ولمن كفر الويل والترحات، قال: أحق ما تقول يا شق؟

قال: أي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، أن ما انبأتك به لحق محض، ما فيه كذب ولا نقض، فأجازه ربيعة بجائزة سنية، ووصله وصرفه.

خبر اليمامة الزرقاء

وهي صاحبة جو واليمامة، وسميت بها، وصاحبة البحرين، وقيل ان امها كانت كاهنة، وكان لها رئي من الجن وهي من جديس، وكانت جديس وطسم بمكان فغلبت طسم على جديس، وملك الجميع عملوق بن الطسم، وكان يفترع النساء قبل زواجهن، فاحتالت جديس عليه فقتلوه وقتلوا كثيراً من طسم فاستنصرت بقايا طسم بحسان بن تبع الحميري، فغزا جديساً طالبا بثار طسم.

وكانت اليمامة الزرقاء وعينها الواحدة اكبر من الاخرى، فاذا اغلقت الكبرى ابصرت بالصغرى على الفراسخ الكثيرة والأمد البعيد، وقيل انه كانت ترى فلك القمر، فتخبر عنه بأشياء عجيبة.

وقد كان اتصل بجديس استنصار طسم بحسان بن تبع الحميري، فقطنوا وقالوا لليمامة: انظري فنظرت، وقالت: اقسم بمهب الرياح، والآكام والبطاح، والمساء والصباح، لياتين من حمير الجيش الرداح، والخيل والسلاح، فلا ترون من بعدها فلاح.

فلما اصبحوا في اليوم الثاني قالوا لها: انظري فنظرت، وكان حسان لما قرب من جو بأربعة ايام قال لاصحابه ان اليمامة ستراكم على البعد الكثير فتنذر بكم، فليحمل كل واحد منكم غصناً من شجرة اعظم ما يقدر عليه ليسدل اغصانه عليه وجوانبه، ففعلواذلك.

فقالت اليمامة لما رأت ذلك: ياجديس قد اتتكم الشجر، تخبط المدر، فاستعملوا منها الحذر فكذبوها، وقالوا لها: اتسير الشجر؟ فلما كان في اليوم الثالث قالوا لها: انظري، فنظرت فقالت: ارى رجلاً في كتفه كتف، او نعل يخصفه فكذبوها، وقالوا قد تغير نظرها، وكيف ترى على هذا البعد ما لم يتصل بنا خبره، فكان حسان يسير بالليل ويكمن بالنهار، إلىأن صبحهم فقتلهم أبرح قتل، وهدم منازلهم واستباح نساءهم.

وأخذ اليمامة، وقال لها ألا عرفتيهم بمسيري؟قالت: قد فعلت لو قبلو، ونظر فرأى في عينها عروقاً سوداء، فقال لها: بم كنت تكتحلين؟ فقالت له: بحجر الأثمد، مربى بماء المطر. فقيل انه قطع يدها ورجلها، وقلع عينهاوصلبها، فيقال:إن رئيها من الجن لطمه فأعوره، ومنعه النوم فلم يكن ينام.

وقد ذكرت الشعراء اليمامة فأكثروا، قال الأعشى يذكرها في القصيدة التي أولها:

بانت سعاد فأمسى حبلها انقطعا

فقال يذكرها ونظرها:

ما نظرت ذات أشفار كنظرتها حقاً كما نظر الربى إذا شجعا

فكذبوها بما قالت فصحبهم جيوش حسان تزجي الموت والسلعا

وإياها عنى:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام شراع وارد الثمد

تحفه جانباً بير ويتبعه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد

قالت الا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما حسبت تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد

فكملت مائة منها حمامتها واسرعت حسبة في ذلك العدد

وقصتها في حديث الحمام مشهورة، وهذا هو القول الذي سجعت هي به:

ليت الحمام ليه إلى حمامتيه

أو نصفه قديه تم الحمام ميه

ذكر عجائب مصر وأخبار ملوكها وكهانها

لما ذكرنا الكهان وجب علينا ان نذكر كهنة مصر، لأنهم كانوا أعظم الكهان قدراً، وأجلهم بالكهانة علماً وكان حكماء اليونانيين يصفونهم بذلك، ويقولون أخبرنا حكماء مصر بكذا، واستفدنا منهم كذا وكذا.

وكان هؤلاء ينحون في كهانتهم نحو الكواكب، ويزعمون أنهاهي التي تفيض عليهم العلوم وتخبر بالغيوب، وهي التي علمتهم أسرار الطبائع، ودلتهم على العلوم المكتومة فعملوا الطلسمات المشهورة، والنواميس الجليلة وولدوا الاشكال الناطقة، وصوروا الصور المتحركة، وبنوا العالي من البنيان؛ وزبروا علومهم من الطب في الحجارة، وانفردوا بعمل البرابي، وعملوا من الطلاسم ما نفوا به الأعداء عن بلادهم وعجائبهم ظاهرة، وحكمتهم واضحة.

وكانت مصر خمساُ وثمانون كورة منها بأسفل الأرض خمس وأربعون، ومنها بالصعيد أربعون وكان في كل كورة رئيس من الكهنة وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قصة فرعون لما أشار عليه أصحابه، وقالوا"

ابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم" يريد هؤلاء الرؤساء.

وكان الذي يتعبد منهم لكوكب من الكواكب السبعة المدبرة سبع سنين يسمونه ماهراً، والذي يتعبد منهم للكواكب السبعة لكل واحد منهم سبع سنين، فمن بلغ هذه المرتبة منهم سمي قاطر وصار يجلس مع الملك ويصدر الملك عن رأيه، وإذا رآه قام إجلالا له، وكان زيهم أن يدخل كل يوم إلى الملك فيجلس الى جانبه فتدخل الكهنة، ومعهم أصحاب الصناعات فيقفون حذاء القاطر، وكل واحد من الكهنة منفرد بكوكب يخدمه لا يتعداه إلى سواه، ويسمى بعبد كوكب كذا كما كانت العرب تسمي عبد الشمس، فيقول القاطر لأحد الماهرين أين صاحبك؟ فيقول في البرج الفلاني في الدرجة الفلانية في دقيقة كذا، ويسأل الآخر في حذائه، حتى إذا عرف مستقر الكواكب، قال للملك ينبغي أن يعمل الملك اليوم كذا وكذا؛ ويأكل كذا وكذا، ويجامع في وقت كذا، ويقول له جميع ما يراه صلاحاً، والكاتب قائم بين يديه يكتب جميع ما يقول.

ثم يلتفت الى أهل الصناعات فيقول أنقش انت صورة كذا على حجر كذا فمتى رسم على أهل الصناعات فيخرجون إلى دار الحكمة، فيضعون أيديهم في الأعمال التي يصلح عملها في ذلك اليوم: ويستعمل الملك جميع ما قاله القاطر، ويؤرخ جميع ما جرى من هذا وشبهه في ذلك اليوم في صحيفة، وتطوى وتودع في خزائن الملك فعلى ذلك جرت أمورهم.

وكان الملك إذا حزبه أمر يجمعهم بخارج مصر، ويصطف لهم الناس بخارج المدينة ثم يقدمون ركباناً، يتقدم بعضاً، ويضرب بين أيديهم بطبل الاجتماع، فيدخل كل واحد منهم بأعجوبة، فمنهم من يعلو وجهه نور مثل نور الشمس فلا يقدر أحدهم النظر اليه، ومنهم من يكون على يديه جوهر أخضر واحمر على ثوب من ذهب منسوج، ومنهم من يكون راكباً على أسد متوشحاً بحيات عظام ومنهم من تكون عليه قبة من نور أو جوهر في صنوف من العجائب الكثيرة، إلا أن كل واحد إنما يصنع ما يدل عليه كوكبه الذي يعبده، فاذا دخلوا على الملك قالوا أرادنا الملك لأمر كذا، وأضمر الملك كذا، والصواب فيه كذا.

وكان بمصر القديمة واسمها أمسوس ملك كاهن يقال له عيقام من ولد عرباق ابن آدم فتحكي أهل مصر عنه حكايات كثيرة تخرج عن العقل.

وكان قبل الطوفان وقد رأى في علمه كون الطوفان، فأمر الشياطين الذين تطيعه أن يبنوا له مكاناً خلف خط الاستواء، بحيث لا يلحقه شيء من الآفات، فبنوا له القصر الذي على سفح جبل القمر، وهو قصر النحاس الذي فيه التماثيل من النحاس، وهي خمسة وثمانون تمثالاً، يخرج ماء النيل من حلوقها، وينصب

الى بطحاء مصر.

فلما عمل له ذلك القصر أحب أن يراه قبل أن يسكنه، فجلس في قبة، وحملته الشياطين على أعناقها اليه، فلما رآه ورأى حكمة بنائه، وزخرفة حيطانه، وما فيها من النقوش وصور الأفلاك؛ وغير ذلك من العجائب، وكانت المصابيح تسرج فيه، وتنصب فيه موائد يوجد عليها من كل الأطعمة، ولا يرون من يعملها، وكذلك لا إنس به.

وفي وسط القصر بركة من ماء جامد الظاهر ترى حركته من وراء ما جمد منه، وأشياء كثيرة من هذا المعنى، وإن كانت تنبو عنها العقول.

فاعجبه ما رأى ورجع الى مصر فاستخلف ابنه عرباق وأوصاه بما يوجب له الملك وولده على مكانه، ورجع هو الى ذلك القصر، وأقام به حتى هلك هناك.

واليه تعزى مصاحف القبط، التي فيها تواريخهم.

قونية الكاهنة

وفي مصاحف القبط أنها كانت تجلس على عرش من نار؛ فاذا ما احتكم إليها الرجل، وكان صادقا شق على النار حتى وصل اليها و لم تضره.

وكانت تتصور عليهم في أشكال كثيرة من الصور، إذا شاءت ثم بنت لنفسها قصراً واحتجبت فيه عن الناس، وجعلت حيطانه من نحاس مجوفة، وكتبت على كل أنبوب فيها من الفنون التي يتحاكم اليها فيه فكان الذي يتحاكم اليها يأتي إلى الأنبوب الذي كتب عليه ذلك الفن، فيتكلم بما يريده، ويسأل ذلك ما قصدله بصوت خافض غير عال، فاذا فرغ من كلامه جعل هو أذنه على ذلك الأنبوب، فيأتيه الجواب منه بكل ما يريده، فلم يزالوا مستعملين ذلك، الى أن خرب بخت نصر البلد.

وكان عرباق بن عيقام الملك قد تكهن بعد ابيه وعمل عجائت كثيرة، منها شجرة من صفر لها اغصان حديد بخطاطيف حادة، إذا تقرب الظالم الى الملك تقدمت اليه تلك الخطاطيف، وتعلقت به وشبكت يديه. و لم تفارقه حتى يحدث عن نفسه بالصدف، ويعترف بظلمه، ويخرج من ظلامة خصمه.

ومنها صنم من صوان أسود سماه عبد أفروبس أي عبد زحل، كانوا يختصمون اليه، فمن زاغ عن الحق ثبت مكانه، و لم يقدر على القيام حتى ينصف من نفسه، ولو أقام سنة او أكثر.

ومن كانت له حاجة منهم او طلب شيئاً عند ذلك الصنم، قام ليلا ونظر الى الكوكب، فذكر اسم عرباق وتضرع، فيصبح وقد وجد حاجته على باب مترله.

وكان ربما حملته أطيار عظام، وهو في مرتبته فيمر بهم وهم يرونه في الهواء فيزدادون له عبادة وهيبة، وربما علا على ناس منهم فملأ ماءهم من الاقذار، وسلط عليهم وحوش الأرض سباعهاوهوامها.
وكان من كهانهم فيلمون، وقد ذكرنا خبره مع نوح عليه السلام، وكان منهم شيمون وهو الذي كان يوقد النار، ويتكلم عليها، فتطلع منها صورة نارية، وكانت الكهانة عندهم عمل المعجزات، ولم يزل هذا كاهناً إلى وقت فرعون ملك مصر الذي كان الطوفان في أيامه، وكان يسكن الهرم المجوسي وكان هيكل الكواكب، وكانت فيه صورتا الشمس والقمر تنطقان، وكان الهرم الثاني ناووساًلأجساد الملوك التي نقلها إليه سورند، وفيه العجائب والتماثيل والمصاحف وكان فيه التمثال الذي يضحك وكان من جوهر اخضر، وخزنوا ذلك فيه خوفاًمن تلفه في الغرق.

خبر الكهان بعد الطوفان

وأما الكهان بعد الطوفان إلى خراب مصر فكثير، وأول من تكهن بمصر بعد الطوفان ابن فليمون كان قد ركب السفينة مع أبيه وأخيه وأخته وهي التي زوجها من ينصو بن حام، وهم الذين خرجوا إلى مصر وكانوا موحدين على دين نوح عليه السلام، ولم يكن اسم الكهانة عندهم عيباً بل كان الكاهن كالحاكم الذي لا يعصى له أمر.
وأول من تحقق بالكهانة، وغير الدين وتعبد الكواكب البودشير بن قفطويم بن ينصو بن حام، وكان ملكاً بعد أبيه، وذكره جميع الكهنة في مصاحفهم.
فانه كان من أجل كهانهم، وممن عمل النواميس العظام، وأقام أصنام الكواكب وبنى هياكلها.
وتزعم القبط ان الكواكب خاطبته وأنه عمل عجائب كثيرة، منها أنه استتر عن الناس بعد سنين من ملكه، وكان يظهر لهم وقتاُ بعد وقت مرة في كل سنة وهو وقت نزول الشمس في برج الحمل، ويدخل الناس اليه فيخاطبهم ويرونه، ويأمرهم بما يعملونه وينهاهم ويحذرهم مخالفة أمره، وكان يجلس بهم في بعض أوقات السنة فيخاطبهم عند دخولهم عليه، وينهاهم وهم لا يرونه.
والمكان الذي يكلمهم منه غير خفي عنهم، ولا يبعد منهم، ثم بنيت له قبة من فضة مموهة بالذهب وزخرف ما حولها، وكان يجلس لهم في أعلى القبة في صورة الوجه لعظيم، فيخاطبهم، بمثل ما كان يخاطبهم، وكان يجلس لهم في أعلى السحاب بوجه في صورة إنسان عظيم، فأقام كذلك مدة ثم غاب عنهم فلم يروه.
وأقاموا برهة ليس لهم ملك، إلى أن رأوا صورته في هيكل الشمس عند دخول الشمس الحمل، وأمرهم أن يقلدوا الملك لعديم بن قفطويم وأعلمهم أنه لا يعود إليهم، ففعلواذلك.

وأما بديرة الكاهنة فانها امرأة من أهل بيت الملك، يقال إنها أخت البودشير، وأنه القي إليها الكهانة فهي التي عملت اكثر الطلسمات والبرابي، وهي التي عملت القبطية الناطقة بمنف.

وكانت الكهانة في أهلها وولدها يأخذونها كابرا عن كابر، وهي التي حكى المصريون عنهاأنها عملت طلسمات منعت الوحوش والطيور أن تشرب من النيل فمات اكثرها عطشا.

وأن الله تعالى أرسل اليها ملكا فصاح بها صيحة ارتجت بها الأرض وتشققت جبالها فماتت من تلك الصيحة ويقال انها كانت تطير في الهواء والملائكة تضربها بأجنحتها إلى أن سقطت في البحر.

وأما شؤون الأشموني فيقال انه هرمس الاول، الذي بنى بيت التماثيل الذي يعرف بها مقدار النيل الذي عند جبل القمر وعمل للشمس هناك هيكلين.

وتحكي القبط عنه حكايات كثيرة، تخرج عن العادة، وتنكرها العقول، فكان يخفى عن الانسان فلا يرونه وهو معهم، وهو الذي بنى الاشمون.

ويقال إنها مدينة في شرقي مصر كان طولها اثني عشر ميلا وجعل عليها حصنا بنى فيه قصراً عظيماً يقال إنه بنى أنصنا واتخذ فيها الاعلام والملاعب.

واتخذ في سفح الجبل مدينة يقال لها طهراطيس وجعل فيهامن العجائب شيئا كثيراً، وجعل لها أربعة ابواب من كل جهة باب واحد، وجعل على الباب الشرقي صورة عقاب وعلى الباب الغربي صورة نسر وعلى الباب الجنوبي صورة اسد وعلى الباب الشمالي صورة كلب وملك فيها الروحانيات وكانت تنطق إذا قصد اليها القاصد ولا يصل احد إلى الدخول فيها دون استئذان الموكلين بها وغرس فيها شجرة تحمل كل صنف من الفواكه.

وبنى منارا طوله ثمانون ذراعا وعلى رأسه قبة تتلون في كل يوم لونا حتى تنقضي سبعة أيام بسبعة الوان ثم تعود إلى اللون الاول وتكسي المدينة ذلك اللون وجعل حول ذلك موضع ماء فيه سمك كثير، وجعل حول المد ينة طلسمات من كل صنف تدفع عن اهلها المضار.

وكانت أيضاً تسمى مدينة البوسق باسم الشجرة المنصوبة فيها.

أول من بنى الاهرام

كان سوريد بن فيلمون، وكان ملكا على مصر قبل الطوفان بثلاثمائة سنة فرأى في منامه كأن الأرض قد انقلبت بأهلها، وكأن الناس يهربون على وجوههم وكأن الكواكب، تتساقط، ويصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة مفزعة فرجف قلبه وأزعجه ذلك وأرعبه و لم يذكره لاحد، وعلم أنه سيحدث في العالم

أمر عظيم.

ثم راى بعد ذلك، كأن الكواكب الثابتة نزلت الى الأرض في صورة طيور بيض كأنها تخطف الناس، وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأن الجبلين قد انطبقا عليهم، وكأن الكواكب النيرة مظلمة كاسفة، فانتبه ايضاً مذعوراً فزعاً.

فدخل إلى هيكل الشمس، وجعل يتضرع فيه ويمرغ خديه في التراب، ويبكي، فلما أصبح أمر رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر، وكانوا مائة وثلاثين؛ فخلا بهم وحكى لهم جميع مارآه فأعظموه وأكبروه وتأولوه على أمر عظيم يحدث في العالم.

فقال فيلمون عظيم الكهان، وكان فيلمون إذ ذاك كبيرهم، وكان لا يبرح من حضرة الملك لأنه رأس الكهنة كهنة أشمون، وهي مدينة مصر الأولى، قال إن في رؤيا الملك عجباً، وأمراً كبيراً، وأحلام أهل الملك لا تجري على محال ولا كذب لعظم أقدارهم، وكبير أخطارهم، وأنا اخبر الملك برؤيا رأيتها منذ سنة لم أذكرها لأحد من الناس.

فقال له الملك:قصها عليّ يا فيلمون، قال: رأيت كأني قاعد مع الملك على رأس المغارالذي في أشمون، وكأن الفلك قد انحط من موضعه، حتى قارب رءوسنا وكأن علينا كالقبة المحيطة بنا، وكأن الملك رافع يديه إلى السماء، وكواكباً قد خالطتنا في صور شتى مختلفة، وكأن الناس يستغيثون بالملك وقد انجفلوا إلى قصره، وكأن الملك رافع يديه إلى أن يبلغ رأسه، وأمرني أن أفعل مثل فعله، ونحن على وجل شديد إذ رأينا منه موضعاً قد انفتح وخرج منه ضياء يضيء، ثم طلعت علينا منه الشمس فكأنا استغثنا بها فخاطبتنا بأن الفلك سيعود إلى موضعه إذا مضت له ثلاث وستون دورة. وهبط الفلك حتى كاد أن يلصق بالأرض ثم عاد الى موضعه، فانتبهت فزعاً.

فقال لهم الملك: خذوا ارتفاع الكواكب وانظروا هل من حادث، فبلغوا غايتهم في استقصاء ذلك، فأخبروه بأمر الطوفان، وبعده بالنار التي تحرق العالم.

فأمر الملك ببناء الأهرام، فلما تمت على ما دبروا حكمه، نقل اليها ما أحب من عجائبهم واموالهم واجساد ملوكهم، وأمر الكهان فزبروا فيها علومهم، وحكمهم وأشرف ولد حام القبط والهند هم الحكماء.

ذكر ملوك مصر قبل الطوفان

وكان أول من ملك مصر قبل الطوفان بقراويس وذلك أن بني آدم لما بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا، وتغلب عليهم بنو قابيل بن آدم تحول بقراويس الجبار بن مصرايم بن مواكيل بن داويل بن عرباق بن آدم

عليه السلام في نيف وسبعين راكباً من بني عرباق جبابرة، كلهم يطلبون موضعاً ينقطعون فيه عن بني آدم، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل فأطالوا المشي عليه، فلما رأوا سعة البلد وحسنه أعجبهم، وقالوا: هذا بلد زرع وعمارة، فأقاموا فيه واستوطنوه، وبنوا الأبنية والمصانع المحكمة.
وبنى بقراويس مصر، وسماها باسم أبيه مصرايم تبركاً به وكان بقراويس جباراً له قوة زائدة وبطش وكان مع ذلك عالماً له رئي من الجن، فملك بني أبيه، و لم يزل مطاعاً في أمره، وقد كان وقع إليه من العلوم التي علمها درابيل لآدم عليه السلام، فقهر بها الجبابرة الذين كانوا معه.

وهم الملوك الذين بنوا الأعلام، واقاموا الأساطين العظام، وبنوا المصانع الغريبة، ووضعوا الطلسمات العجيبة، واستخرجوا المعادن، وقهروا من ناوأهم من ملوك الأرض، و لم يطمع فيهم طامع، وكل علم جليل هو في أيدي المصريين، إنما كان من علوم أولئك، كانت مزبورة على الحجارة.
فيقال إن فيلمون الكاهن الذي ركب مع نوح عليه السلام في السفينة هو الذي فسرها لهم، وعلمهم كتبها، وسنذكر خبرها في موضعه إن شاء الله عز وجل.
ثم أمرهم بقراويس حين ملك ببناء سموها أمسوسا وأقاموا لها أعلاماً طوالاً طول كل علم منها مائة ذراع، وزرعوا وعمروا الأرض، وامرهم ببناء المدائن، والقرى، واسكن أهل كل بيت ناحية من أرض مصر. وهم الذين حفروا النيل حتى أجروا ماءه اليهم، و لم يكن قبل ذلك معتدل الجري، وإنما كان ينبطح ويتفرق في الأرض، فوجه إلى النوبة جماعة حتى هندسوه، وشقوا منه أنهاراً الى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها.
وشقوا منهانهراً الى مدينةأمسوس يجري في وسطها وغرسوا فيها عليه الغروس وكثر خيرهم وعمرت أرضهم، وتجبر بقراويس لما ملك قومه، وكان عظيمهم.
وبعد عشرين ومائة سنة خلت من ملكه أمر بإقامة الأساطين وزبروا عليها علومهم.

ذكردخولهم البلدة، وكيف خرجوا اليها ونزلوا بها

وحروبهم لمن حاربهم من الملوك ثم أمر ببناءقبةعلى أساطين مثبتة بالرصاص، وطولها مائة ذراع، وجعل عليها مرآة زبرجد أخضر، قدرها سبعة أشبار ترى خضرتها على أمد بعيد.
وفي مصاحف المصريين أنه سأل الربيء الذي كان معه أن يعرفه فخرج الى شاطيء النيل، فحمله حتى أجلسه على خلف خط الاستواء على البحر الأسود الزفتي والنيل يخرج مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القمر، ثم يخرج الى بطائح هناك.

ويقال إنه بنى بيت التماثيل هناك، وعمل هيكل الشمس، ورجع الى أمسوس وقسم البلد بين بنيه، فجعل لبقرانس الجانب الغربي، ولسوريد الجانب الشرقي، ولابنه الأصغر وهو مصرام مدينة سماها يربيان، وأسكنه فيها، وأقام أساطين كثيرة، وشق اليها نهراً وغرس فيها غروساً.

وعمل بأمسوس عجائب كثيرة، منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين وعند غروبها مرتين، تصفيراً مختلفاً، يستدلون به على ما يكون من الحوادث، فيتأهبون لذلك، وأجرى لهم الماء على مجرى ينقسم منه على ثمانية وعشرين قسماً.

وعمل في وسط المدينة صنمين حجراً أسود، إذا قدم المدينة سارق لم يمكنه أن يزول عنها حتى يهلك بينهما فاذا دخل بينهما انطبقا عليه، ولهذين الصنمين أعمال عجيبة غير هذا.

وعمل على حدود بلدهم أصناماً من نحاس مجوفة، وملأها كبريتاً، ووكل بها روحانية النار، إذا قصدهم قاصد بسوء أرسلت تلك الأصنام من أفواهها ناراً فأحرقته.

وكان حد بلدهم إلى ناحية الغرب مسافة أيام كثيرة عامرة بالقصور والبساتين، وكذلك في البحر، ومن الصعيد إلى بلاد علوة.

وعمل فوق جبل بطرس مناراً يفور بالماء ويسقي ما حوله وما تحته من المزارع وملكهم مائة وثمانين سنة. فلما مات لطخوا جسده بالأدوية الممسكة، وجعلوه في تابوت من ذهب وعملوا له ناووساً مصفحاً بالذهب، وجعلوه فيه وجعلوا معه كنوزاً لا تحصى كثرة ولاتحصر قيمة.

ومن الأنواع النفيسة من الجوهر والتماثيل الزبرجد، وكثيراُ من أكسير الصنعة المعمول المفروغ منه، ومن الذهب والأواني المعمولة من الذهب ما لا يحصى كثرة، ولا تعلم قيمته.

وزبروا على البيوت تاريخ الوقت الذي مات فيه ملكهم، ثم جعلوا على ذلك كله طلمسات تدفع عنه الهوام والحشرات المفسدة، وصور كل طالب من الأنس والجن.

ثم ملك بعده ابنه براوس الملك فتجبر وعتا أمره وعلا وبنى مدينة يقال لها جلجلة وجعل فيها جنة، وصفح حيطانها بصفائح الذهب والحجارة الملونة، وغرس فيها أصناف الفواكه والغروس تحفها الأنهار.

وأمر باقامة أساطين جعلها معالم، وكتب عليها جميع العلوم. وصور أصناف العقاقير بها، وزبروا عليها أسماءها ومنافعها.

وكان له شيطان يعمل له التماثيل العجيبة فهو أول من عمل بمصر هيكلاً، وصور فيه صور الكواكب السبعة، وكتب على رأسه تجاربها. وما عملت من المنافع والمضار، وألبسها الثياب، وأقام للهيكل كاهناً وسدنة.

وخرج مغرباً حتى بلغ البحر المحيط، وعمل عليه أعمالاً، وبنى أساطين جعل على رؤوسها اصناماً تسرج عيونها كالمصابيح في الليل، ورجع على بلاد السودان إلى النيل. وأمر ببناء حائط على جانب النيل وجعل على شرفها حجارة ملونة شفافة.

وجعل في مدينة منها خزائن للحكمة، وهي أول عجائب الأرض وأغربها، ففي إحدى هذه المدن صنم للشمس، الذي هو أعظم أصنامهم.وهي معلقة عليه في بيت شرفها وهو صورة إنسان جسده جسد طائر من ذهب أزرق مدبر وعيناه جوهرتان صفراوان، وهو جالس على سرير مغنطيس. وفي يده مصحف من العلوم.

وفيها صنم آخر رأسه رأس إنسان وجسده جسد طائر، ومعه صورة امرأة جالسة من زئبق معقود لها ذؤابتان، وفي يدها مرآة، وعلى رأسها صورة كوكب. وهي رافعة يدها بالمرآة الى وجهها ومظهرة فيها سبعة الوان من الماء السائل. لا تختلط ولا يؤذي بعضها لون بعض ولا يغيره، وفيهاشيخ جالس من الفيروزج بين يديه صبية جلوس كلهم من أصناف العقيق والجوهر.

وفي الخزانة الثانية صورة هرمس وهو مكب ينظر الى مائدة به يديه من نشادر على قوائم كبريت أحمر، وفي وسطها مثل الصحفة من جوهر أحمر فيها شيء من الصنعة.

وفيهاصورة عقاب من زمرد أخضر، عيناه من ياقوت أحمر، وبين يديه حية زرقاء من فضة قد لوت ذنبها على رجليه، ورفعت رأسها كأنها تريد ان تنفخ عليه، وفي ناحية منها صفة المريخ راكب على فرس بيده سيف مسلول من حديد أخضر، وفيهاعمود من جوهر أخضر عليه قبةمن ذهب فيها صورة المشتري وفيها قبة من اللازورد على أربعة أعمدة من جذع أزرق، وفي سقفها صورة الشمس والقمر يتحدثان في صورتي رجل وامرأة، وقبة من كبريت احمر فيها صورة الزهرة على صورة امرأة ممسكة بضفيرتها وتحتها رجل من زبرجد أخضر في يده كتاب فيه علم من علومهم، كأنه يقرؤه عليها.

وجعل في كل خزانة من بقية الخزائن من الأموال والجواهر والكنوز والحلى ما لا يعد ولا يقدر قدره.

وجعل على باب كل مدينة طلسما، يمنع دخولها في صور مختلفة، لا يشبه بعضها بعضا.

وملأ كل مدينة بالجوهر النفيس والزبرجد الخطير والذهب والفضة، والكبريت الأحمر، واكسير الصنعة، وصنوف الادوية المؤلفة، والسموم الفاتكة، وعلم كل باب منها بعلامة تعرف بها.

وانفذ إليها خازنا تحت الأرض وجعلها من تحت جلجلة، وهي مدينته التي عمل فيها الجنة.

وبين كل مدينة من تلك المدن الثلاث عشرون ميلا، وبين الثلاث سبعة أميال.

وكان له من مدينته الى هذه المدائن اسراب تحت الأرض يصل منها اليها، وكذلك من بعضها الى بعض.

وصفات هذه المدائن وعجائبها في كل قرية بمصر على تلك الحجارة، وفي جميع مصاحفهم القديمة، وأكثر

ذكرها في هياكل الكواكب خاصة، وقريء في مصحف لبعض الكهان القدماء ذكر بقراوش الملك بكل ما ذكرناه، وأنه عمل مع ماذكرناه عجائب كثيرة أزالتها الطوفان وركب هذه الرمال لزوال طلسماتها، فأقام بقراوش ملكا مائة سنة وسبع سنين، ثم مات فعمل له ناووس، وجعل معه من العجائب ما يطول ذكره.

وولى بعده ابنه مصرام الملك بن بقراوس، فبنى للشمس هيكلا من المرمر وموهه بالذهب، وجعل في وسط الهيكل كالفرس من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر، وأرخي عليه وعليها حلل الحرير الملون، وأمر أن يوقد عليها بطيب الريحان، وجعل في الهيكل قنديلا من الزجاج الصافي، وجعل فيه حجرا مدبرا يضيء اكثر مما يضيء السراج، وأقام له سدنة وعمل أربعة أعياد في السنة.

وقيل إن مصر سميت به، وسمى به مصريم بن حام بعد الطوفان، لأنه وجد اسمه مزبورا على الحجارة.

وكان افليمون الكاهن يخبرهم بأخبار هؤلاء الملوك، وكان مصرام هذا قد ذلل الأسد في وقته، وكان يركبه، وصحبه الجني الذي كان مع أبيه، لما رأى من حرصه على لزوم الهياكل والقيام بأمر الكواكب. وأمره أن يحتجب عن الناس، وألقى على وجهه من سحره نوراً شديداً لا يقدر احد على النظر اليه. وادعاه إلها، واحتجب عن الناس ثلاثين سنة، واستخلف عليهم رجلاً من ولد عرباق، وكان كاهنا.

ويقال إن مصرام لما ركب في عرشه، وحملته الشياطين حتى انتهى إلى وسط البحر، فجعل له فيه القلعة البيضاء، وجعل عليها صنما للشمس، وزبر عليه اسمه وصفةملكه. وعمل صنما من نحاس وزبر عليه"انا مصرام الجبار، كاشف الأسرار، الغا لب القهار، وضعت الطلمسات الصادقة، وأقمت الصور الناطقة، ونصبت الاعلام الهائلة، على البحار السائلة، ليعلم من بعدي انه لا يملك أحد ملكي".

وكل ذلك في أوقات السعادة، وقد كان عمل في جنته شجرة مولدة، تؤكل منها جميع الثمار.وعمل فيها قبة من زجاج احمر علىرأسها صنم يدور مع الشمس، ووكل بها الشياطين إذا اختلط الظلام أن لا يخرج احد من ملكه إلا هلك.

وهو اول من عمل الحمام، وأحب أهل مصر ان يروه فسألوا خليفته ذلك، فأمرهم أن يجتمعوا في مجلس عال كان له، فاجتمعوا وجلسوا عنده، فظهر لهم في صورة هالتهم، ملأت قلوبهم رعباً، فخروا له على وجوههم ودعوا له فأمر بإحضار الطعام والشراب فأكلوا وشربوا ورجعوا إلى مواضعهم، ثم لم يروه بعد ذلك وبلغ في كهانته الى ما لم يبلغه أحد من آبائه وأجداده.

وملك بعده عيقام الكاهن، فعدل فيهم، وعمل مدينة عجيبة قرب العريش وجعلها لهم حرماً، وعمل لهم طلاسم عجيبة وعجائب كثيرة، وقيل ان ادريس عليه السلام رفع في وقته و لم يطل عمره.

وملك بعده ابنه عرباق بن عيقام فتجبر واقبل على صيد السباع والوحش وعمل عجائب.
منها أنه عمل شجرة من حديد ذات أغصان، ولطخها بدواء مدبر، فكانت تجلب كل صنف من السباع والوحش اليها، فيتمكن من صيدها كيف شاء.
وفي كتب المصريين أن هاروت وماروت كانا في وقته بمصر، فعلما أهل مصر أصنافاً من السحر، فنقلا بعد الطوفان إلى أرض بابل وتعلم عرباق من علمها.
فاحتالت عليه امرأة من المغصوبات فسمته فهلك وبقي مدة لايعرف خبره، وكان رسمه إذا خلا بالنساء لا يقربه أحد.
فلما تأخر خبره عن الناس هجم عليه فتى من بني بقراوس يقال له لوحيم ومعه نفر من أهله، فوجده ملقى على فراشه جيفة، فأمر أن توقد له نار يحرق فيها فأحرقه، ثم جمع النسوة اللاتي كن في الجنة، فمن كانت من نسائه أحرقها معه، ومن كانت من المغصوبات، سرحها إلى أهلها، ففرح الناس لما نزل بهم.
وملكهم لوحيم الملك فخرج ولبس تاج أبيه، وجلس على سرير الملك، وأمر بجمع الناس فلما اجتمعوا قام فيهم خطيباً وذكر ما كان عليه عرباق الأثيم من سوء السيرة واغتصاب النساء وسفك الدماء.
ورفض الهياكل والاستخفاف بالكهنة، وأنه لميراث أبيه وجده وأحق به من غيره وضمن للناس العدل والإحسان والقيام بأمرهم، ودفع كل أذى عنهم فرضي الناس منه بذلك، وقالوا له: أنت أحق بالملك، فلا زلت دائم السعادة، طويل العمر، وانصرفوا مسرورين.
فأمر بتجديد الهياكل وتعظيمها، وقرب كثيراً من الكهان، وأكرم جميعهم، وسار في الناس بالعدل.
وكانت الغربان والغرانيق قد كثرت في وقته فأهلكت الزرع، فعمل اربع منارات من نحاس في جوانب أمسوس، وجعل في كل منارة صورة غراب فيه حية قد التوت عليه فلم يقربهم شيء من تلك الطيور إلى أن كان الطوفان، فأزال تلك المنارة.
ومن ملوكهم حصليم، وكانت له أخت حكيمة، وكانت في جواريها جارية فائقة العقل والجمال، فعشقها الملك، وسأل أخته ان تهبها له، فأبت فألح عليها في طلبها، فغضبت واعزلت، وبنت هيكلا وتعبدت فيه للزهرة مدة ثم إنها رأت الزهرة تناجيها وتكلمها، وتأمرها أن تسلم الجارية الى أخيها، وتنهاها أن تمنعه من ذلك، ففعلت ذلك.
ولما صارت الجارية عند الملك حظيت عنده، وفضلها على سائر نسائه فحسدتها وولدت من الملك ولداً ذكراً لم يكن له ولد غيره، فزاد حسدهن لها، وجعلن يطلبن أذاها، ويطلبن الغوائل لها.
وكان أجل وزراء الملك لما يعلم من محبة الملك لها يأتيها في كل يوم فيقضي ماعرض لها من حوائجها، إجلالا لها، فلما قصدن ضرائها إذايتها لم يجدن أنجع من أن يرمينها بذلك الوزير، وكان ذلك حسدا

وبغيا، فحققن الأمر عند الملك بما أمكنهن من الحيل، فلما وقف الملك على ذلك أمر بقتلها وقتل الوزير، و لم يشاور في ذلك أخته ولا احداً من الحكماء.
فلما نفذ أمره بذلك بادر من وقف على ذلك الى أخته فاعلمها فأسرعت الى الذي امر بقتلهما تأمر باستبقائهما، حتى يرى الملك في امرهما.

ودخلت على الملك فقالت له ما هذا الذي أمرت به في وزيرك وجاريتك ؟ فقال اتصل بي عنهما كذا كذا، قالت أتحدث حدثا عظيماً من القتل على ما لم تتحققه، وعن غير مشورة لأهل الحكمة والثقات من اهل المملكة؟ قال لم أملك صبري، قالت إن الملوك ليس لها ان تعجل حتى يتبين لهم الامر! فامر باستبقائهما، وبحث عن امرهما، فوقف على الكذب فيه، فأمر بكل من سعى فيه من ضرائها فاخرجن من القصر.
وحصليم هذا هو أول من عمل مقياساً لزيادة النيل، وذلك أنه جمع اصحاب العلوم والهندسة، فعملوا بيتاً من زجاج على حافة النيل وجعل في وسطه بركة من نحاس صغيرة فيها ماء موزون وعلى حافة البركة عقابان من نحاس ذكر وأنثى.
فاذا كان في أول الشهر الذي يزيد فيه الماء، وفتح البيت وحضر الكهان بين يدي الملك، وتكلم امير الكهان بكلام حتى يصفر أحد العقبان، فان صفر الذكر كان الماء تاماً زائداً وإن صفرت الأنثى كان الماء ناقصاً، ثم يعبرون الماء، وكل أصبع تزيد في تلك البركة فهو زيادة ذراع في النيل، فاذا عملوا ذلك حفروا للزرع وأصلحوا الجسور وعمل على النيل القنطرة التي ببلاد النوبة اليوم، وكان يسمى ابنه هوصال أي خادم الزهرة للرؤيا التي رأتها اخته، وكفلت الغلام عمته وادبته احسن التأديب، وزوجته عشرين امرأة من بنات الملوك العظام. وبنت له مدينة وجعلت فيها عجائب كثيرة احتفلت فيها، وزينتها بأحسن النقش والزينة والعمارة، وعملت فيها حماماً على أساطين يرتفع الماء فيها اليه حاراً من غير وقيد.
وهلك حصليم فدفن في ناووسه، وملك بعده ابنه هوصال الملك، وتحول هوصال إلى السرب فسكنه، وبنى مدينة هي إحدة المدائن ذوات العجائب، وعمل في وسطها صنماً للشمس يدور معها، ويبيت مغرباً ويصبح مشرقاً.
ويقال إنه أول من اتخذ تحت النيل سرباً، وهو أول من عمل ذلك، وخرج منه متنكراً يشق الأرض والأمم إلى أن بلغ بابل، ورأى ماعمله الملوك من الأعاجيب، وعلم حال ملكها في الوقت وسيرته، ومجاري أموره.
ويقال إن نوحاً عليه السلام ولد في وقته، وولد لهوصال عشرون ولداً، وجعل مع كل واحد منهم قاطراً

وهو رأس الكهنة.

وتقول القبط أنه من بعد مائة وسبع وعشرين سنة من ملكهم لزم الهيكل الذي كان أقطعه أبوه لا يشركه فيه غيره، وأمورالناس جارية على سداد، فأقاموا كذلك سبع سنين، ثم وقع بين الاخوة تشاجر واختلاف، فأجمع رءوس الكهنة على أن يجعلوا أحدهم ملكا، ويقيم كل واحد منهم في قسمته، واجتمعوا لذلك في دار المملكة.

وقام رأس الكهان فتكلم، وذكر هوصال وفضائله وسعادقم في أيامه وما شملهم معه من الخير، وأخبر بما رأته الجماعة من تقليد أحدهم، فان كان هوصال حيا ورجع إليهم لم ينكر ما فعلوه، لأنهم لم يريدوا إلا حفظ ملكه، ورفع المكاره عنه، وإن لم يرجع كان الأمر على ما سلف ملك بعد ملك فاستحسن الناس ذلك القول ورضوا به رأيا، وعملوا به.

فعقدوا الملك على أكبر ولده سنا وهو فدرشان الملك فسار سيرة أبيه فحمد الناس أمره فعمل في أيامه قصراً من خشب ونقشه بأحسن النقوش وصور فيه الكواكب، وبجله بالفروش وحمله على الماء، وكان يتتره فيه.

فبينما هو فيه ذات يوم إذ هبت ريح عظيمة، وزاد النيل زيادة كبيرة فانكسر القصر وغرق الملك، وهلك وقد كان نفى إخوته إلى المدائن الداخلة.

واقتصر على امرأة واحدة من بنات عمه، فولدت ولداً و لم يكن له ولد غيره، وكانت ساحرة فسحرته حتى هام ها وانفرد بحبها واستخلف بعض وزرائه على الملك، واقبل على لذاته ولهوه معها.

فلما كان من أمره ما كان من هلاكه كتمته امرأته، وكان أمره ونهيه يخرج إلى الوزير عنه، فأقام الناس على طاعته تسع سنين لا يعلمون بأمره.

فلما رأى إخوته طول غيبته جمعوا عليها جموعاً عظيمة وقدموا على أنفسهم أحدهم وهو نمرود الجبار. وساروا الى أمسوس وبلغ ذلك الساحرة امرأة قدرشان، فامرت الوزير على أمر الملك على عادقا بالخروج إليهم وبمحاربتهم، ففعل فهزموه وقتلوه وقتلوا كثيراً ممن كان معه.

ودخلوا مدينة أمسوس وأتوا دار الملك فلم يروا له خبراً، فايقنوا بموته وكانت الحيلة وقعت من امرأته الساحرة.

فجلس على سرير الملك نمرود بن هوصال أخوه وملك الناس ووعدهم بحسن السيرة فيهم وتقييد ماكانوا ينكرونه، من أفعال أخيه واستولى على أمواله وخزائنه ففرقها على اخوته واقطعهم جميع ما كان أخوه ادخره لنفسه. وطلب امرأته الساحرة وابنها ليقتلهما فلم يقع لهما على خبر لأن أمه ذهبت به الى مدينة

أهلها بالصعيد وكانوا كلهم سحرة وكهانا.

فامتنعت بهم وداخلت الناس واعلمتهم أن ابنها هو الملك بعد أبيه لان أباه قلده الملك وأمرها أن تدبر الناس، واعلمتهم فصدقوها وأجابوها وقالوا ان الغلام مغلوب على ملكه وان النمرود متغلب غاصب فاجتمع من حمايتها ونصرتها بشر كثير.

وزحف ابن الساحرة الى نمرود بجموع كثيرةوقدعمل له السحرة أصنافا من التماثيل المهلكة والنيران المحرقة فخرج اليه نمرود واخوته فيمن معهم من الاجناد والاتباع فانهزم الملك واخوته وتعلقوا ببعض الجبال.

ونزل ابن الساحرة بدار الملك وجلس على سريره ولبس تاج ابيه وطافت به بطارقته وكان اسمه توسدون ملك وهو حدث وكانت أمه تدبر أمره فقتل كل من كان صحب النمرود وجد في طلبه ومحاربته حتى ظفر به وسيق اليه أسيرا واجتمع الناس لينظروا اليه فشدت رأسه برأس اسطوانة قائمة وشدت رجله باسطوانةاخرى، وكان طوله فيما تذكره القبط عشرين ذراعا واودعته بيتا ووكلت به رجالا من حرسها لتقتله يوم عيدها وكان قويا فصاح في الليل صيحة مات منها بعض الحرس وهرب الباقون، فلما بلغها ذلك أمرت بانزاله واحضرته وامرت بنار توقد فأوقدت وجعلت تأمر فيقطع منه عضو بعد عضو فيلقى في النار حتى فرغ منه.

وكبر ابنها فخرج كاهناً منجما ساحراً، فعملت له الشياطين قبة من زجاج كرية مدبرة دائرة على دوران الفلك وصوروا عليها صور الكواكب، وكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع، وعلوم العالم بطلوعها وأفولها.

وبعد ستين سنة من ملكه ماتت أمه الساحرة، وأوصت أن يجعل جسدها تحت صنم القمر بعد أن يطلى .بما يدفع عنه النتن، وكانت وهي ميتة تخبرهم بالعجائب وتجاوبهم على كل ما يسألون، فهاب الناس لابنها وفزعوا له، وكان يتصور لهم في صور كثيرة وملكهم مائة سنة، ولما حضرته الوفاة أمر أن يعمل له شكل صنم من زجاج، يكون شفيفا ويطلى جسده بالأدوية الممسكة له، ويدخل في تلك الصورة التي من الزجاج، ويلحدما بين الشفتين وينام في هيكل الأصنام ويعمل له في كل سنة عيد تقرب فيه القرابين، وتدفن تحته كنوزه، ففعل ذلك كما أمر.

وملك بعد، ابنه سرباق الملك بسيرة ابيه وجدته، واجتمع عليه، وزحف رجل من بني طربيس بن آدم من ناحية العراق فتغلب على الشام. وأراد أن يزحف إلى مصر فعرف أنه لا يصل إليها لسحر أهلها، فأراد أن يدخلها متنكراً ليعرف أهلها، ويقف على سحر بعض أهلها، فخرج ومعه نفر حتى وصلوا إلى حصن من أول حدود مصر، فسألهم الموكلون به عن أمورهم فعرفوهم أنهم تجار يقصدون بلدا يسكنونها، ومعهم أموالهم ليحترفوا كيف ظهر لهم بها، فحبسوهم وأرسلوا إلى الملك بخبرهم.

وقد كان رأى الملك في منامه كأنه كان قائما على منار لهم عال، وكأن طائراً عظيماً قد انقض عليه ليختطفه فحاد عنه حتى كاد أن يسقط عن المنار، فجاوزه الطائر و لم يضره فانتبه مذعوراً، وبعث إلى رأس الكهنة، فقص عليه رؤياه فعرفه أن ملكا يطلب ملكه، فلا يصل إليه.

فنظر في علمه فرأى ذلك الملك الذي يطلب ملكه قد دخل بلده ووافق ذلك دخول الرسل من ذلك الحصن يذكر القوم، فعلم الملك أنه فيهم فوجه بجماعة من أصحابه معه، فاستوثقوا منهم وحملوهم إليه. وقد كان الملك أمرهم ان يطوفوا بهم على أعمال مصر كلها، ليروا ما فيها من الطلسمات والأصنام والعجائب والمعجزات فبلغوا بهم الى الاسكندرية، ثم ساروا بهم إلى أمسوس، فاوقفوهم على عجائبها ثم ساروا بهم إلى الجنة التي عملها مصرام وأمر السحرة باظهار التماثيل فجعلوا يتعجبون مما يرون حتى وصلوا إلى سرباق الملك، والكهنة حوله قد أظهروا صنوف العجائب، وجعلوا بين يديه ناراً لا يصل إليها إلا من كان من خاصته. ولا تضر الا من أضمر للملك غائلة وامر فشقوها واحدا بعد واحد فلم تضر منهم احدا.

وكان ذلك الملك آخر من دخلها منهم. فلمادنا من النار أخذته فولى هاربا فأتى به سرباق فسأله عن أمره وتوعده فأقر فأمر بقتله، وحمله الى الحصن الذي أخذ به فصلب هناك من جهة الشأم على اسطوانة عظيمة من حجر وزبر عليها هذا فلان بن فلان المتغلب على الشأم أضمر غائلة للملك وطلب ما لم يصل إليه تعديا منه عليه وظلما له فعوقب بهذا.

وأمر باطلاق الباقين وقيل لهم قد وجب عليكم القتل، لصحبتكم لمن أراد الفساد في الأرض. ولكن الملك بفضله عفا عنكم وأمر أن تخرجوا من بلاده، ولا تعودوا إليها أبداً فخرجوا هاربين مسرورين بالسلامة فكانوا لا يمرون بأحد إلا حدثوه بما رأوا من العجائب. فانقطعت اطماع الملوك في الوصول الى مصر والتعرض لها. وعملت في وقت سرباق عجائب كثيرة.

منها أنه عمل عرباق في مدينته بطة من نحاس قائمة على اسطوانة، فاذا دخل الغريب من ناحية من النواحي أو باب من الأبواب صفقت بجناحيها، وصرخت فيؤخذ الداخل ويكشف عن أمره ومقصده، وشق الى مدائن الغرب نهراً من النيل، وبنى على عبريه منازل واعلاما وغرس فيها غروسا يتنزه عليها، وملكهم مائة سنة وثلاثين سنة.

وملكهم بعده ابنه سهلون بن سرياق، وكان سهلون عالما منجما كاهنا، فأفاض العدل وقسم ماء النيل قسما موزونا، صرف الى كل ناحية قسطا، ورتب الدولة وجعلها على سبع طبقات.

" الطبقة الأولى " الملك وولده وأهل بيته ومن يلي عدله، ورأس الكهان، والوزير الاكبر، وصاحب خاتم

الملك، وصاحب خزائنه.

" الطبقة الثانية" مراتب العمال والمتولين لجباية الأموال، والأشراف على النفقات في أمر المملكة، ومصالح البلاد والعمارات، وقسمة المياه.

" الطبقة الثالثة" الكهان وأصحاب الهياكل وخدمتها، ومتولي الفراش والمشرف على ما يقرب من بوادر الفاكهة والرياحين وصغار البقر والغنم والفراريج الذكور، وما يعرف من مثل ذلك في طعام الملك وخوابي الشراب، وغير ذلك ممايشبهه.

" والطبقة الرابعة" المنجمون، والأطباء، والفلاسفة، ونحوهم "والطبقة الخامسة" أصحاب عمارة الأرض، والمتولون أمر الزراعة، والغرس.

" والطبقة السادسة" أصحات الصناعات والمؤن، والمشيدون في كل سنة في كل فن، والمشرفون علىأعمالهم، ونقل ما يستحسن من أعمالهم إلى خزائن الملك.

" الطبقة السابعة" أصحاب الصيد من السباع والوحش والطير والهوام، والمشرفون علىأخذ دمائها ومرارها وشحومها، وحملها الى الأطباء لاصلاح العقاقير، وتأليف الأدوية.

وتقدم اليهم ألا يدخل أهل صناعة في دلسة ولا مهنة في غير ما هو فيه، ومن قصر في عمله عوقب، ومن أحسن في عمله جوزي. وكانت رتبة أهل الملاهي والألحان في قسمة الملك.

وتقدم في بناء المدائن ونصب الاعلام المنارات، وابتدع ما يستغرب من الصناعات، وإجراء المياه، وتوليد غرائب الاشجار.

وأقام على أعالي الجبال سحرة يقسمون الريح، ويمنعون من أراد بلدهم بأذى، وكذلك يمنعون كل طائر وسبع ووحش وهوام، وجرى في الناس على السداد والاعتدال.

وجعل لكل صنف من الناس صنفا من الكهنة يعلمونهم الدين، ودينهم يومئذ الصابئة الأولى ويرفع كل صنف منهم ما يجري من جميع ما يقولونه إلى الملك في كل يوم، وعمل البيت ذي القباب النورية، وأوقد فيها النار الدائمة تعظيما للنور.

والقبط تزعم أنه أول من عمل بيتاً لتعظيم النار، وقيل إن حمير الفارسي بنى بيتاً للنار، وهو أول من عمل ذلك للفرس اقتداء بسهلون الملك بمصر.

وكان السبب لعمل سهلون أنه رأى في منامه كأن أباه أتاه، فقال له انطلق إلى جبل كذا من جبال مصر، فان فيه كوة من صفتها كذا فانك واجد على باب الكوة أفعى لها رأسان، فانهاإذا رأتك كشرت في وجهك، فليكن معك طائران صغيران ذكر وأنثى، فاذا رأيت الأفعى فاذبح لها الطائرين وألقهما اليها فانها تأخذ برأسيهما، وتنحاش بهما إلى سرب قريب من الكوة فتدخل فإذا غابت عنك فادخل الكوة تنتهي في

آخرها امرأة عظيمة من نور حار يابس، فسوف يسطع لك وجهها وتحمى بحرارتها، فلا تدنو إليها فتحرق، وقف حذاءها، وسلم عليها، فانها تخاطبك، واسكن الى خطابها، وانظر ما تقوله لك فاعمل به فانك تتشرف به.

وهي حافظة كنوز جدك مصرام التي رفعها تحت مدائن العجائب المعلقة وهي تدلك عليها، وتنال مع ذلك شرفاً وطاعة من قومك ورعيتك، ثم مضى وتركه.فانتبه سهلون، وجعل يتفكر فيما رأى وتعجب منه وعزم أن ينفذ ما أمره به، فمشى إلى الجبل وحمل الطائرين معه وامتثل ما أمره به أبوه إلى أن وقف حذاء المرأة فسلم عليها، فقالت له أتعرفني؟ قال لا، لأني ما رأيتك قبل وقتي هذا، قالت له: أنا صورة النار المعبودة في الأمم الخالية، وقد أردت أن تحيي ذكري، وتتخذ لي بيتا وتوقد لي فيه ناراً دائمة، بقدر واحدة، وتتخذ لي عيداً في كل سنة تحضره أنت وقومك، فانك تتخذ بذلك عندي أنلك بها شرفاً الى شرفك، وملكا إلى ملكك، وامنع عنك وعن قومك من يطلبك ويعمل الحيلة عليك، وأدلك على كنوز جدك مصرام.

فضمن لها أن يفعل ذلك فدلته على الكنوز التي كنزها جده تحت المدائن المعلقة وكيف يصير اليها؛ وكيف يمتنع من الأرواح الموكلة بها وما ينجيه منها.

فلما فرغ مما أراده من ذلك، قال لها فكيف لي بأن أراك في الأوقات التي أريد وأحتاج أن أسألك عما يطرأ من الأمور فأسير اليك ؟ قالت له اما هذا المكان فلا تقربه بعد وقتك هذا ولكن إذا احببت ان تراني فدخن في الوقت الذي علمته لك بكذا وكذا، اشياء ذكرتها له: منها عظام ما يقربه من القرابين والذبائح، وصموغ الأشجار فاني اتخيل لك واخبرك بكل حق وباطل يكون في بلدك.

فلما سمع ذلك منها سر به سروراً عظيما، وغابت الصور، وظهرت الافعى، وخرج هاربا، فلمانجا جعل على الكوة سداً ولم يؤخر ما فعلته به.

وأخرج كنوز جده وعمل بأمسوس وغيرها من العجائب ما يطول به الذكر، فمنها القبة المركبة على سبعة أركان، في بعض مصاحف القبط أن هذه القبة يقال لها قبة القضاء.

وكان السبب في بنيانها أن بعض الكهنة جار في قضية قضاها، وذلك أن بعض العامة أتاه يشكو امرأته، ويذكر أنها تأباه وهو يحبها وتبغضه، وسأل أن يقومها له بالاظهار، وكانت المرأة من أهل بيت الكاهن، فأمالها عن زوجها وأمره بتخليتها فلم يفعل، وحبسه وشدد عليه، وكان من اهل الصناعات.

فاجتمع من اهل صناعته من كان قد عرف حاله، وحال المرأة معه، وأنها ظالمة له وهو لها منصف، وعلموا ظلم الكاهن له، فاستعدوا عليه عند خليفة الملك فأحضره وسأله عما ذكروه فذكر أنه لم يحكم

إلا بواجب.
فأحضر بعض رؤساء الكهنة، واظهر القوم الذين شهدوا للرجل، فوقف على ظلم الكاهن.
فأخرج الرجل من الحبس وحبس الكاهن مكانه، وامر بالمرأة أن تعاقب وترد عليه.
ورفع ذلك إلى الملك فأمر أن يخرج ذلك الكاهن من رسم الكهان، وأن يحبس إلى أن يرى رأيه فيه، واهتم الملك لذلك وخاف ان يجري من غير ذلك الكاهن مثل ما جرى منه، وأن يكون ما قد أبرمه من امر المملكة واهلهالا يتحكم له حسبما أحب، وبات مهموماً مفكراً.
فلما أصبح اصطبح وتطيب وتكلم ودخن بالدخنة التي أمر بها فتجلت له تلك الصورة وخاطبته فسألها أن تعمل له عملاً يقف به على حقيقة الظلم وخفيه، ويعرف المظلوم من الظالم.
فأمرته أن يبني بيتاً مركباً على سبعة أركان، ويجعل له سبعة أبواب، على كل ركن باباً، ويعمل في وسطه قبة من صفر، ويصور في أعلاها صور الكواكب السبعة.
ويعمل على الباب الاول من القبة مثال اسد رابض وحذاءه من الجانب الآخر لبوة رابضة من صفر ويقرب لهما جرو أسد، ويبخرهما بشعره.
وعلى الباب الثاني، تمثال ثور وبقرة، ويذبح لهما عجلا ويبخرهما بشعره وعلى الباب الثالث صورة خنزير وأنثاه، ويذبح لهما خنوصاً، ويبخرهما بشعره.
وعلى الباب الرابع صورة جمل وشاة، ويذبح لهما سخلة، ويبخرهما بشعرها.
وعلى الباب الخامس صورة ثعلب وحدأة وانثاه، ويذبح لهما فرخ عقاب، ويبخرهما بريشه، ويلطخ وجوه جميعها بدم القربان، ثم يحرق بقية القرابين ويجعل رمادها تحت عتبة ابواب القبة، ويجعل لها سدنة يوقدون فيها المصابيح ليلا ونهارا سبعة أيام.

فاذا فرغت من ذلك كله، فاجعل لكل مرتبة من تلك المراتب التي قسمتها وجعلتها على سبع طبقات باباُ من تلك الأبواب، وليكن باب الاسد لاهل المملكة وسائر الأبواب لسائر المراتب، فانه إذا تقدم إلى شيء من تلك الصور أهل الخصومات التصق الظالم بها، وشدت الصورة عليه شداً عنيفاً وآذته وآلمته حتى يخرج لخصمه من حقه، الذكر للذكر والأنثى للانثى، فتعرف بذلك الظالم من المظلوم.
ومن كان له قبل أحد حق ودعاه إلى بعض الصور فلم يجيء معه، فأتاها المظلوم فعرفها بذلك أقعد الظالم من رجليه وخرس لسانه، ولم يتحرك من مكانه حتى ينصف صاحبه.
فلم يؤخر الملك عمل القبة على ما أمرت به وشرع فيها من حينه، وأتمها على ما أحسن ما يكون هيئة وصلاحاً، واستراح من الاهتمام بامور الناس، فلم يتظلم بعضهم من بعض.

وعلم أنه لا يجوز لبعضهم ظلم بعض، مع تلك الصورة، فلم تزل تلك الصورة باقية إلى أن أزالها الطوفان مع ما أزال من اعمالهم وعجائبهم.

وعملت في وقت سهلون اعمال كثيرة، وكتب سيرته وما ابتدعه من العجائب في مصحف، وعمل ادوية وعقاقير كثيرة وتماثيل متحركات.

وأمر ان يحمل ذلك كله مع المصحف الذي كتب فيه سيرته ومع كنوزه وذخائره إلى ناووسه الذي يجعل فيه إذا مات، وهو قد عمله في الجانب الغربي ووضع فيه غرائب وحكمة، فلمامات عمل فيه ذلك.

وملك بعد ابنه سوريد بن سهلون الملك، وحزن عليه هو وأهل مملكته ورعيته، حزناً عظيماً لم يحزن على ملك قبله، وكان ملكه مائة وتسعاً وتسعين سنة.

وأقام دولته ورعيته عند ناووسه شهراً ينوحون ويبكون، وأقاموا في ناووسه خدمة يخدمون أموره وسدنة يحفظون ما يجب حفظه منه، وجلس ابنه على سرير الملك، واقتفى سيرة أبيه في العدل والصلاح وعمارة الأرض؛ وسياسة الناس والانصاف بينهم، والأخذ لهم من نفسه وأهل بيته.

وهو أول من جبى الخراج بمصر، وألزم أهل الصناعات على اقدارهم، وأول من أمر بالانفاق على المرضى والزمنى من خزائنه وبنى المنارات، ونصب العلام والطلسمات والهياكل ، وحسن عمارتها على أحسن ما تقدم لسواه، فأحبه الناس وحمدوا أمره، وعمل مرآة من أخلاط كثيرة، كان ينظر اليها فيرى الاقاليم، وما أخصب منهاوما أجدب، وكلما يحدث فيها. وكانت على منارة من نحاس في وسط مدينة أمسوس.

وتقول القبط إنه عملها لمصر خاصة، وكان يرى فيها جميع من يقصدها من كل ناحية، ويعلم بذلك جميع من يقصدها فكان يأخذ أهبته لذلك، وهو أول من عمل صحيفة في كل يوم يكتب فيهاجميع ما يكون في يومه، وما يعمل فيه ثم ترفع إليه وتودع في خزائنه يوما فيوما، فاذا مضى الشهر نقلت صحائف أيامه إلى مصحف الملك وختم بخاتمه، وخلد في خزائنه وما صلح منه أن يزبره في الحجارة زبره.

وكذلك ما عمل من الصنائع وما أحدث منها، وكان يعطي الرغائب على الصناعات العجيبة والحكم الغريبة.

وعمل وسط المدينة صورةامراة جالسة في حجرها صبي كأنها ترضعه، فكل امرأة أصابتها علة في جسمها مست من جسد تلك الصورة الممثلة، فيزول عنها ما تجده على ما كان.وكذلك إن قل لبنها، مسحت ثديها فكثر، وكذلك إن أحبت أن تعطف عليها زوجها مسحت وجهها بدهن طيب، وقالت لها افعلي كذا وكذا.

وإن قلت حيضتها وفرقت منه مسحت تحت ركبها، وان اصاب ولدها شيء فعلت بالصبي كذلك فيبرأ، وإن عسرت ولادتها مسحت رأسي الصبي سهل، وكذلك البكر يسهل عليها افتضاضها، وإذا وضعت

الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تكف عن فجورها، وماكان من أعمال الليل يحدث ليلا، وما كان من النهار يحدث نهارا، وكانت تعمل اعمار كثيرة إلى أن ازالها الطوفان.
وفي بعض كتب القبط انها وجدت بعد الطوفان، وانهم استعملوها وعبدوها، وصورتها في جميع برابي مصر مصورة برسمها ملونة، والذي دلهم عليها كانوا قرابات فيلمون الكاهن، ودلوهم على جميع اعمال مصر، وسنذكر خبرهم في هذا الكتاب ان شاء الله تعالى.

وعمل ايضا سوريد في وقته غرائب كثيرة منها الصنم الذي يقال له بكوس المعمول من الأخلاط الكثيرة في الطب، وكان يعمل اعمالا كثيرة في دفع الأسقام والعلل عن اهلها، ويعرفون به من يبرأ منهم فيعالجونه فيعيش، و يعرفون من يموت بعلامات تظهر منه، فيقصرون عن علاجه، وكان يزيل الاوصاب بأن يغسل الموضع بأزاء أصحاب العلل منه، ويسقي ذلك الماءالذي يغسل به لصاحب الداء فيزول عنه، وكثير من هذه الأعمال.
وهو أول من عمل الابرقات الايرونيات، وزبر عليها جميع العلوم.
وهو الذي بنى الهرمين العظيمين المنسوبين الى شداد بن عاد، والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلدهم، والعمالقة تقول سحرهم ومنعهم من ارادتهم بشرما يريدونه بهم، وبذلك يقول الحرانيون، وقد نقل ذلك أبو معشر في كتاب الألوف.
وكان سبب بناء سوريد للهرمين انه رأى رؤيا أثبتهافي موضعها، فأحضر كهنته ومنجميه، وقص عليهم من نزول المرآة في صورة امرأة وانقلاب الأرض بأهلها، وانكساف الشمس بأسرها، وهي الرؤيا بعد، فأخبره خبر الطوفان أنه يكون على الصورة التي كان، وذلك مذكور في كتاب تاريخ يرويه المقريون عن آخرين من القبط وجد في بعض ذراريهم على صدر ميت، وذكر أنهامن ولد رجل من اهل مصر الأوائل ممن نجا من الطوفان وركب مع نوح عليه السلام في السفينة، وكان ممن آمن به وحمل ابنيه وقيل بن مصرام بن حام وكان أبدع الناس فهما في العلوم.
وكان في الكتاب أن الملك سوريد بنى في الصعيدثلاث مدائن وعمل فيها عجائب كثيرة، وسنذكر شيئاً من أخبار هذين الأخوين أن شاء الله تعالى.
وكان في الكتاب أن الملك سوريد بن سهلون ملك مصر لما رأى في منامه ما رأى، أخبر فليمون رأس الكهنة بمارآه من الأمور؛ أمرهم ان ينظروا فيما تدل عليه الكواكب من أحداث في العالم، فتصيب اكثره، فأقاموا لها في وقت مسألته اياهم مسألة امعنوا فيها النظر، فدلت على آية تنزل من السماء، وتخرج من الأرض فتعم اكثر الآرض، وهو طوفان عظيم لايبقى به شيء.

قال فانظروا هل ينجز ذلك ويعود أم يبقى هو معمولا دائماً ؟ فنظروا فظهر أنه يعود العمران والملك، وكل شيء كما كان وعرفوه بذلك، فأمر حينئذ ببناء بربى وأعلام عظام له و لأهل بيته، تحفظ أجسادهم، وما أودعوه بها من أموالهم وزبروا فيها وفي سقوفها وفي حيطانها واسطواناتها، جميع العلوم الغامضة، التي يدعيها أهل مصر بين جميع الأمم، وصور فيها صور الكواكب العظام منها وصور الصغار منها، ورسم ذلك بعلامات تعلم بها.

وزبر فيهاأسماء العقاقير ومنافعها، وعمل الطلسمات وأشكالها، وعلم الحساب والهندسة، وغير ذلك مما ينتفع به مزبوراً ومفسراً لمن عرف كتابهم ولغتهم.

وقالوا إن هذه نازلة وكائنة إذا كانت تكون من جميع أقطار العالم إلا اليسير منه، وذلك كائن إذا نزل قلب الأسد بأول دقيقة من رأس السرطان وتكون الكواكب عند ذلك في هذه المواضع من الفلك يكون القمر مع الشمس في أول دقيقة من الحمل، وراوس وهو المشتري في سبع وعشرين درجة من الحوت والمريخ في ثمان وعشرين درجة وخمس دقائق من الحوت، وأفرودين وهو الزهرة في سبع وعشرين درجة وثلاث دقائق من الحوت، وهرمس وهو عطارد في ستع وعشرين دقيقة من الحوت، وزحل والجوزاء في الميزان وأوج القمر في الأسد على خمس درجات ودقائق.

فلما عملوا ذلك وتحققوه قال انظروا أيضاً هل يكون بعد هذه الآفة آفة أخرى تنزل من السماء الى الأرض تكون ضد الأخرى التي تنزل أولا. وهي النار التي تحرق أقطار العالم، فعرفوه فقال انظروا متى يكون الكون الآخر وهو المضمر؟ فنظروا فوجدوا أنه يكون إذ نزل قلب الأسد في آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشرة من الأسد فتكون الشمس معه في دقيقة واحدة متصلة بزحل تثليث الرأس، ويكون المشتري في الأسد غير مستقيم السير، وعطارد معه في دقيقة، ويكون القمر في الدلو متصلاً بالذنب في اثني عشر جزءاً، وتكون للزهرة في بعدها الأبعد مستقيمة السير ويكون المريخ في الأ سد مستقيم السير، ويكون في ذلك الشمس تنطبق منه على الأرض انطباقاً لم يعهد مثله.

فعرفوا الملك بما ظهر لهم من ذلك، وقالوا إن قلب الأسد إذا قطع ثلاثة أدوار لم يبق من حيوان الأرض شيء متحرك إلا تلف وهلك واذا ا ستتم أدواره تحللت أمر الفلك، فأمر الملك بقطع الاساطين العظام وبنشر البلاطات الهائلة واستخراج الرصاص من أرض المغرب، وإحدار الصخور من ناحية اسوان وكانت سوداء عظاما تساق في العجل، فجعل منها آساس الاهرام الثلاثة الشرقي والغربي والملون وجميعه من الحجر الملون الأسود والأبيض.

وقيل كانت لهم صحائف من خواص اشياء وعليها كتابات، فاذا قطع الحجر وتم احكامه وضعوا عليه

تلك الاشياء وضربوه فيغدو بتلك الضربة ما يغيب به عنهم ثم يعاودون ذلك حتى يصل.

فوضعت آساس الاهرام بالدهشور منها الهرم الشرقي والهرم الغربي والهرم الملون.

وكانوا يمدون البلاطة ويجعلون في وسطها قضيب حديد قائم، ثم يركبون عليها بلاطة اخرى مثقوبة الوسط، فيدخل ذلك في ذلك الثقب، ثم يذاب الرصاص ويصب حول البلاطة وفي الثقب بهندمة واتقان بعد تأليف ما فيها من النقوش والكتابة والصور، حتى بلغوهامن ذلك الى ما يحار فيه الوهم، وجعل ابوابها تحت الأرض بأربعين ذراعا في آزاج مبنية بالرصاص والحجارة، طول كل أزج منها مائة وخمسون ذراعا.

فأما باب الهرم الشرقي، فإنه من الناحية الشرقية على مقدارمائة ذراع من وسط حائط الهرم. وأما باب الهرم الغربي فمن الناحية الغربية، وهو ايضا على قياس مائة ذراع من وسط الحائط، حتى تنزل الى باب الأزج المبني فتدخل منه.

واما باب الهرم الملون بلونين من الحجارة فمن الناحية الجنوبية يقاس أيضاً من وسط الحائط الجنوبي مائة ذراع، ويحفر حتى يوصل الى باب الأزج والمبنى له، ويدخل منه إلى باب الهرم، وجعل طول كل واحد منهما في الهوى مائة ذراع بالذراع الملكي، وهو خمسمائة ذراع عندنا بذراعنا اليوم، وجعل ضلع كل واحد من جهاته مائة ذراع ورفعها في الاستواء حتى بلغ أربعين ذراعا فوق الأرض، ثم هندمها من كل جانب حتى تحددت أعاليها عند آخر طولها.

وكان ابتداؤهم لبنائها في وقت سعد اجتمعوا عليه وتخيروه، فلمافرغ منها كساها ديباجاً ملوناً من فوقها إلى أسفلها، وعمل لها عيداً لم يبقى في المملكة أحد إلا حضره.

ثم أمر بعمل ثلاثين مخزناً بنيت من حجارة صوان ملونة في الهرم الغربي، وملئت بآلات الزبرجد والتماثيل المعمولة ومن الجواهر الغالية، والطلسمات الغريبة، وآلات الحديد الفاخر والسلاح الذي لا يصدأ، والزجاج الذي يطوى فينطوي ولا ينكسر، وأصناف العقاقير المفردات والمؤلفات، والسموم القاتلات وغير ذلك مما يطول وصفه، ولا يدرك عده.

ونقل إلى الهرم الآخر وهو الشرقي أصنام الكواكب والقباب الفلكية، وما عمل أجداده من التماثيل والدخن الذي يتقرب بها إليها ومصاحفها، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التي مضت والأوقات التي تحدث منها ما ينتظر، وذكرمن يلي مصر إلى آخر الزمان، وكون أدوار الكواكب الثابتة وما يحدث في دورانها وقتاً وقتاً، وجعل فيها المطاهر التي فيها المياه المدبرات وما أشبه ذلك من هذه الأشياء.

وجعل في الهرم أجساد الكهنة في توابيت صوان أسود، ومع كل كاهن مصحف فيه عجائب صنعته وعمله وسيرته وما عمل في وقته وكانوا على مراتب المرتبة الأولى القاطرون وهم الذين تعبدوا للكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين، ومعنى القاطر عندهم جامع العلم.

والمرتبة الثانية لمن تعبد لستة وله أيضاً اسم، والمرتبة الثالثة لمن تعبد لخمسة، والمرتبة الرابعة لمن تعبد لاثنين والمرتبة السابعة لمن تعبد لواحد ولكل واحد من أصحاب المراتب السبعة اسم يعرف به.

وجعل في جهة من الهرم مرتبة من هذه المراتب في توابيتهم، وجعل مع أجسادهم مصاحفهم كتبوها على ورق الذهب، ذكروا فيها جميع ما كان وما يكون وما قد عملوه من العجائب، وجعل في الحيطان من كل جانب كما تدور أصناماً تعمل بأيديها جميع الصناعات، على مراتبها وأفنارها وصفة كل صنعة وعلاجها، وما يصلح لها.

وكتب مزبورا علىالصور جميع علاجات الأشياء كلها، وعلم النواميس، وعلم كل علم ثم جعل فيها أموال الكواكب التي أهديت إليها، وأموال الكهنة وقدر ذلك لا يحصى عدداً ولاوزناً.

وجعل لكل هرم منها خازناً، فصاحب الهرم الشرقي صنم مجزع من جزع أسود وأبيض له عينان مفتوحتان براقتان، وهو جالس على كرسي، ومعه شبه الحربة إذا نظر اليه ناظر سمع من جهته صوت يكاد يترع قلبه فيهيم على وجهه ويختلس عقله، ولا يكاد يفارقه الهم حتى يموت منه.

وجعل خازن الهرم الغربي صنماً من حجر صوان مجزعاً واقفاً معه شبه الحربة على رأسه حية مطوقة، من قرب منه وثبت اليه من ناحية قصده، فتطوقت على عنقه فقتلته ثم عادت إلى رأس الصنم.

وجعل خازن الهرم الملون صنماً صغيراً من حجر البهت على قاعدة منه قائماً، من نظر إليه اجتذبه الصنم حتى يلصق به، فلا يفارقه حتى يموت فلم فرغ من ذلك ضمدها بالأرواح الروحانية، وذبح لها الذبائح لتمنع من أنفسها من أراد الوصول إليها، إلا من قرب لها وعمل لها باعمال الوصول.

وذكرت القبط أن عليها كتاباً منقوشاً تفسيره بالعربية" أنا سوريد الملك الملك، بنيت هذه الأهرام في وقت كذا من الزمان، وأتممت بنيانها في ست سنين، فمن أتى بعدي، وزعم أنه ملك مثلي فليهدمها في ستين سنة، وقد علم أن الهدم أيسر من البنيان، وإني قد كسوتها بالديباج فليكسها من أتى بعدي حصيراً!".

فوجدوا أنه لا يقوم بهدمها شيء في الأزمان الطوال، وأن كسوتهاأيضاً بالديباح مما يشق على الملك، ويتعذر إلا بفساد عظيم، وبما لم يكن فيه صلاح.

فمنها أن الرشيد لما دخل مصر، فرأى الاهرام أحب أن يهدم بعضها ليعلم ما فيه، فقيل له إنك لا تقدر على ذلك، فقال لا بد من فتح شيء منه ففتحت الثلمة المفتوحة بنار توقد وخل يرش ومجانيق يرمى بها وحدادين يعملون ما فسد منها وأنفق عليها مالاً عظيماً فوجدوا عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعاً، فلم انتهوا إلى آ خر الحائط وجدوا خلف النقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب وزن كل دينار أوقية

من أواقينا، وكان عددها ألف دينار فعجبوا من ذلك و لم يعرفوا معناه، فأخبروا بذلك الرشيد، وأتوه بالذهب والمطهرة فجعل يعجب من ذلك الذهب، ومن جودته وحسنه وحمرته، ثم قال ارفعوا إلي حساب ما أنفقتموه على هذه الثلمة ففعل ذلك فوجدوه بأزاء ذلك الذهب الذي أصابوه لا يزيد ولا ينقص، فعجب من معرفتهم بذلك على طول المدة، وأنهم يستفتحونه من ذلك الموضع بعينه وعجب من معرفتهم بقدر ما ينفق عليه، ومن تركهم ما يوازي في الموضع، عجباً شديداً كأن لهؤلاء القوم من العلوم متزلة لا نوازيها ولا ندركهانحن ولا أمثالنا.

وقيل ان المطهرة التي وجد فيها المال كانت من زبرجد، فأمربحملها إلى خزائنه وكانت أحد ما حمله من عجائب مصر.

ومن عجائبها وما يستغرب منها أن الرشيد لما فتح تلك الثلمة من الهرم أقام الناس سنين يقصدونه ويدخلونه، ويترلون فيه من الزلاقة التي فيه، فمنهم من يسلم، ومنهم من يهلك، وأن جماعة من الأحداث اتفقوا وكانوا عشرين رجلاً على أن يدخلوا الهرم، ولا يبرحوا منه الىأن يصلوا إلى منتهى آخره أو يموتوا عن آخرهم فيه.

فأخذوا معهم من الطعام والشراب ما يكفيهم لشهرين، وأخذوا الأكل والوقيدوالشمع والحبال والفؤوس، وما احتاجوه من الآلات والحديد للحفر، دخلوا الهرم ونزل أكثرهم في الزلاقة الأولى والثانية، ومضوا يمشون في أرض الهرم، فرأوا خفافيش على قدر العقبان تضرب وجوههم، وانتهوا الى ثقب تخرج منه ريح باردة ولا تفتر، فذهبوا ليدخلوه فانطفأت مسارجهم، فذهبوا ليدخلوه فاذا الثقب على قاعة كبيرة فارغة، فعلموا أن أجساد موتاهم في ذلك الموضع، وأن معها كنوزهم وأموالهم، فراموا أن يترلوه فلم يستطيعوا على ذلك.

فقال أحدهم: شدوني بالحبال، وانزلوني في هذا الثقب حتى أصل إلى قعر هذه القاعة، ولعلي أعلم منها بعض ماتريدون، ففعل القوم بصاحبهم ذلك، وشدوا الحبال في وسطه وتعجم الثقب فأبطأ فيه، وهم يمسكون الحبال حتى انطبق الثقب عليه، فجذبه أصحابه بجهدهم وقوتهم فلم يقدروا على نزعه وسمعوا عظامه تتكسر وسمعوا صيحة هائلة سقطوا منها على وجوههم لا يعقلون، فقاموا وطلبوا الخروج، وضاق بهم الأمر وصعدوا فسقط بعضهم من الزلاقة عند صعودهم؛ فترك وهلك.

وخرج من بقي منهم من جميع الهرم، وجلسوا في صيحة متعجبين، فبينما هم كذلك إذ اخرجت لهم الأرض صاحبهم من بين أيديهم حياً يتكلم بكلام كاهني لم يفهموا معناه، فسره لهم بعض أصحاب الدرايات بالصعيد بأنه" هذا جزاء من طلب ما ليس له" ثم سقط ميتاً فحملوه، وفطن بهم فأخذوا وحملوا

الى الوالي، فحدثوا عن أنفسهم ذلك.
وفي حديث آخر أن قوماً دخلوا الهرم وانتهوا إلى أسفله وطافوه فعرض لهم مثل الطريق، فساروا فيه فوجدوا كالمطهرة يقطر منها ماء يسير ثم يفيض فلم يدروا ما هو، ثم وجدوا موضعاً كالمجلس المربع حيطانه من حجارة مربعة ملونة عجيبة صغار في نهاية من الحسن، فقلع أحدهم منها حجراً وجعله في فيه. فانسدت أذنه من الريح، و لم يزل يتصبر وهو معهم حتى دخلوا مكانا فيه كالقوارة العظيمة فيها ذهب مضروب كثير، أعمدته كلها في غاية من الاتقان زنة كل واحد منها الف دينار، فأخذوا منها واحداً، فلم يقدروا أن يتحركوا، ولاان يمشوا حتى تركوه من أيديهم، و لم يصلوا منه إلى شيء.
ووجدوا في مكان آخر كالصفة فيها صورة شيخ من صنم أخضر، مشتمل شملة، وبين يديه تماثيل صغار في صورة الصبيان وكأنه يعلمهم، فأخذوا منها واحاً فلم يقدروا أن يتحركوا.
وساروا أيضاً في تلك الطريق، فوجدوا بيتاً مسدوداً فيه دوي هائل وزمزمة، فلم يتعرضوا له، ومضوا فوجدوا مثل المجلس المربع فيه صورة ديك من جواهر قائم على اسطوانة خضراء، وله عينان يسرج المجلس منها، فلما دنوا منه صوّت بصوت مفزع، وخفق بجناحيه، فتركوه ومضوا حتى وصلوا إلى صنم من حجر أبيض في صورة امرأة منكسة الرأس، وعن جانبيها أسدان من حجارة كأنهما يريدان أن يلتقماها، فجعلوا يتعوذون ويقرأون إلى أن تجاوزوهما، وساروا إلى أن لاح لهم نور ساطع، فاتبعوه فإذا هم بهوة مفتوحة، فخرجوا منها، فاذا هم في الصحراء.
وإذا على باب الهوة تمثالان من حجر أسود معهما كالمزراقين، فعجبوامن ذلك ووجدوا شبه الطريق فساروا عليه يوماً كاملاً إلى أن وصلوا إلى الأهرام من خارج.
وكان ذلك في زمان يزيد بن عبد الله والي مصر فأخبروه بذلك فاستعد ووجه معهم من يدخل الهوة فأطافوا أياماً فلم يجدوها، وأشكل عليهم أمرها، و لم يكن لهم إليها سبيل ولا وجدوا فيها حيلة، والذي أخرج ذلك وحده جوهرة نفيسة باعها بمال خطير.
وذكر أن قوماً في وقت أحمد بن طولون دخلوا الهرم فوجدوا في طاق من أحد بيوته أشنانة زجاج فأخذوها وخرجوا بها فافتقوا رجلاً منهم فدخلوا في طلبه إذ خرج عليهم عرياناً يضحك ويقول" لاتتعبوا في طلبي، ورجع هارباً إلى داخل الهرم، فعلموأأن الجن قد استهوته وشاع أمرهم.
وقيل إن أحدهم سعى بهم فأخذ الاشنانة منهم، ومنع الناس من دخول الهرم، وأنهم وزنوا ذلك الأشنان فوجدوا فيه سبعة أرطال من زجاج أبيض صاف، فانتبه رجل من أهل المعرفة، وقال لم تتخذ الملوك هذه لباطل وما عملت إلا لشيء، ثم ملأ الأشنان بالماء ثم وزنه فوجده ملاءً مثل وزنه فارغاً لاينقص ولا يزيد.
وحكي أن قوماً دخلوا الهرم ومعهم غلام يعبثون به، فخرج عليهم غلام أسود في يده عصى، فأخذ

يضربهم ضرباً وجيعاً فخرجوا هاربين وتركوا طعامهم وشرابهم وبعض ثيابهم، وقد أصاب قوم في بربا اخميم مثل ذلك.

وحكي أن رجلاً وامرأة دخلا للفجور فصرعا جميعاً فلم يزالا مصحوبين مشهورين الى أن ماتا.

وفي بعض مصاحف القبط أن سوريد الملك لما أخبره كهنته بخبر النار المحرقة، التي تخرج من برج الأسد فتحرق العالم فعمل في الأهرام مسارب يدخل منها النيل الى مكان يعنيه ثم يفيض الى موضع من أرض العرب وأرض الصعيد، وملأ تلك عجائب وطلسمات وأصناماً تنطق.

وحكي بعض القبط أن سوريد الملك لما أخبره منجموه بما أخبروه قال انظروا بلدنا هذا هل تلحقه آفة؟ فنظروا وقالوا يلحقه طوفان يأتي على أكثره، ويلحقه خراب يقيم فيه عدة سنين، ثم يغلب عليها العمران. قال وكيف يكون خرابها؟ قال يقصدها ملك يقتل أهلها ويغنم مالها، قال ثم ماذا؟ قالوا يكون عمارتها على يد من قتله قال ثم ماذا؟ قالوا يقصدها قوم مشوهون من ناحية النيل فيملكون أكثرها قال ثم ماذا؟ قالوا انقطع نيلها وتخلو من أهله، فأمر أن يكتب ذلك ويزبر على الاهرام والاسطوانات والحجارة العظيمة.

وذكر رجل من أهل المغرب ممن يختلف الى الواحات، ويحمل الاسماك إلى الواحات على جمل له أنه بات قرب الهرم، فما زال يسمع الضوضاء والغطغطة فهاله ذلك، وتباعد عن الهرم بجمله ذاك، فكان يرى حول الهرم شبه النيران تتألق، فلم يزل مذعوراً إلى أن غلبته عيناه فنام، فلما أصبح في الموضع الذي فيه السمك رأى سماكاً آخر بحياله موضوعاً فعجب من ذلك وشد سمكه على جمله وكر راجعاً إلى الفسطاط، وحلف أن لايقرب من الهرم بعد ذلك.

وأما البرابي فلها أخبار يطول ذكرها وشرحها، وتحكي القبط في أمور الروحانيين الغالبين على الاهرام والبرابي.

فذكروا أن روحاني الهرم الجنوبي في صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج حسناء لها ذؤابتان فإذا أرادات أن تستهوي الانسان ضحكت في وجهه واجتلبته الى نفسها فيدنو اليها فتستهويه ويزول عقله ويهيم.

وقد رأى جماعة هذه المرأة تدور حول الهرم وقت القائلة، وعند غروب الشمس.

وروحاني الهرم الآخر غلام أمرد أصفر عريان له ذؤابتان، وقد رأوه أيضاً بعد المغرب مراراً يطوف حوله.

وروحاني الهرم الملون في صورة شيخ نوبي عليه قرطلة، وفي يديه مجمر من مجامر الطاس وهو يبخره وكذلك في جميع الأبرونيات.

وأما بربا أخميم فمعروف عند أهلها ان روحانيها غلام أسود عريان.

وروحاني برباسميرا هو في صورة شيخ أدم طوال أشيب صغير اللحية، وأما بربا قفط فروحانيته في صورة جارية سوداء، تحمل صبياً أسود صغيراً.

وأما بربا دنونية فروحانيته في صورة إنسان رأسه رأس أسد وله قرنان.

وأما بربا بوصير فهو في صورة شيخ أبيض عليه زي الرهبان، ومعه مصحف يحمله.

وأما بربا عدنا فروحانيته في صورة راع عليه كساء ومعه عصا.

ولأهرام دهشور روحانيون يراهم من قرب منها من نواحيها، على طول الأيام، ولكلها قرابين وبخور يظهر بها كنوزها، وتؤلف بين الناس وبين الروحانيين الذين بها.

فأقام سوريد مائة سنة وسبع سنين، وقد كان كهانه عرفوه الوقت الذي يموت فيه، فأوصى إلى ابنه هوجيف وعرفه بما احتاج إليه وأمره أن يدخل جسده الهرم ويجعله في الجرن الذي قد اعده لنفسه ويغشيه بكافور، ويحمل معه ما اعد من فاخر المتاع ومن السلاح والآلات، فامتثل هوجيت جميع ما امره به.

وتولى أمر الملك بعده أبنه هوجيت الملك فسار سيرة أبيه في العمارة والعدل والرقة والرأفة بالناس فأحبوه.

وبنى الهرم الأول من أهرام دهشور، وحمل إليه كثيراً من الأموال والجوهر، وكان غرضه جمع المال وعمل الكيمياء وإخراج المعادن ودفن كل ما تهيأ له من الكنوز في كل سنة.

وكانت له قصة مع بعض جواريه فنفاها إلى ناحية الغرب، وأمر فبنيت لها هناك مدينة وأمر أن يقام فيها علم ويزبر عليها اسمها وقصتها وأسكن معها كل امرأة مسنة من أهل بيته.

وشج في أيامه رجل رجلاً فامر بقطع أصابعه، وسرق سارق مالاً لرجل فملك رقه للذي سرق منه.

وعمل منارات ومصانع وطلسمات، وملكهم تسعاً وتسعين سنة ومات.

وملك عليهم ابنه مناوس الملك، وكان جباراً عظيماً وعذابا أليما فآذى الناس، وسفك الدماء، واغتصب النساء، واستخرج كنوز بابل، وبنى قصوراً بذهب وفضة، وفجر فيها الانهار، وجعل حباءها من صنوف الجواهر وتمخرق في الهبات على غير ما يجب، وأغفل العمارات.

وأباح أصحابه غصب نساء العامة، وكان هو يفتض النساء قبل أزواجهن، وأطاف به أهل الشر من كل ناحية، فأبغضه الناس وكرهوا أيامه.

وامتنع عليه قوم في شيء أمرهم به فأحرقهم بالنار، وسلط رجلاً من الجبارين يقال له قرناس من ولد إدريس بن آدم على محاربة الامم القريبة في الماء فقتل منهم عالماً كثيراً وحده.

وكان أشجع اهل زمانه، ثم هلك فاغتم عليه الملك، وأمر أن يدفن مع الملوك في الهرم، ويقال بل عمل له وأقام عنده أعلاماً، وزبر عليه اسمه وما عمل في وقته من الحروب.

وأقام مناوس ملكا ثلاثا وسبعين سنة، ومات وجعل في الهرم مع أجداده في حوض من صوان أبيض

مصفح بالذهب والجوهر، وجعل معه كثير من ذخائره وأمواله وعجائبه.
وملك عليهم ابنه افراوس الملك، وكان عالماً محنكاً فخالف أباه في فعله، وعدل في الناس ورد النساء اللاتي غصبهن أبوه إلى أزواجهن.

وعمل في وقته قبة طولها خمسون ذراعاً وعرضها مائة ذراع، وركب في جوانبها أطياراً تصفر بأصناف الأصوات المطربة لا تفتر، وعمل في وسط المدينة مناراً من صفر، عليه صورة رأس إنسان من صفر كلما مضت ساعة من الليل والنهار صاح ذلك الرأس فيعلم بصياحه دخول ساعة ويعرف من كل سمعه عدة الساعات.
وجعل مناراً آخر وجعل فيه قبة من صفر مذهب ولطخه بلطوخات، فاذا غربت الشمس اشتعلت تلك القبة نوراً فيضيء لها كثيراً من المدينة مشبهاً بالنار لا تطفيها الرياح، ولا الأمطار، فاذا كان النهار قل ضوؤها لنور الشمس.
ويقال إنه أهدى الى الدرمشيل الملك ببابل مدهنة من زبرجد قدر خمسة أشبار، وكان استهداه ذلك ليجعلها في بيت القربان.
ويقال الها وجدت بعد الطوفان، ويقال إنه عمل في الجبل الشرقي صنماً عظيماً قائماً على قاعدة مصبوغاً بلطوخ أصفر مموه بالذهب وجهه الى الشمس يدور معها الى أن تغرب في الغرب ثم يدور ليلاً حتى يحاذي الشمس مع الصبح.
ويقال إن أفروسا كان يطلب الولد في وقته فنكح ثلاثمائة امرأة يبتغي أن يولد له منهن فلم يكن ذلك.
ويقال إن في وقته عقمت أرحام النساء والبهائم، ووقع الموت لما كان الله عز وجل قدره من هلاك العالم بالطوفان.
وقيل إن الأُسد كثرت في وقته حتى كادت ان تدخل البيوت، فاحتالوا لها بالطلسمات المانعة والحيل المضرة بها، وكانت تغيب شيئاً وتعود، فرفعوا ذلك الى الملك وقالوا هذه علامة مكروهة، فأمر أن يعمل لها أخاديد وتملأ ناراً وجلبوا اليها الأسد بالدخن التي تجذب روحانيتها اليها، وألقوها على النيران فاحترقت.
وبنى في وقته مدائن في ناحية الغرب تلفت في الطوفان مع أكثر مدنهم، وارتفعت الأمطار عنهم، وقل الماء في النيل فأجدبوا وهلكت الزروع بالحر والريح الحارة وغير ذلك، فأضر ذلك بهم فاحتالوا لدفع النار بطلسماتهم، وكانت تذهب ثم تعود.
وقيل ان الذي فعل ذلك بهم ساحر من سحرتهم كان مناوس قد غصب امرأته فاعمل الحيلة قليلاً قليلاً في

افساد طلسماتهم، لأن لكل طلسم شيئاً يقوي روحانيته وشيئاً آخر يفسدها.
ولهذه العلة دخل بخت نصر الفارسي مصر، وكانت ممتنعة من جميع الملوك فلما أفسد الساحر طلسماتهم سلط عليهم تلك الآفات وأفسد طلسم التماسيح فهاجت عليهم ومنعتهم الماء، وعذبتهم عذاباً كثيراً الى أن فطنوا به من قبل تلاميذه.
وذلك أن بعض تلاميذه لامه على ما يفعل من المضرة بقومه، فانتهره ونفخ في وجهه، فأظلم عليه بصره فرفع التلميذ أمره الى وزير الملك، فعرف الوزير الملك بالأمر، فأمر الملك بادخال التلميذ اليه، فدخل وعرفه بصورة الحال، فأنفذ الملك الى الساحر جيشاً لياتوه به، فلما نظر الساحر الى القوم مقبلين اليه دخن بدخنة أغشت أبصارهم، وارتفعت منها عجاجة صارت ناراً مضرمة حالت بينهم وبين الساحر، فهالهم أمره وخافوا على أنفسهم منه فرجعوا الى ملكهم، وعرفوه بما جرى، فأمر الملك باحضار جميع السحرة.
وكان رسم السحرة عندهم أن يعاهدوا ملوكهم على أن يكونوا أبداً معهم ولا يخالفوهم ولا يقصدوهم بمكروه ولا يبغونهم الغوائل، فمن فعل ذلك منهم سلب منزلته وما يملكه، وكان للملك أن يسفك دمه ودم أهل بيته، وكانوا مع الملوك على هذه الحالة، وكانوا مع ذلك يوفون تعهدهم ولا ينقضون شيئاً من عهدهم.
فلما اجتمع السحرة عند الملك أخبرهم خبر الساحر، وكان يقال له أجناس وما فعله من الفسادونقضه للعهد، وقال لهم إن لم تحضروه أهلكت جميعكم، فسألوه النظر في الأمر، فأخذ أولادهم ونساءهم رهائن بذلك وأنظرهم.

فلما خرجوا من عنده تكلموا بينهم وقالوا إنكم تعلمون كثرة علم أجناس وشدة سحره، وانا ما لنا به طاقة، ومناوس الملك هو الذي نقض عهده، وتعدى عليه وغصبه امرأته، فينبغي لنا أن نخلص أنفسنا منه، فأجمعوا أمرهم على أن ينصرفوا إلى الملك واستأذنوه في الذهاب إليه ومداراته وتوبيخه والرفق به حتى يأتوا به الملك بأمان يأخذونه له منه، فيجدد العهد بينه وبين الملك، ففعلوا ذلك وأجابهم الملك إلى ما سألوه من ذلك، ثم مضوا إلى أجناس ولطفوا به، وقالوا له إنا ما نجهل حقك وعظم أمرك وإنا بقدرك وكثرة عملك عارفون، ولم يكن في قدر الجناية التي جنت عليك قدرما فعلته من الأضرار بأهل بلدك الذي أنت منهم، ولا في الواجب أن تهلك عالماً كثيراً من الناس لجناية جناها عليك مناوس، ولا يجب على ملكنا وملك اليوم الذي عهده لازم لنا ولك من فعل أبيه بك وبسواك عقوبة.
ولسنا نأمن أن تسلب علمك وتصير إلى أقبح عملك، فتهلك مذموماً وتمضي غير مفقود، فلم يزالوا به حتى أجابهم إلى ما أرادوه، وكتبوا بذلك إلى الملك فكتب له أماناً وجدد له عهداً ورجع إلى ما كان من

طاعة الملك وحسن رأيه فيه.

وردت إليه امرأته فأكرمها وردها إلى قصر الملك وعرفهم أنه لا يرى في دينه أن يلامس امرأة لامسها الملك على حال من الأحوال، لما كانوا يرعون من طاعة الملوك ويعظمون من حقوقهم، فسر الناس بذلك وعجبوا من عقله وحكمه وصلح الملك والناس وعمل لهم أجناس هذا عجائب وطلسمات كثيرة.

وملكهم افراؤس أربعاً وستين سنة، وهلك وليس له ولد ولا أخ، فدفن في الهرم وجعلت معه أمواله وذخائره وجوهره والصنائع التي عملت في وقته.

واجتمع الناس على تمليك رجل من أهل المملكة يقال له ارمافيوس فلم ملك أمربجمع الناس إليه، فلما اجتمعوا بين يديه قال لهم: إني أرى من حولكم من الأمم مسارعة إليكم وغالبة على عداوتكم وأنا مانع بلدكم منهم وحام دياركم ودماءكم وقد تطرفت نواحيكم ويوشك أن تسير إليكم وأنا أريد منعهم بعدوهم وأقصدهم في بلادهم وتخويلكم إياهم، فأحتاج إلى معرفة حكمائكم بالأعمال الهائلة والتماثيل العجيبة فشكروه ودعوا له بالتوفيق والسعادة الكاملة.

وقالت الحكماء: نحن نخرج مع الملك ونبلغه محابه فيما يريده من أعدائه، ونحن نخدم الجيش مكانه، ونبذل أنفسنا دونه، فشرع في ذلك.

وخرج في جيش عظيم، وحارب تلك ا؟لأمم، فنكاهم نكاية شديدة، ورجع غانماً، وخلف في وجوهها جيشاً، فتألفت تلك الأمم على ذلك الجيش من كل جانب فهزمته، ورجع أصحابه مغلوبين فغاظه ذلك.

وقد كان أصابته علة في سفره من تغير الأهوية وتبديل الماء، فأنفذ ابن عم له يقال له فرعان بن ميسون، وكان أحد الجبابرة الذين لا يطاقون وهو أول فرعون تسمى بهذا الاسم، وتسمى به بعده من تشبه به.

وقال أصحاب التاريخ من أهل مصر، إن أول من تسمى بفرعون غلام الوليد بن دمع العماليقي، يقال له فرعون كان قد هرب من مولاه لما رجع من طلب النيل، وبنى المدينة التي يقال لها مدينة العقاب وتحصن بها، فقيل له فرعون وسنذكر خبره في موضعه.

فانفذ الملك ابن عمه فرعان في جيش عظيم، فأجلى تلك الأمم ونفاها إلى أطراف البحر وكر راجعاً ومعه رءوس كثيرة وخلق كثير أسارى.

فأمر الملك بنصب الرءوس حول المدينة، وقتل من صلح للقتل، وكان فيهم كاهن منهم فأمرأن ينشر بمنشار، وهو أول من فعل ذلك.

وأعظم الملك ابن عمه فرعان وأكرمه وألبسه حللا منظومة بالجوهر، وأمر أن يطاف به ويذكر فضله، ثم أنزله في بعض قصوره.

وأن امرأة من نساء الملك عزيزة عليه عشقت فرعان، فأرسلت اليه تدعوه الى نفسها فامتنع من ذلك

خوفاً من الملك، ولأن التخطي كان عندهم إلى نساء الملك عظيما.

فلما طال عليها شوقها اليه أحضرت امرأة ساحرة من نساء الكهنة ولاطفتها حتى أنست بها، فذكرت أمر فرعان وما تجده من سببه وامتناعه عليها، فضمنت لها بلوغ محبتها منه، فسحرته بدخن كان عندها عملته له حتى اهتاج اليها وقدم على ودها وسهل عليه ما صعب من أمره، ودست اليه فأجابها واجتمع بها وتمكن حب كل واحد منهما من صاحبه، ودام الأمر بينهما وتمادى الانس إلى أن ذاكرته أمر الملك وأنها لاتأمن أن يصل خبرهما به فيهلكا، وقالت له اعمل الحيلة في قتله، وأنت ابن عمه فيكون لك الملك من بعده ونأمن على أنفسنا، فلشدة حبه لها استحسن ذلك واستدعى بسم فدفعه اليها، فدسته في شراب الملك فمات لوقته، ودفن في الهرم مع الملوك.
وجلس فرعان الملك على سرير الملك، ولبس التاج و لم ينازعه أحد، وفرح الناس بمكانه لما كان عليه من الشدة والجرأة.
وأن فرعان علا في الأرض وتجبر، وهو الذي كان الطوفان في وقته، وغصب الناس أموالهم وعمل في طريق الظلم ما لم يعمله أحد، وأسرف في القتل وامتثل أصحابه فعله، فهابته الملوك، وأقروا له، وهو الذي كتب إلى الدرمشيل بن يمحويل ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام.
وذلك أن الدرمشيل كتب الى الآفاق يستعلم أهلها هل يعرفون آلهة غير الأصنام؟ ويذكر قصة نوح عليه السلام، وأنه يريد تغيير ما هم عليه من عبادة الأصنام، ويزعم أن له إلهاً غيرها لا يرى فكل أنكر ذلك.
ولما أخذ نوح عليه السلام في عمل السفينة كتب فرعان يأمره بقتل نوح وحرقها فأشار عليه بعض وزرائه أن لا يفعل وأن يدعها فان كان ما ذكره نوح حقاً ركبها الملك وأهل بيته فقبل رأيه وتركها وهم بقتل نوح فمنعه الله منه.
وكان عند أهل مصر علم الطوفان، و لم يقدروا كثرته ولا طول مقامه على وجه الارض، فاتخذوا السراديب تحت الأرض وصفحوها بالزجاج وحبسوا الريح فيها بتد بيرهم، وأتخذ الملك فيلمون رأس الكهنة مع نفسه، عدة له ولأهل بيته.
وقد كان فرعان أقصى الكهان وباعدهم، فرأى فيلمون الكاهن ليلة في منامه كأن مدينة أمسوس قد انقلبت بأهلها وكأن الاصنام قد انقلبت على وجوهها وكأن ناساً؟ من السماء يترلون ومعهم مقامع يضربون بها الناس، وكأنه تعلق بأحدهم، وقال لهم: لأي شيء تفعلون بالناس ولاترحمونهم ؟ قال: لانهم كفروا بإلههم الذي خلقهم، قال: أما لهم خلاص؟ قال: نعم من أراد الخلاص فعليه بصاحب السفينة.
فانتبه مرعوبا وقام حيرانا لايدري ما يصنع، وكان له امرأة وولدان ذكر وانثى وسبع تلاميذ فأجمع على

أن يلحق بنوح عليه السلام.

ثم نام أيضاً فرأى في نومه كأنه في روضةخضراء، وكأن فيها طيوراً بيضاء يفوح منها رياح المسك، وكأنه كان يعجب من حسنها، إذ تكلم بعض الطيور فقال سيروا بنا لعلنا ننجو مع المؤمنين فقال له ومن هم المؤمنون؟ قال أصحاب السفينة.

فانتبه مرعوبا واخبر أهله وتلاميذه بذلك واستكتمهم إياه ثم نظر في تخفيف اثقاله، وفي بيع ما يجب بيعه مستتراً بذلك كله.

فلما فرغ مما أراده دخل على الملك وقال له إن رأى الملك أن ينفذني إلى الدرمشيل لأرى هذا الرجل الذي عمل السفينة وأناظره وأجادله على ما جاء به من هذا الدين الذي يظهره، وأتبين حقيقة أمره فليفعل، فعسى أن يكون سبب هلاكه ودفعه عما يدعيه، فأعجب الملك منه وأمره بالخروج، وكتب معه إلى الدرمشيل.

فسار فيلمون بأهله وولده ومضى معه تلاميذه حتى انتهوا الى أرض بابل فقصد نوحاً فأخبره بما قصده، وسأله أن يشرح له دينه ففعل نوح عليه السلام، فآمن به فيلمون ومن معه، و لم يقصد فيلمون إلى الدرمشيل و لم يدفع إليه كتاب فرعان ولا رآه.

فقال نوح عليه السلام" من أراد الله به خيراً لم يصرف عنه ذلك، فلم يزل الكاهن مع نوح عليه السلام يخدمه هو وتلاميذه وولده إلى ان ركبوا السفينة.

وأقام فرعان الملك متمكناً في ضلاله وظلمه، مدمناً على لهوه وقد استخف بالهياكل، فضاقت أرضهم بها، وكثر الظلم والهرج وفسدت الزروع واجدبت الأرض من كل ناحية، وظلم الناس بعضهم بعضاً، و لم ينكر ذلك عليهم، وسدت الهياكل والبرابي وطبقت أبوابها، فجاءهم الطوفان وأقبل عليهم المطر في اربع وعشرين من الشهر.

وكان فرعان سكراناً فلم يقم إلا والماء قد عظم، فوثب مبادراً يريد الهرم فتخلخلت الأرض به، وسبق يريد الأبواب فخانته رجلاه وسقط على وجهه؛ وجعل يخور كما يخور الثور إلى أن أهلكه الطوفان ومن دخل منهم الأسراب مات بغمها ولحق الماء من أعلى الاهرام إلى حد التربيع، وأثره ظاهر عليه إلى الآن.

وقد ذكر أن مواضع سلمت من الطوفان يذكر ذلك الفرس، وتزعم أنها لا تعرف الطوفان، وكذلك الهند تزعم أنها لاتعرفه وليس بين أهل التاريخ اختلاف في عموم الطوفان لجميع الأرض.

ذكر ملوك مصر بعد الطوفان

أجمع اهل مصر أن أول من ملك مصر بعد الطوفان مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وذلك بدعوة سبقت له من جده.

والسبب في ذلك أن فيلمون الكاهن سأل نوحاً أن يخلطه بأهله وولده، وقال له: يانبي الله إنني تركت أهلي وولدي فاجعل لي رفقة أذكر بها بعد موتي، فزوج عليه السلام مصرايم بن بيصر بن حام بنت فيلمون، فولدت له ولداً فسماه فيلمون باسم جده.

فلما أراد نوح عليه السلام قسمةالأرض بين بنيه، قال له فيلمون: ابعث معي يانبي الله ابني، حتى أمضي به الى بلدي وأظهره على كنوزه، وأوقفه على علومه وأفهمه رموزها، فبعثه مع جماعة من أهل بيته، وكان غلاماً مراهقاً.

فلما قرب من مصر بنى له عرشاً من أغصان الشجر، وستره بحشيش ثم بنى له بعد ذلك مدينة في الموضع بنفسه وسماها درمان أي باب الجنة وزرعوا وغرسوا الاشجار.

وكان بين درمان الى البحر زروع وأجنة وعمارة، وكان القوم الذين كانوا مع مصرايم جبابرة، فقطعوا الصخور وبنوا المصانع والمعالم، وأقاموا في ارغد عيش.

ونكح مصرايم بنتاً من بنات الكهنة، فولدت له ولدا فسماه قبطيما، وتزوج بعد تسعين سنة من عمره امرأة أخرى فولدت له أربعة نفر: يقطويم، واشمون، وابريت، وصابي، فكثروا وعمروا الأرض وبورك لهم فيها.

وقيل ان عدد من كان مع مصرايم ثلاثون رجلاً من الجبابرة، فبنوا مدينة سموها ناقة، بلغتهم معناها ثلاثون، وهي مدينة منف.

وكشف فيلمون الكاهن لمصرايم عن كنوز مصر وعلمه قراءة خط البرابي وما زبر على الحجارة، وعرض عليهم معادن الذهب والفيروزج والزبرجد وغير ذلك، ووصف لهم عمل الصنعة فجعل الملك أمرها الى رجل يقال لسنطاس ثقة من اهل بيته، فكان يعملها في الجبل الشرقي، فسمي الجبل به المقطم.

وعلمهم أيضاً عمل الطلسمات وكانت تخرج من البحر دواب وتفسد زروعهم، وما قارب البحر من جهاتهم فعملوا لها الطلاسم فغابت و لم تظهر بعد.

وبنوا على غير البحر مدناً منها رقوده بمكان الاسكندرية، وجعلوا وسطها قبة من نحاس مذهب والقبة مذهبة.

ونصبوا فوقها مرآة معموله من أخلاط شتى قطرها خمسة أشبار، وكان ارتفاع القبة من الأرض خمسمائة ذراع، فكانوا إذا قصدهم قاصديهم بأذاهم من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها إلى ذلك القاصد ومراكبه فأحرقتهم اجمعين، و لم تزل على حالها حتى غلب عليها البحر فهدمها.

ويقال ان منارة الاسكندرية إنما عملت تشبيها بها، وقد كانت أيضاً عليها مرآة يرى فيهامن يقصدها من بلاد الروم، فاحتال عليها بعض الملوك، فوجه اليها من أزالها، وكانت من زجاجة مدبرة.

ولما حضرت مصرايم الوفاة عهد الى ابنه، وقد كان قسم أرض مصربين بنيه فجعل من قفط الى اسوان لقبطيم، وجعل لاشمون من أسوان الى منف، ولابريت الحوف كله، ولصابي ناحية البحرالى قرب برقة والغرب، فهو صاحب افريقية وولده الافارق، وأمر كل واحد من بنيه أن يبني مدينة لنفسه في موضعه وأمرهم عند موته أن يحفروا في الأرض سرباً ويفرشوه بالمرمر، ويدفنوه فيه ويدفنوا معه جميع ما في خزائنه من الذهب والفضة والجوهر. ويزبروا على ذلك أسماء الله العظام المانعة من الحوادث. فحفروا له سرباً، طولاً مائة وخمسون ذراعاً وجعلوا في وسطه مجلساً مصفحاً بصفائح الذهب، وجعلوا للمجلس أربعة أبواب على كل باب تمثال من ذهب عليه تاج مرصع بالجوهر، جالس على كرسي من ذهب قدامه آنية زبرجد، ونقشوا في صدر كل تمثال آيات مانعة، وأجلسوا جسده في مجلس زبرجد أخضر، وزبروا عليه " مات مصرايم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة سنة مضت لايام الطوفان، مات و لم يعبد الأصنام، فصار الى حيث هو لا يوم هرم ولاسقم ولاحزن، وجعل جسده وماله في هذا السرب وحصنه باسماء الله العظام، وبما لايصل اليه بعده إلا ملك له من جدوده سبعة ملوك يأتي في آخر الزمان، يدين للملك الديان، ويؤمن بالمبعوث بالقرآن، الداعي الى الايمان في عواقب الأزمان".

وجعلوا معه في ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط، وألف تمثال من الجوهر النفيس، وألف برنية ذهب مملوءة درايق سماً، وألف آنية مملوءة بالصنعة الإلهية والعقاقير السرية، وجعلوا مع ذلك طلسمات عجيبة، وسبائك ذهب مكدسة بعضها على بعض، وسقفوا ذلك بالصخور العظام، وهالوا عليه التراب والرمال حتى سدوا ما بين جبلين متقابلين، وجعلوا عليه علامات لا تخفى.

وولي الملك بعده ابنه قبطيم الملك، ويقال ان القبط منسوبون اليه وهو اول من عمل العجائب، واثار المعادن، وشق الأنهار، ويقال انه لحق البلبلة وخرج منها بهذا اللسان القبطي، وعمل ما لم يعمله أبوه من العمارات، ونصب الاعلام والمنارات والعجائب والطلسمات.

وملكهم قبطيم ثمانين سنة، وهلك فاغتم عليه بنوه وأهله، ودفن في سرب تحت الجبل الكبير الداخل، وصفح بالمرمر الملون، وجعل فيه منافذ للريح فهي تتخرق فيه بدوي عظيم هائل، وجعل فيه كروس نحاس مطلية بأدوية تضيء أبداً كأنها سرج لا تطفأ، ولطخوا جسده بالمرمر والكافور والمومياء وجعلوه في جرن من ذهب وثياب منسوجة بالمرجان والدر، وكشفوا عن وجهه في جرنه تحت قبة على عمد من مرمر ملون وفي وسط القبة جوهرة معلقة تنير كالسراج، وبين كل عمودين تمثال في يده أعجوبة، وجعل تحت

الجرن توابيت حجارة مملوءة جوهراً وذهباً وغير ذلك من التماثيل والصنعة، وحول ذلك مصاحف الحكمة، وسدوا عليه، وزبروا عليه كما زبروا على تابوت أبيه.

وتولى الأمر بعده ابنه قفطويم الملك، وكان أكبر ولد أبيه، وكان جباراً عظيم الخلق، وهوالذي وضع أسرار الأهرام بالدهشور وغيرها، ليعمل ما عمله الأولون، وهو الذي بنى مدينة زرنده.

وهلكت عاد بالريح في آخر أيامه، وأثار من المعادن ما لم يثره أحد، وكان يجد الذهب على قدر الرحى والزبرجد مثل الاسطوانة، وغرس الأسارح في صحراء الغرب مثل النخلة.

وعمل من العجائب كثيراً، وعمل مناراً عالياً في جبل قفط يرى منه البحر الشرقي، ووجد هنالك معادن زئبق فعمل منه بركة عظيمة، فقيل إنها هناك الى اليوم.

وفي زمانه أثار ابليس وأعوانه الأصنام التي كان الطوفان أغرقها، وزينوا أمرها وعبادتها.

ويقال ان قفطويما بنى المدائن الداخلة، وعمل فيها عجائباً، منها الماء الملفوف القائم كالعمود ولا ينحل ولا يذوب ويسمى فلطيس، وصيادة الطير اذا نصبها ومر عليها الطير سقط فيها و لم يقدر أن يبرح منها حتى يؤخذ.

وعمل بها أيضاً عموداً من نحاس عليه صورة طائر، فاذا قرب الوحش والأسد والحيات من المدينة صفر ذلك الطائر صفيراً عالياً، فترجع تلك الدواب هاربة.

وكان للمدينة أربعة أبواب جعل لها أربعة أصنام، على كل باب صنم من نحاس لا يعبر غريب الا ألقى عليه النوم والسبات، فينام عند الباب فلا يبرح نائماً حتى يأتيه أهل تلك المدينة، فينفخوا في وجهه فيقوم، فان لم يفعلوا ذلك لم يزل نائماً حتى يهلك.

وعمل مناراً لطيفاً من زجاج ملون على قاعدة من نحاس، وعلى رأس المنارة صورة صنم من زجاج كبيرة، وفي يده كالقوس، وكأنه يرمي به، فان عاينه غريب وقف في موضعه و لم يبرح حتى يجيئه أهل المدينة.

وكان ذلك الصنم يتوجه من ذات نفسه الى مهب الرياح الاربع، وقيل ان هذا الصنم على حاله الى اليوم، وإن الناس تحاموا تلك المدينة على ما فيها من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفاً من ذلك الصنم، فاذا وقع عين انسان عليه لا يزال نائماً حتى يهلك.

وقد كان بعض الملوك عزم على قلعه بما أمكنه، فهلك في ذلك خلق كثير، و لم يقدر عليه.

وقيل إنه عمل في بعض المدن الداخلة مرآة يرى الانسان فيها جميع ما يسأل عنه.

وعمل من خلف الجبل وبين الواحات الداخلة مدنا، وعمل فيها عجائب كثيرة، ووكل بها الروحانيين

الذين يمنعون منها، فلا يستطيع أحد أن يدنو منها ولا يدخلها حتى يعمل عقداً بين أولئك الروحانيين، فيصل حينئذ اليها وياخذ من كنوزها ما أحب من غير مشقةولاضرر.

فأقام قفطويم ملكاً أربعمائة سنة، وأكثر العجائب انما عملت في وقته ووقت أبيه.

وأمر قفطويم فعمل له ناووس في الجبل الغربي قريب من المدينة مدينة العمد، وقد كان عمل لنفسه قبة قبل موته في سرب تحت الأرض معقود على أزج تحت الأرض على هيئة الدار في سعة كثيرة، وعمل حول دورها خزائن واسعة منقورة في الجبل أيضاً، وجعل في سقوفها مسارب للريح، وبلطت مع السرب وجميع الدار بالمرمر، وجعل في وسط الدار مجلساً على ثمانيةأركان مصفحاً بالزجاج الملون المسبوك، وجعل في سقفه جواهر وحجارة تسرج.

وفي كل ركن من أركان المجلس تمثال ذهب بيده كالبرق الذي يبرق، وعمل في وسط المجلس بركة مصفحة بالذهب، وعمل لها حواشي زبرجد وفرش حرير، وجعل على جسده بعد أن لطخ بالأدوية المجففة، وجعل حواليه ألف آنية من كافور، وأسدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب ووجهه مكشوف، وعلى رأسه تاج مكلل، وعن جوانب البركةأربعة تماثيل من زجاج مسبوك في صورة النساء وفي ألوانهن، وبأيديهن كالمراوح من ذهب، وعلى صدره من فوق الثياب سيف فاخر من أفخر الحديد قائمه من زبرجد.

وجعل في تلك الخزائن من الذخائر وسبائك الذهب والتيجان والجواهر، وأواني الحكم وأصناف العقاقير، ومن الطلسمات العجيبة، والمصاحف الحاوية لجميع العلوم ما لا يحصى قدره كثرة.

وجعل على باب المجلس صورة ديك من الذهب على قاعدة من زجاج أخضر، وهو ناشر الجناحين مزبور عليه آيات عظام مانعة، وجعل على كل مدخل أزج صورتين من نحاس مشوهتين، بأيديهما سيفان كالبرق وبين أيديهما بلاطة تحتها لوالب لا بد من وطئها إذا أراد أن يدنو منها، فاذا وطأها ضرباه بسيفهما فقتلاه.

وفي كل أزج كوة فيها لطوخ مدبرة تسرج وتضيء طول الزمان، وسدت أبواب الأزج بالاساطين المرصعة ورصوا على السقف البلاطات العظام، وردموا فوقها بالرمال.

وزبروا على باب الأزج الأول في حجر عظيم" هذا المدخل الى جسد الملك العظيم المهيب الكريم قفطويم ذي الايد والقوة والفخر والغلبة والقهر، حل هذا الموضع بجسده وبقي ذكره وعلمه فلا يوصل اليه، ولا يقدر عليه بحيلة إلا بعد مدد ودورات تمضي من السنين".

وملك بعده ابنه البودشير الملك فتجبر وتكبر، وعمل بالسحر، واحتجب عن العيون، وقد كان أعمامه صابي وأبريت ملوكا على مواضعهم، إلا أنه كان أكبرهم سناً، فلذلك أذعنوا له.

فيقال إنه أرسل إلى هرمس المصري فبعثه الى جبل القمر الذي يخرج النيل من تحته، حتى عمل له هنالك هيكلاً للتماثيل من النحاس، وعمل البطيحة التي ينصب عليها ماء النيل.
ويقال انه هو الذي عدل جنبي النيل، وقد كان يفيض في بعض مواضع وربما انقطع في مواضع، وأمره البودشير أن يسير مغرباً لينظر ماهناك، فوقع إلى أرض واسعة متخرقة بالمياه والعيون كثيرة العشب فبنى بها منائر ومتنزهات واقام بها، وحول البودشير جماعة من أهل بيته، فعمروا تلك النواحي وبنوا فيها حتى صارت أرضاً عامرة كلها، وأقاموا بذلك مدة كبيرة وخالطهم البربر ونكح بعضهم في بعض.
ثم أنهم تحاسدوا وتباغوا وكانت بينهم حروب افنتهم، فحينئذ خرب البلد وباد أهله الا بقية منازل تسمى الواحات.

ويقال إنه عمل في وقته كثيراً من العجائب، فمنهاقبة لها أربعة أركان في كل واحد منها كوة يخرج منها دخان ملتف في ألوان شتى في يوم معلوم في السنة من أول سنتهم.
فاذا خرج الدخان أخضر دل على العمارة والخصب وحسن الزرع وصلاح النبات، وإن خرج الدخان أبيض دل على الجدب وقلة الخيرات، وإن خرج أحمر دل على الدماء و الحروب وقصد الأعداء، وإن كان أسود دل على كثرة الأمطار والسيول وفساد بعض الأرض بذلك، وان كان أصفر دل على النيران وعلى آفات تحدث في الفلك.
وما كان منه يخرج مختلط اللون دل على مظالم الناس وفساد بعضهم لبعض وإهمال ملوكهم الأمور، وأشياء تدل على هذا الضرب؛ وكانت هذه القبة على منارة أقامت زماناً من ملكه ثم هدمها.
ومما عمل له أيضاً بالغرب في الصحراء التي تقرب منه، وكانت الوحوش قد كثرت عليهم وأفسدت زرعهم، وكذلك خنازير الماء، فعمل شجرة من نحاس أقامها في موضع فما وصل اليهامن الوحش لم يستطع الحركة ولا البراح من عندها حتى تؤخذ قبضاً فيقتل، فاتسع الناس في لحوم تلك الوحوش، فوجه بعض الملوك المجاورين لمصر عن احتيال لتلك الشجرة فقلعها واحتملها ليضعها في بلده فيعمل له مثلها، فلما قلعت من موضعها بطل عملها فلم ينتفع بها، لآنهم كانوا يعملون ما يعملونه من ذلك بطالع يأخذونه فلا يزال مستقيماً الى أن يغير مكانه وينقل عنه.
ومما عمل في وقته أن غراباً نقر عين صبي من أولاد الكهنة فقلعها، فعمل أبوه شجرة من نحاس عليها غراب في منقاره حية بادية الطرفين، وهو ناشر الجناحين، وكتب على ظهره كتاباً، فكان الغربان يقعن على تلك الشجرة حتى يمتن أو يؤخذن فيقتلن، فهلك كثير منهاوانتفى الى الشام وغيرها من النواحي.
و لم يزل الأمر كذلك الى أن صار لبعض ملوكهم داء لم يكن له دواء إلا أن يطبخ له غراب فيأكل من

لحمه ويشرب مرقه، فطلب له غراب فلم يكن في وجوده حيلة، فوجه الى ناحية الشام من يأتيه بغراب فأبطأ وزادت علته فاغتاظ، وأمر بترع الشجرة فترعت فرجعت الغربان فأخذ منها الملك ما يعالج به، فلم يعد رسوله من ناحية الشام حتى خرج الملك من علته.

ومما عمل في وقته، وكانت الرمال قد كثرت عليهم من ناحية الغرب حتى ربما طمت زروعهم، فعمل لذلك صنم من صوان أسود على قاعدة منه وفي يده كالقفة فيها مسحاة ونقش على جبهته وصدره وذراعيه وساقيه كتابات، ووجه به إلى المغرب، وجعل هناك فانكشفت تلك الرمال وزحفت بها الرياح إلى ورائها لتلك الآكام العالية في صحراء المغرب، فلم يزل الرمل يندفع عنهم إلى وراء ذلك الصنم حتى صار بحيث لا يؤذيهم منه شيء ولا يضرهم.

فأقام البودشير مدة ثم احتجب عن الناس وكان يتجلى لهم في صورة وجه عظيم يكون ذلك في النادر وربما خاطبهم من حيث لا يرونه وصبروا وهم في طاعته مدة طويلة، إلى أن رآه عديم ابنه وهو يامره بالجلوس مكانه على سريره فجلس فتولى الأمر بعده وجلس على سرير ملكه ابنه عديم الملك، وكان جباراً لا يطاق عظيم الخلق، فأمر بقطع الصخور ونحتها ليبني هرماً كما فعل الأولون.

وكان في وقته الملكان اللذان أهبطا من السماء، ويقال إن عديماً استكثر من علمهما، ثم انتقلا إلى بابل. وأهل مصر والقبط يقولون إن هذين شيطانان يقال لهما مهلة ومهالة، وإن الملكين ببابل في بئر هناك يغشاها كثير من السحرة إلى أن تقوم الساعة.

ومن ذلك الوقت عبدت الأصنام، واتخذت الأوثان، وقال قوم كانت الشياطين تظهر فتنصبها لهم، وقال قوم بل النمرود الأول أمر بنصبها وعبادتها.

وعديم الملك أول من صلب، وذلك أن امرأة زنت برجل من أهل الصناعات وكان لها زوج فأمر بصلبهما، على منابر وجعل ظهر كل واحد منهما إلى ظهر صاحبه، وزبر على المنابر اسميهما وما فعلاه، وتاريخ الوقت الذي عمل ذلك فيه، فانتهى الناس عن الزنا.

وبنى أربع مدائن وأودعها كثيراً من صنوف العجائب والطلسمات وغير ذلك، وكتر فيها كنوزاً كثيرة وعمل على البحر الشرقي مناراً، وأقام على رأسه صنماً موجهاً إلى الشرق، باسط اليدين يمنع جميع دواب البحر والرمال أن تتجاوز حده، وزبر على صدره تاريخ الوقت الذي نصب فيه.

ويقال إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا، ولولا هذا المنار لغلب الماء المالح على ارض مصر من البحر الشرقي.

وعمل قنطرة على النيل في ارض النوبة، ونصب عليها أربعة أصنام موجهة إلى أربع جهات، في يد كل

صنم منها سيف يضرب به إذا أتى آت من تلك الجهة، فأقامت على حالها مدة إلى أن تهدمت.
وهو الذي عمل البربا، وهي هناك إلى اليوم، ويقال انه عمل في إحدى المدائن الأربع التي ذكرنا ها حوضاً من صوان اسود على ماء لا ينقص مدى الدهر، ولا يتغير بما اجتلب اليه من رطوبة الهواء والماء.
وعمل فيه حيلاً عجيبة، وكان أهل تلك الناحية، وأهل تلك المدينة يشربون وينفقون منه، ولا ينقص ماؤه، وعمل ذلك لهم لبعدهم من النيل وقربهم من البحر المالح.
وذكر بعض كهنة مصر أن ذلك إنما تم لقربهم من البحر المالح، لأن الشمس فيما ذكروا يرتفع نحوها بخار البحر وعذوبة ما فيه.
فحبس هو من البخار جزءاً بالهندسة وبالطلسمات السحرية، وجعله ينحط في ذلك الحوض، ويمده الهواء برطوبته فلا ينقص ماؤه على الدهر، ولو شرب منه العالم.
وقد عمل أمام البربا حوضاً لطيفاً مدوراً وجعله على قاعدة وملأه ماء، وحبس عليه جزء من البخار الرطب، فالخلق يشربون منه ولا ينقص وهو هناك إلى هذا الوقت.
وعمل أيضاً قدحاً لطيفاً على مثل العمد، وأهداه حويل الملك إلى الاسكندر اليوناني، وملكهم مائة سنة وأربعين سنة، ومات وهو ابن تسعمائة سنة وثلاثين سنة.
وقيل إنه دفن في إحدى المدن ذوات العجائب في أزج من رخام ملون مبطن بزجاج أصفر، وطلي جسمه بما يمسكه، وجعل حوله كثير من ذخائره، وذلك في وسط المدينة وهي محروسة بمن يمنع منهامن الروحانيين.
وذكر بعض أهل القبط أن ناووس عديم عمل له في صحراء قفط على وجه الأرض، وهو قبة عظيمة من زجاج أخضر براق معقود على ثمانية آزاج من صنفها، وعلى رأسها كرة من ذهب عليهاطائر من ذهب ناشر الجناحين موشح بجواهر تمنع من الدخول، وفي قطرهامائة ذراع في مثلها.
وجعل جسده في وسطها على سرير من ذهب مشبك بجوهر عقيق، وعليه ثياب منسوجة بالذهب مكشوف الوجه. والآزاج مفتوحة، طول كل ازج منها ثمانية أذرع، وارتفاع القبة أربعون ذراعاً، يلقي نورها على ما حولها من الأرض، لصفاء لونها وبريقها، وجعل معه في القبة مائة وسبعون مصحفاً من مصاحف الحكمة، وسبع موائد عليها أوانيها منها.
ومنها مائدة من ذهب عليمون أحمر يخطف الأبصار، وهو الذي يعمل منه تيجان الملوك وأوانيها منها، ومائدة من حجر الشمس المضيء وأوانيها منها، ومائدة من الزبرجد الأخضر الذي يخطف لونه البصر وله شعاع أصفر، وهو الذي إذا نظرت إليه الأفاعي سالت عيونها وآنيتها منها، ومنها مائدة من كبريت أحمر مدبر على ماذكروه من تدبيرهم في مصاحف كتبهم وأوانيها منها، ومنها مائدة من ملح أبيض براق

صاف يكاد لونها يعشي البصر وأوانيها منها، ومنها مائدة من زئبق معقود حافتاها وقوائمها زئبق اصفر معقود، وأوانيها عليها من زئبق أحمر معقود، وجعل معه في القبة جواهر كثيرة وبراني بلور مملوءة بغرائب مدبرة وجعل حوله سبعة أسياف صاعقية وكاهنية، وأتراس حديد مدبر أبيض، وجعل معه تماثيل افراس سبعة من ذهب عليها اللجم، وسروج من ذهب، وسبعة توابيت من صوان أسود مملوءة من الدنانير التي كان ضربها، وصور عليها صورته، وجعل معه من أصناف العقيق والسموم والأدوية المدبرة في أواني الحنتم والحجارة على ضروبها شيء كثير.

وقد ذكر من رأى القبة أنه مشى اليها مع جماعة وأقاموا عليها أياماً، فما قدروا على دخولها، وأنهم إذا وصلوا اليها على ثمانية أذرع دارت القبة عن أيمانهم من شمائلهم، وقد رأوا ما فيها، ومتى دنوا منها دارت إلى جانب آخر.

ومن عجائب شأنها أنهم كانوا يحاذونها من كل أزج، ويتأملونها أزجاً أزجاً، فلا يرون من أزج إلا ما يرون من أزج آخر على شكل واحد، ومعنى واحد. وذكروا انهم راوا وجهه على قدر الذراع والنصف، ولحيته كبيرة مكشوفة، وقد رأوا بدنه بطول عشرة أذرع وزيادة، وذكروا أنهم رأوا فيها عجائب كثيرة وصنوفاً من الوحش لم ير مثلها.

وفي كتاب القبط أنه لا يوصل اليها إلا ان يذبح لها ديك أبيض أفرق، ويبخر بريشه على بعد، وترسل البخور مع الريح على بعد حتى يصل اليها، ويكون بالكواكب النيرة على ما كانت عليه وقت نصبها، ويكون زحل والمشتري والمريخ في برج واحد والزهرة وعطارد في برج، ويتكلم عليها بصلاة الكهنة سبع مرات، فاذا وصل اليها لطخ حائطها بدم الديك الذي ذبح ويأخذ عند دخولها من المال والتماثيل ما استحسن ولا يكثر فيها من الجلوس.

وذكر ان هؤلاء الذين رأوها لم يكونوا من أهل الناحية، وإنما خرجوا يطلبون غيرها، وأنهم سألوا أهل قفط عنها، فما وجدوا أحداً يعرفها ولا رآها غير شيخ منهم.

فانه ذكر أن ابنا له خرج في بعض الامور، ومعه جمل، وأنه رآها و لم يصل اليها فبحث عن أمرها، فعرف أن قوما من أهل المشرق جاءوا في طلب هذه القبة وأنهم أقاموا بقفط أياما وخرجوا يريدونا، فما رجع منهم أحد ولا عرف لهم خبر.

وكان عديم الملك قد أوصى ابنه قبل موته أن يطوف ماشيا على أعمال بلاده، وأن ينصب في كل جزء من أجزاء عمومته منارا، ويزبر عليه اسمه ويعمل له علامات وملاعب.

وعمل في صحرائها منارا، وعمل عليه صنما ذا رأسين مقترنين، وسار الى جزء إبريت فبنى به قبة على

عمد وعلى أساطين بعضها فوق بعض وجعل على أعلاها صنما صغيراً من ذهب.

وعمل هيكلا للكواكب، وكان أبوه البودشير أول من أقام للكواكب هيكلا، فتبعه ابنه على ذلك ومضى الى جزء صابي فعمل به منارة علىرأسها امرأة من أخلاط ترى الناظر اليها جميع الاقاليم.

ثم رجع الى أبيه فولاه الملك بعده وعهد اليه بما أراد ووصاه، ثم مات أبوه فلما أودعه الناووس، وفرغ منه جلس على سرير الملك شدات الملك، وهو الذي بنى الاعلام بالدهشور بالاحجار التي قطعت في زمان ابيه.

وقال الذين ينكرون أن العادية دخلت مصر انما غلط الناس في اسم شدات فقالوا شداد بن عاد لكثرة ما يجري على ألسنتهم شداد وقلة مايجري شدات.

وما قدر أحد قط من الملوك أن يدخل مصر الا عبد لبخت نصر بما قدمه من الحيل في افساد طلسماتها.

وشدات الملك هو الذي عمل مصاحف الزيجات التي يذكر فيهاالملوك، ويقال انه وجد في بعض رموزهم ومصاحف كهانهم أن الملك بودشير بن قفطويم لما أجهد نفسه في عبادة الأنوار العلوية، وعرف أن روحانياتها قد صارت فيه حبب اليها نفسه، وجوعها واستغنى جسده عن الطعام والشراب، فلما أدمن ذلك اشتاقته الأنوار العلوية واشتاقها، فرفعته إلى مواضعها، وبرأته من شرور الأرض المؤلمة، وجعلته نورا سابحا داخلا في نورها، يتصرف بتصرفها، فطوبى له من كاهن عرفت له كهانته، وأكرم بها وصير ملكا، فسبيل من بعده أن يبلغ خطته ويجعل بمثابته.

وهذا الكلام وشبيهه تضليل للناس لانهم كانوا يتعبدون للكواكب، فيقولون مثل هذا ترغيبا في دينهم.

وقد قالوا أيضاً انهم على توحيد الله وان مدحهم لهذه الوسائط المدبرات لا يضر خالقها، وانهم يعظمونها تقربا اليه، كما قالت الهند والعرب وكثير من الامم.

وعمل شدات هيكل أرمنت وأقام فيه أصناما للكواكب من ذهب وفضة وحديد ابيض ورصاص مصفى وزئبق معقود، وهذه الاجساد المعدنية في طباع الكواكب وقسمتها.

فلما فرغ منه زين بأحسن الزينة، ونقش باحسن النقوش، وأمر فزين بالجواهو الملونة، والزجاج الملون، وكسي بالوشي والديباج، ولم يترك شيئاً من الغريب الا عمله فيه، وكذلك عمل في المدن الداخلة من جزء صابي هيكلا مثله، والقبة التي عملها بجزء ابريت، وعمل هيكلا بشرق الاسكندرية، وعمل لزحل صنما من صوان اسود على عبر النيل من الجانب الغربي.

وبنى شدات في الجانب الشرقي مدائن، وجعل في احداهما صورة صنم قائم له احليل ظاهر اذا اتاه المعقود والمسحور والعنين الذي لا ينتشر احليله بكلتا يديه زال عنه ذلك وانتشر وقوي على المياه.

وعمل في احداها بقرة لها ضرعان كبيران اذا مسحتهما المرأة التي نقص لبنها وتعقد ضرعها در وصلح.

وفي أيامه بنيت العالية، بناها لابن له كان سخط على أمه فحولهااليها، وأسكنها قوما من أهل الحكمة ومن أهل الصناعات.
وقيل ان سفط بنيت في أيامه والصورتين اللتين بها الملتصقتان للمهل، وكانت الحبشة والسودان عاثوا في بعض بلده فأخرج ابنه منقاوس في جيش عظيم اليهم فقتل منهم وسبا، وكل من سباه استعبده فصار ذلك سنة فيهم.

واقتطع معدن الذهب، وأقام فيه من سباه منهم يعملون الذهب ويحملونه اليه، وألزم المقام معهم من يحرسهم من جيشه.
وهو أول من احب الصيد واتخذ الجوارح وولد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الأهلية وعمل البيطرة وجميع ما يعالج به الدواب، وعمل من العجائب والطلاسم لكل شيء ما لا يحصى كثرة.
وجمع التماسيح في بركة في ناحية اسيوط بطلسم لها، وكانت تنصب اليها من النيل انصبابا فيقتلها، ويستعمل جميع جلودها في السفن وغيرها، ويدخل لحومها وشحومها في الاغذية ومؤلفات العقاقير.
والقبط تحكي انه عمل بمصر اثنتي عشرة اعجوبة وطلسما، ولم يعمل في بلد ما عمل فيها ولا تهيأ ذلك له، وقد بقيت آثار أكثرهاقائمة بعد خرابها وأفساد معالمها واقام شدات بن عديم تسعين سنة ملكا، وخرج فطرد صيدا فاكب به فرسه في هوة فقتله.
وفي بعض كتبهم أنه أخذ بعض خدمه، وقد خالفه في امر من الامور فألقاه من اعلى الجبل الى اسفله فتقطع ثم ندم على ذلك من فعله، ورأى انه سيصيبه مثل ذلك، وكان يتوقى ان يصعد جبلا، وأوصى ان اصابه شيء ان يجعل ناووسه في الموضع الذي يلحقه فيه ما يلحقه، وان يزبر عليه" ليس ينبغي لذي القدرة ان يخرج عن الواجب، وأن لايفعل ما لايجوز له فعله، وهذا ناووس شدات بن عديم بن قفطويم الملك، عمل ما لايحل فكوفيء عليه".
ولما هلك عمل سرب في سفح الجبل عليه قبة على مجلس قد صفح بالفضة واجلس فيه على سرير ملكه، وجعل معه من المال والجوهر والتماثيل واصناف الحكم والمصاحف شيء كثير، ومات وله أربعمائة واربعون سنة.
وولي الأمر من بعده ابنه منقاوس الملك فقام مقام أبيه، وملك بحزم وحكمة فاظهر مصاحف الحكمة، وأمر بالنظر فيهاوان تنسخ بخط العامة ليفهموها، ورد الكهنة الى مراتبهم.
وهوأول من عمل الحمام من ملوك مصر وكان كثير النكاح، وتزوج عدة نسوة من بنات عمه ومن بنات الكهنة، وجعل لكل امرأة منهن مكانا قد أصلحه بالبنيان العجيب والصور المونقة والفرش الحسنة،

والآلات العجيبة، وأسكنهن فيها.

وقال بعض أهل الأثر إنه هوالذي بنى منف لبناته، وكن ثلاثين بنتاً ورحلهن إليها، وعمل مدنا غيرها ومصانع، وبنى هيكلاً لصور الكواكب واصنامها على ثمانية فراسخ من منف، وعمل بتلك الناحية طلسمات كثيرة وغرائب أغرب فيها بفضل حكمته على أبيه وجده، وعمل للسنة اثني عشر عيداً يعمل في كل عيد من الأعمال ما كان موافقاً لبرج الشهر، وكان يعظم الناس في تلك الأعياد ويوسع عليهم في أحوالهم وأرزاقهم، ورأوا معه من الخير ما لم يروه مع غيره، وفتح عليه من المعادن ما لم يفتح على أحد قبله.

وألزم أصحاب الكيمياء العمل، فكانوا لا يفترون ليلا ولانهاراً، فاجتمعت عنده أموال عظيمة وجوهر كثيروزجاج مسبوك من الأدرك وغيره، فأحب كترها، فدعا أخا له كان يكرمه ويحبه فقال له قد كثر ما عملناه من التماثيل، وعظم ما ادخرناه من الذهب والجواهر، ولست آمن أن يتسامع الملوك بكثرة ذلك، فيتألفوا على غزونا فخذ ذلك كله، وتوجه به فأمعن في أرض الغرب، ثم انظر مكاناً حريزاً خفي الأثر فأحرزه فيه. وأسس عليه وعلمه بعلامات واكتب صفة المكان وعلاماته ومن أين الطريق اليه، وعد إلى إن شاء الله تعالى.

فيقول أهل الأثر انه حمل مع نفسه إثنا عشر ألف عجلة، منهامن الجواهر النفيسة ثلاثمائة، وسائرها ذهب إبريز، وصفائح مضروبة، وطرائف الملوك من آلاتهم وسلاحهم وأوانيهم، وسار في الجنوب يوماً واحداً، ثم سار في الغرب يوماً كاملاً وبعض آخر، فانتهى في اليوم الثالث إلى جبل أسود منيع ليس له مصعد بين جبال مستديرة به، فعمل تحت ذلك الجبل أسراباً ومغاير فدفن فيها ما كان معه، وردم عليه كما أمره أخوه، وعلم وزبروأتقن ذلك جهده، ورجع إلى أخيه فأعلمه.

فمكث بعد ذلك أربع سنين يبعث في كل سنة عجلاً كثيراً فيدفن فيها في أكواخ شتى، وهوالذي عمل بيتاً فيه تماثيل تنفع من جميع العلل، وكتب على رأس كل هيكل تمثال ما يعالج به، فانتفع الناس بها زمانا إلى أن أفسدها بعض الملوك بالحكمة.

وفي هذه المدينة صورة امرأة من حجر مبتسمة لا يراها مهموم إلا تبسم ونسي همه، وكان الناس يتناوبونها، ويطوفون حولها، ثم عبدوها من بعد.

وعمل تمثالاً طائراً روحانياً من ظفر مذهب كأنه يشير بجناحيه، ووضعه على اسطوانة في وسط المدينة، وكان لا يمر به زان ولا زانية إلا كشف عورته بحضرته، وكان الناس يمتحنون به فامتنع الناس من الزنا فرقاً منه، فاقاموا كذلك إلى زمان فاكن الملك ففسد امره وبطله.

وذلك أن امرأة من نسائه وكانت حظية عنده عشقت رجلاً من خدام الملك وخافت أن يرقى ذلك الى الملك فيمتحنها من ذلك الصنم فتفتضح فيقتلها، فأقامت مفكرة في الحيلة في ذلك، إلى أن خلا بها في بعض الليالي وهما يشربان فأخذت في ذكر الزواني وسبهن وذمهن، فذكر الملك ذلك الصنم، وما فيه من المنافع للناس وما يستحق من فعله من الثناء والذكر الحسن، فقالت له إنه لكذلك وقد صدق الملك غير أن منقاوس لم يصب الرأي في أمره فقال: وكيف؟ قالت:لأنه أتعب نفسه وحكماءه فيما جعله لصلاح أمر العامة دون أمر نفسه، وهذا أكبر العجز، وإنما كان حكم هذا التمثال أن ينصب في دار الملك حيث يكون نساؤه وجواريه فان اقترفت إحداهن ذنباً علم الملك به وجازى عليه في ستر، و لم تعلم العامة شيئاً منه، فيكون ردعاً لمن في قصره عما تهم به مغتلمة، وقد غلبتها شهوتها مرة ربما في عمرها لأن شهوات النساء أكثر من شهوات الرجال، وأغلب لنقصان عقولهن عن عقول الرجال، وأما الآن فلو حدث شيء من ذلك في قصر الملك، وأعوذ بالنور الأعلى منه، وأحب امتحانه فضح نفسه، وشاع في العامة والخاصة امره، فان عاقب بغير امتحان كان متعدياً، وإن صبر صبر على المكروه.قال الملك صدقت فيما قلت وأنزل قولها على النصيحة والصدق، وعلم أنها لم تشر بذلك إلا لأمر وقفت عليه، و لم ترد كشفه، فلما أصبح نزع الصنم من موضعه ووضعه في قصره في مكان أعد له بلا مهلة ولا مشاروة حكيم ولا عالم، فلما نصب في القصر امتحن مراراً فلم يصنع شيئاً عند الامتحان.

وندم الملك على تحريكه وأقبلت جارية الملك على ما كانت همت به من الفجور وانهمكت فيه.

وهذه الأعمال إنما تعمل بعد رصد الكواكب واختبارات أماكنها في الواجب من أوقات المعمول له ذلك.

وقد ذكر أهل اخيم أن رجلاً من أهل المشرق، وكان يلزم البربا ويأتي اليه كل يوم ببخور وخلوق فيبخر ويطيب صورة كانت في عضادة باب البربا فيجد تحتها عند رجليها ديناراً فيأخذه وينصرف، ففعل ذلك وأقام عليه مدة طويلة، حتى وشى به غلام إلى عامل البلد، فقبض عليه فبذل له الرجل مالاً، وخرج عن البلد.

ويقال إن منقاوس بنى هيكلا للسحرة على جبل القمر، وقدم عليه رجلاً منهم يقال له مستهمس، وكانوالا يطلقون الريح للمراكب المقلعة إلا بغرامة يأخذونهامنهم، وكان الملك إذا ركب عملوا بين يديه التماثيل الهائلة فيجتمع الناس ويتعجبون من أعمالهم وأمر أن يبنى له هيكل للعبادة يكون له خصوصاً، ويجعل فيه صورة الشمس والكواكب، وجعل حوله أصناماً وعجائباً، فكان الملك يركب اليه ويقيم فيه سبعة أيام وينصرف، وجعل فيه عمودين، وزبر عليهما تاريخ الوقت الذي عملا فيه وهما باقيان إلى اليوم، وموضع ذلك يقال له عين شمس.

ونقل منقاوس إلى عين شمس كنوزاً وجواهر وطلسمات وعقاقير ودفنها بنواحيها.

وكان قد قسم خراج البلد أرباعاً، فربع منها للملك خاصة ينفقه فيما يشاء ويفعل به ما يريد، وربع لأرزاق الجند، وربع ينفقه في مصالح الأرض، وما يحتاج اليه من عمل جسورها وحفر خلجانها وأجبر أهلها على العمارة، وربع يدفن لحدث يحدث.

وكان خراج البلد يومئذ مائة الف ألف وثلاثة آلاف ألف وقسمتها على ثلاثمائة كورة وثلاث كور.

وهي اليوم خمسة وثمانون كورة، أسفل الأرض خمسة وأربعون كورة، والصعيد أربعون كورة.

وكان في كل كورة كاهن يدير أمرها، وصاحب حرب، وأقام ملكاً إحدى وسبعين سنة، ومات من طاعون أصابه، وقيل إنه سم في طعامه، وعمل له ناووس في صحراء القبط، وقيل في غربي قوص، ودفن معه من المصاحف وأكاسير الصنعة المعمولة وتماثيل الذهب والجوهر، ومن الذهب المضروب شيء كثير.

وقد كانت ماتت له قبل موته جارية كانت أحظى نسائه عنده، وكان يحبها حباً شديداً، فأمر بعمل صورتها في جميع الهياكل، وعمل له تمثالها بذؤابتين من ذهب اسود، وألبسه حلة من جوهر منظوم، وجعلت جالسة على كرسي من ذهب، وكانت تحمل بين يدية في كل موضع يجلس فيه ليتسلى بذلك عنها، فدفنت تلك الصورة عند رجليه، كأنما يخاطبها.

ولما فرغ من أمره جلس ابنه مناوس الملك بعد أبيه على سرير الملك فطلب الحكمة بعد، مثل أبيه وأكرم أهلها، وبذل الجوائز على الغرائب التي لم يتقدم عملها لمن تقدم قبله، وأثبت كل ما عمل من ذلك في كتب تواريخهم، وزبر على الحجارة في هياكلهم.

ومناوس أول من عبد البقر، وكان السبب في ذلك انه اعتل علة فيئس فيها من نفسه، وأنه رأى في منامه روحانياً عظيماً يخاطبه ويقول له: لايخرجك من علتك إلا عبادتك البقر، لان الطالع كان وقت حلولها، فلك الثور، وهو في صورة ثور بقرنين فأمر عند انتباهه، فأخذوا ثوراً أبلق حسن الصورة، وعمل له مجلساً في قصره وسقفه قبة مذهبة، وكان يبخره ويطيبه ويحسن علفه، ووكل به سايساً من خدمه يقوم به وينظفه ويكنس تحته، وكان يتعبد له سراً من أهل مملكته فبرىء من علته وعاد الى أحسن أحواله.

وقيل إنه أول من عملت له عجل مموهة بالذهب، وعليها قباب من خشب مذهب، وكانت تفرش بأحسن الفرش وتساق الى موضع المتنزهات، وقيل إنه عملت له في علته لانه كان لايقدر على الركوب، وكانت البقر تجره في العجلة فكان إذا مر بمكان نزه أقام به، وان مر بمكان خرب أمر بعمارته وقيل انه نظر يوماً الى ثور من البقر التي تجره أبلق حسن الخلقة والقرنين، فأمر بتوقيفه والتعريض منه، وساقه بين يديه الى موضع نزهته إعجاباًبه، وجعل عليه حللا من حرير منسوج بالذهب، فلما كان في بعض الايام خلا في موضع، وقد تفرد عن عبيده سار اليه وسجد بين يديه.

فقال له: لو دام الملك على تربيتي واكرامي، وتعبد لي كفيته مهمه على ما يريده، وقويته في جميع أموره وأزلت عنه جميع علله.

فارتاع الملك لقوله، وأمر بأن يغسل ويطيب ويكسى بالحرير المذهب ويوقف في الهيكل، ووكل به من يخدمه في جميع أموره ويتعاهده بالمسح والتطييب وأمره بعبادته.

وأقام ذلك الثور يعبد مدة طويلة، وافتتن الناس به، وصار ذلك اصلا لعبادة البقر، وبنى مواضع كثيرة في الصحراء والجبال وكترفيها كنوزاً كثيرة وأقام عليها أعلاماً.

وبنى في صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس، وأقام بها مناراً وكنز حولها كنوزاً، ويقال ان هذه المدينة قائمة الى الآن، وان قوماً جازوا بها من ناحية الغرب فسمعوا فيها عزف الجن ورأوا نيرانهم.

وفي بعض كتبهم أن ذلك الثور بعد مدة من عبادتهم له، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب ويعملوه أجوف ويؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه، ويؤخذ من نحاتة قرنه وأظلافه ويجعل في ذلك التمثال، وعرفهم أنه يلحق بعالمه، وأن يجعلوا جسده في جرن من حجارة، وينصب في الهيكل وينصب تمثاله عليه، وزحل في شرفه والشمس ناظرة اليه من تثليث، وأن ينقش في التمثال، علامات صورة الكواكب السبعة ففعلوا ذلك.

وعملت الصورة من ذهب وكللت بأنواع الجوهر، وأدخلت صنعتها سواد في بياض، وجعل جسد الثور في الحدود التي حدها، ونصب عليه التمثال فكان يخبرهم بالعجائب وبما يحدث وقتاً بعد وقت ويجيبهم بكل ما يسالونه عنه.

وعظم أمر ذلك التمثال ونذرت له النذور وقربت له القرابين، وقصده الناس من جميع أعمال مصر وما قرب منها، فكان يخبرهم بما يريدون.

وأقام مناوس ملكاً خمساً وثلاثين سنة، وهلك من سل أصابه، وعمل له ناووس تحت الجبل الغربي وجعل في جرن من حجارة.وجعل وصيه من بعده ابنه مريدس الملك، فجلس على سرير ملكه بعد أبيه وملك احدى وعشرين سنة، وكان مضعفاً فلم يبن بنياناً ولاينصب مناراً، ولاعملت في وقته أعجوبة، فمات ودفن مع أبيه في جرن من رصاص.وولي بعده اشمون الملك، واشمون أخو قبطيم الملك وكان وحده من اشمون الى منف، وفي الشرق الى البحر المالح الى ما حاذى برقة الحمراء، وهي آخر حد مصر، وفي الصعيد الى حدود اخميم.

وكان يترل اشمون لانه سماها باسمه عند بنيانها، ونقل اليها أهله وولده وطولها اثنا عشر ميلاُ في مثلها.

وأشمون أول من أتخذ الملاعب بالكرة والصولجان وغير ذلك، وبنى القصور وغرس الأجنة وأقام المنائرونصب الأعلام وبنى المدن وأكثر فيها من العجائب.

والقبط تزعم ان خبر اشمون كان اكثر الأخبار ذكراً وعجائباً وسحراً.منها أنه بنى مدينة في سفح الجبل سماها أفطراطس وجعل لها أربعة أبواب جعل على الشرقي صورة عقاب، وعلى الغربي صورة ثور، وعلى الجنوبي صورة كلب، وعلى الشمالي صورة أسد.

وأسكن الكهنة بسحرهم في تلك الصور روحانية، وكانت تنطق إذا قصدها القاصد الغريب، ولا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها، وجعل فيها شجرة تثمر كل لون من الفاكهة.
وجعل فيها مناراً طوله ثمانون ذراعاً، على رأسه قبة تتلون كل يوم لونا حتى تمضي سبعة أيام بسبعة ألوان، ثم تعود إلى اللون الأول.
وكانت تلك الألوان تكسو المدينة لوناً شعاعياً، وأجرى حول ذلك المنار ماء ساقه من النيل وجعل في ذلك الماء سمكا من كل لون.
وجعل حول المدينة طلسمات رءوسها رءوس القرود وأبدانها أبدان الناس، كل منها لدفع مضرة واجتلاب منفعة.
ودفن تحت كل صنم من الأصنام المبنية الأربعة على أبوابها صنفاً من الكنوز ولكل واحد منها قربان وبخور، وكلام يوصل به اليه، وأسكن فيها السحرة.
وبنى بالقرب منها مدينة تعرف في كتبهم ذات العجائب في وسطها قبة عليها أبداً مثل السحابة تمطر مطراً خفيفاً شتاء وصيفاً، وتحت كل قبة مطهرة فيها ماء أخضر يتداوى به من كل داء فيبريه.
وفي شرقها بربا لطيف له أربعة أبواب لكل باب منها عضادتان، في كل عضادة منهاصورة وجه كأنه يخاطب صاحبه، وهو يكلمه بكلام يفهمه، ويخبره بما حدث في يومه.
ومن دخل ذلك البربا على غير طهارة نفخا عليه فأصابته فظيعة لا تفارقه أبداً إلى أن يموت.
ويقال ان في وسطهاابدا مهبط نور كأنه عمود من اعتنقه لم يغرب عن نظره شيء من الروحانيات، وسمع كلامهم ورأى ما يعملون.
وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب في يده كالمصحف فيه علم من العلوم، فمن أحب ذلك العلم أتى تلك الصورة فمسحها بيده وأمرها على صدره فيثبت ذلك العلم في صدره.
ويقال ان هاتين المدينتين سميتا على اسم هرمس وهو عطارد وأنهما إلى الآن على حالهما.
وحكي عن رجل أتى عبد العزيز بن مروان وهو والي مصر، فعرفه انه رأى في صحراء الغرب وقد أوغل في طلب جمل له ضل، فوقع إلى مدينة خراب وانه وجد منها شجرة عظيمة تحمل من كل صنف من الفاكهة، وانه قد أكل منها وتزود، فقال له رجل من القبط هذه إحدى مدن هرمس وفيها كنوز كثيرة،

فوجه عبد العزيز جماعة من ثقاته، ووجهه معهم، وتزودوا زاد شهر ومشوا يطوفون تلك الصحارى زمانا، فما وجدوا لها أثراً.

وكان أشمون أعدل ولد أبيه وأرغبهم في صنيعه، وأحبهم في عمل يبقي ذكره وهو الذي بنى المجالس المصفحة بالزجاج الملون في وسط النيل.

وتقول القبط إنه بنى سرباً تحت الأرض من اشمون الى انصباب النيل، وقيل إنه عمله لنسائه لأنهن كن يمضين إلى هيكل الشمس، وكان هذا السرب مبلط الأرض، والحيطان بالزجاج الملون العجيب.

وقيل إن أشمون كان اطول إخوته ملكا، وقال أهل الأثر إن ملكه ثمانمائة سنة، وإن قوم عاد انتزعوا الملك منه بعد ستمائة سنة من ملكه، وأقاموا تسعين سنة ثم كرهوا البلد واستوبؤوه فرحلوا عنه إلى الراهبة من طريق الحجاز إلى وادي القرى، فعمروها واتخذوا المنازل والمصانع والقرى، وسلط الله عليهم القر فاهلكهم.

وعاد ملك مصر إلى أشمون بعد خروجهم من البلد، ويقال إنه عمل في وقته وزة من نحاس، وكان الغريب إذا جاء ليدخل صاحت الوزة وصفقت بجناحيها فيعلم به أهل البلد، فان أحبوا أدخلوه، وأن أحبوا تركوه.

وكثرت الحيات في وقته فاحتال لها بحيلة كانوا يأخذونها بأيديهم، ويعملون من شحومها ولحومها أدوية ودرياقات.

وهو أول من عمل النيروز بمصر، يقيمون سبعة أيام يأكلون ويشربون إكراماً للكواكب بزعمهم.

وفي زمانه بنيت البهنسا، وأقام بها مطراناً، وجعل فوقها مجلساً من زجاج أصفر وعليه قبة مذهبة، وكانت الشمس إذا طلعت ألقت شعاعها على المدينة.

ويقال إنه ملكهم ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، ومات ودفن في احدى الاهرامات الصغار القبلية وقيل بل عمل له طاووس في آخر أشمون ودفن معه مال كثير وعجائب كثيرة ومن الذخائر مالا يحصى كثرة، ودفنت معه أصنام الكواكب السبعة التي كانت في هيكله، وعشرة آلاف سرج من ذهب وفضة وعشرة آلاف جا ونضار من ذهب وفضة، وزجاج مسبوك وألف برنية من العقاقير المدبرة لقبول الأعمال، وزبر على ذلك كله اسمه ومدة ملكه.

وخلف على الملك ابنه الشاد الملك، فولي وهو غلام، ابن خمس وأربعين سنة وكان متجبراً معجباً طماح العين، فابتز امرأة من نساء أبيه، فانكشف أمره وعرف خبره، وكان أكبر همه اللهو واللعب، فاجتمع اليه كل مله كان في ملكه وقصده كل من كان في يده شيء من أنواع الملاهي والملاعب، وانفرد للعب بهم

وترك النظر في أمور الناس.
وعمل قصوراً من خشب عليها قباب منقوشة مموهة بالذهب، وكان يحملها على المراكب في النيل ويتنزه فيها مع من يحب من نسائه وخدمه ومن يلهيه.
وعمل عليه الأروقة المذهبة وفرشها بأحسن الفرش وفاخره، وكان يتنزه عليها وتجرها البقر، ويقيم في نزهته شهوراً لا يمر بموضع إلا أقام فيه، وولد من السحر توليداً كثيراً واستنفذ أكثرها في خزائن أبيه، وذهب خراجه في جرائد الملهين والنفقات في غير وجوهها، فلما اسرف في ذلك اجتمع الناس إلى وزيره فانكروا حاله عنده، وسألوه مساءلته والاشارة عليه بالاقلاع عما هو عليه، فضمن لهم ذلك، ثم فاوضه فيه وبين له ما يجب تبينه وحذره من العواقب اللاحقة من التفريط بما يكره فلم ينته، وسلط أصحابه على الناس فأساءوا إليهم وأضروا بهم.
وخرج الملك ذات يوم إلى متنزه له قد صفح مجالسه بصفائح الذهب والفضة وغرائب الجوهر الملون، وأجرى اليه المياه وغرس فيه نفيس الرياحين، وفرشه بأصناف الفرش الملونة.
وكان إذا أحب ان يخلو بامرأة من نسائه خلى بها هناك، وأنه في ذلك المتنزه، وقد أقام فيه أياماً إذ خرج غلام من بعض خدمه، فأتى بعض التجار في حاجة له، وكانت له خادم فأراد أخذها منه بغير ثمن فمنعه منها فوثب عليه يريد ضربه، فاجتمعوا عليه وضربوه حتى أسالوا دمه وحمل وقيد.
واتصل خبره بالوزير وصاحب الجيش فركبا إلى الموضع وانكرا على الناس ما فعلوه وأسمعاهم فأغلظوا لهما وأسمعوهما، فانصرفا مغضبين وقالا ما نرى ستر هذا عن الملك وعرفاه الخبر، فلم يحفل بهما وأمر بالنداء في الناس من تعرضكم من خدم الملك وأصحابه، فاقتلوه، فحمد الناس أمره وشكروا فعله وتواصلوا بالوثوب على أصحابه، حتى إذا مضى لذلك اسبوع وجه إلى وزيره وصاحب جيشه أنه عزم أن يركب إلى صحراء الغرب يتصيد هناك، وأمر أن يركب معه جيشه، وأن يتزودوا لثلاثة ايام ففعلوا، واجتمعوا إلى بابه فاستدعى الوزير، وأسر اليه انه يريد الانتقام من العامة، وخرج الملك وجيشه في أحسن زي وهيئة وسار إلى موضع غير بعيد.
فلما اختلط الظلام رجع بالجيش حتى وافى باب المدينة، وأمر أصحابه أن يضعوا أيديهم في الناس فقتلوا خلقاً كثيراً، وأمر بحرق الموضع الذي قتل فيه الغلام.
ثم أمر ان ينادى: هذا جزاء من أقدم على الملك من رعاياه وأصحاب مهنتهم من العامة وغيرهم، فاستغاث الناس، فأسر إلى وزيره ان يطرح نفسه بين يديه ويسأله فيهم ففعل فامنهم، وقال لهم، من عاد منكم فقد أحل دمه فشكروا فعله وانصرفوا ورجع إلى ما كان عليه وأعظم.
واحتجب عن الناس واستحلت الهياكل والكهنة فأبغضه العامة والخاصة وابتغوا له الغوائل، فاحتال عليه

خاصته بطباخه وسقاته فسماه، فمات وهو ابن مائة وعشرين سنة، فكان ملكه خمساً وسبعين سنة.
وصار الملك بعده إلى ابنه صاصا، وأكثر القبط تزعم ان صاصا هذا اخو الشاد وانه ابن مربيس الملك.
ولما جلس صاصا على سرير الملك دخل الناس عليه يهنئونه، فوعدهم العدل فيهم وحسن النظر لهم، وسكن منف ونفى الملهين وأهل المحالات وأهل الشر ومن كان يصحب أباه.
وأصلح الهياكل ورد الكهنة إلى مراتبهم، وعمل بمنف عجائب كثيرة وطلسمات، وأجرى فيها الأنهار، ونصب العقاب الذي كان عمل قبله على موضعه وشرف هيكله ودعى اليه.
وعمل بمنف مرآة يعرف بها زمان الخصب والجدب وما يحدث ببلده، وبنى داخل الواحات مدائن، وغرس فيها نخلا كثيراً، ونصب غرب البحر أعلاماً كثيرة، وعمل خلف المقطم صنماً يقال له صنم الحيلة، فكان كل من أعجزه امر أتاه يسأله، فيخبره ويبين له ما عزب عن معرفة منه. وجعل على أطراف مصر أصحاباً يرفعون له ما يجري في حدود أرضه، وعمل على غربي النيل منابرإذا قصدهم قاصد يوقد عليها فيصل اليه الخبر من ليله أو من يومه، وجعل على البحر المالح مثل ذلك، ووكل بجمعها جماعة يحرسونها.
وهو أول من اتخذها، ويقال إنه بنى أكثر منف، وكان له بنيان عظيم بالاسكندرية.

ولما ملك واستولى على البلد بأسره، جمع اليه حكماء أهل بلده ونظر في النجوم وكان بها حاذقاً، ورأى أن بلده لا بد له من أن يدخل اليه طوفان عظيم من نيلها فيكاد يغرقها، ورأى أنه يحدث على يدي رجل يأتي من ناحية الشام.
فجمع كل فاعل بمصر وجهاها وبنى في ألواح الأقصى مدينة، جعل طول حصنها في الارتفاع خمسين ذراعاً، وأودعها جميع الحكم والأموال، وهي المدينة التي وقع عليها موسى بن نصير في زمن بني أمية لما قلد المغرب، لأنه لمادخل مصر، أخذ على الواح الأقصى بالنجوم وكان عنده علم منها.
فأقام سبعة أيام يسير في رمال بين سمت الغرب والجنوب، إلى ان ظهرت له مدينة فيها حصن وأبواب حديد، فرام أن يفتح باباُ من أبوابها، فأعياه ذلك لغلبة الرمل عليها، وعلى ما حولها، فأصعد اليها الناس، فكل من صعد منهم وأشرف، وثب داخلها لايعلم كيف يقع، ولا على ما يسقط، ولا مايصيب.
ولما لم يجد فيها حيلة تركها ومضى، وقد فقد فيها جماعة من أصحابه، وحرروا عرض حصنها عشرين ذراعاً، وهلك في طريقه منصرفاً عنهاجماعة من أصحابه، و لم يسمع أن أحداً قبل موسى بن نصير، ولا بعده وقع عليها.
وفي تلك الصحارى اكثر متنزهاتهم ومدائنهم العجيبة وكنوزهم العظيمة، إلا أن الرمال غلبت عليها.و لم يكن لمصر ملك، الا وقد عمل للرمل طلسما يبعدها ويوقفها، ثم تفسد طلسماتها على تقادم الأيام.ولا

ينبغي لأحد أن ينكر كثرة بنيانهم ومدائنهم. وما نصبوه من الأعلام العظام.
فقد كان للقوم بطش لم يكن لغيرهم، وفيما يظهر من آثارهم بيان تحقيق ما يذكر عنهم.
من ذلك مثل هذه الأهرام والأعلام العظام المشهورة بالاسكندرية، وفي صحراء المغرب عجائب باقية من ذلك، وما لهم من الجبال المنحوتة التي جعلوا كنوزهم فوقها، فلا يصل أحد اليها، وكذلك الأودية المنحوتة، ومثل ما بالصعيد من مدائنهم، وما نقشوه عليها من حكمهم، فانه لو تعاطى أحد من ملوك الأرض أن يبني مثل الهرمين، أو جميعهم ما تهيأ لهم ذلك، وكذلك لو أرادوا أن ينقشوا ثوباً واحداً لطال عليهم الأمر وتركوه.
وحكي عن قوم في ضياع الغرب، ان عاملاً من عمالهم عنق بهم، فدخلوا في صحراء الغرب، وحملوا معهم زاداً إلى أن تصلح أمورهم ويرجعوا إلى منازلهم، وكانوا على يوم وبعض آخر، فدلجوا الى جبل، فوجدوا عيرا أهلياً قد خرج من بعض شعابه، فتبعه نفر منهم، فأخرجه إلى مساكن وأشجار ونخل ومياه وناس، فهم يسكنون تلك الناحية، ويتناسلون ويزرعون، ولا يطالبهم أحد بخراج.
وأخبروهم أنهم لم يدخلوا إلى ضياع الغرب، فصاروا نحوهم بأهليهم ومواشيهم وجميع أموالهم، فأقاموا مدة يطلبون الطريق فما وجدوه، ولا عرفوه، ولا وقفوا له على خبر، ولا تأتى لهم الوصول اليهم، فرجعوا آيسين على ما فاتهم من ذلك الموضع.
وحكي أيضاً عن آخرين انهم ضلوا في طريق الغرب، فوقعوا إلى مدينة كثيرة الماء والشجر والناس والمواشي والنخل والزرع، فأضافوهم وأكلوا عندهم وأباتوهم في دار فيها طاحونة يعمل فيها الخمر، فشربوا معهم حتى سكروا وناموا، فلما انتبهوا عند طلوع الشمس وجدوا أنفسهم في مدينة خراب ليس فيها أنيس ولا عمارة، فارتاعوا وخرجوا على وجوههم كالهاربين، وساروا يومهم على غير سمت حتى قرب المساء، فظهرت لهم مدينة أكبر من الأولى، وأعمر وأكثر أهلاً ودواباً ونخلاً وشجراً وزرعاً ومواشي، فأنسوا بها، ونزلوا عندهم فأخبروهم بخبر المدينة الأولى.

فجعلوا يعجبون من ذلك ويضحكون منهم، وإذا لبعض أهل المدينة وليمة فانطلقوا بهم اليها فأطعموهم بها، وسقوهم وغنوهم بأصناف الملاهي، وسألوهم عن أخبارهم، فأخبروهم أنهم ضلوا عن الطريق في بعض هذه الصحاري، فقالوا لهم الطريق بين أيديكم واضح، ولا يمكن أن تغلطوا فيه فان أحببتم المسير وجهنا معكم، من يوقفكم على سمت الطريق الكبير الذي يؤديكم إلى مكانكم، وإن أحببتم أن تقيموا عندنا، أرفدناكم وزوجناكم عندنا، وكنتم أصهارنا وإخواننا، فسروا بذلك من قولهم، فأجمع بعضهم على المقام معهم، وأجمع أكثر من كان منهم له أهل وولد على أن يأخذ أهله وولده فيسير نحوهم قالوا

فبتنا معهم خير مبيت، ثم نمنا فلما كان في الغد انتبهنا فوجدنا أنفسنا في مدينة عظيمة خراب قد تشعث بعض حصونها، وليس بها احد من الناس إلا ان حولها نخلا كثيرا قد تساقط ثمرها، وتكدس حولها. فلحقنا لذلك من الخوف والارتياع والوحشة ما كاد يتلفنا.

فخرجنا منها مفكرين فيما عايناه، وإنا لنجد روائح الخمر معنا ومعاني السكر فينا ظاهرة، فلم نزل نسير يومنا أجمع، وليس بنا جوع ولا عطش، حتى إذا كان المساء وافينا راعياً يرعى غنما له، فسألناه عن العمارة والطريق، قال إن العمارة قريب منكم، فاذا نحن بأنهار فيها الماء، فنزلنا وشربنا منها وبتنا ثم أصبحنا، فاذا نحن في غير موضعنا الذي كنا فيه، وإذا معنا الناس والعمران، وما مشينا إلا بعض يوم حتى دخلنا مدينة الأشمون في الصعيد، فكنا نحدث الناس فلا يقبلون منا.

وهذه مدائن القوم الداخلة القديمة قد غلبت عليها الجن، ومنها ما قد ستر عن العيون فلا يراه أحد.

وذكر بعض القبط، أن رجلاً من بني الكهنة الذين قتلهم الشاد سار إلى الافرنجة فذكر لملكهم كثرة كنوز مصر وعجائبها، وضمن له أن يوصله إليها وإلى ملكها وأموالها، ويدفع عنها طلسماهاحتى يبلغ جميع ما يريده، ويعرفه مواضع الكنوز.

فعزم ملك الافرنجة على غزو مصر وجهاهما، فلما اتصل بصاحب مصر أن ملك الافرنجة تجهز إليها، عمد إلى جبل بين البحر المالح وشرقي النيل، فأصعد إليه أكثر كنوزه، وما كان في خزائنه، وصفح ظاهرها بالرصاص.

وأمر فنحتوا جوانب الجبل إلى منتهى خمسين ذراعاً، وجعلوا في آخر المنحوت منه الصور البارزة خارجة في النحت بقدر ذراع، وهو جبل مدور في جرمه إلا أنه رفيع السمك.

ثم انصرف الملك إلى مصر، وتأهب بماقدر عليه، واستظهر بما أمكنه، وجعل ينتظر ملك الافرنجة. وان ملك الافرنجة حشد جيش ما امكنه وقصد مصر، وكان لايمر بشيء من عجائبها وطلاسمها وغرائب أعمالها ومناراتها إلا قدرعليه وغيره وأفسد ما صادف من أصنامها، وذلك كله أمكنه بمعونة ذلك الكاهن.

حتى أتى الاسكندرية الأولى فعاث فيها وهدم كثيرا منهاوغير معالمها، إلى أن دخل النيل من ناحية رشيد، وصعد إلى منف، وأهل تلك البلاد يحاربونه وهو ينتهب ما مر عليه، فوجد منفا ممتنعة بالطلسمات الشداد، والمياه العميقة والسرادقات العالية فأقام عليها أياما كثيرة فحاربها طمعاً أن يصل اليها، فلم يقدر ورأى كثرة الناس عليها، وأنهم كل يوم يزيدون وأصحابه ينقصون، فاغتاظ على الكاهن وأراد قتله فلم يمكنه.

وفر إلى أهله فسيروه حتى أمر الكهان إلى أوله من الظهور فرجع إلى حاله وهلك من أصحابه خلق كثير،

واجتمع أهل النواحي فقصدوا مراكبه، فأحرقوا أكثرها فأجمع هو ومن معه على الهروب.

ولما علم أهل مصر بذلك الكاهن الذي كان معه، انحشدوا اليه بما قدروا عليه من المراكب، وظفروا بأكثر أصحابه فقتلوهم وغرقوا مراكبهم، فكان أعظم مطالب ملكهم أن يخلص نفسه، فأسرع الهرب في مركب استجاده لمثل ذلك الحال.

ففر وسلط الله على مراكبهم رياحا غرقت كثيرا منها، فما عادوا إلى الافرنجة إلا وملكهم قد ثقل بالجراحات التي أصابته، ورجع الناس إلى منازلهم وقرارهم ورجع الملك إلى مصر وترك ما كنزه في موضعه عتيداً له.

ويقال انه كان هناك إلى هذا الوقت، و لم يزل بعد ذلك الوقت يغزو بلاد الروم، وأهل الجزائر، يعبث فيها ويخربها، فهابته الملوك.

وأقام ملكا سبعا وستين سنة، وهلك ودفن بمنف في ناووسه الذي كان عمل له في وسط المدينة من تحت الأرض، وجعل الدخول اليه من خارج المدينة من الجهة الغربية، وحمل اليه أموالا عظيمة، وجواهر كثيرة وطلسمات وتماثيل كما فعل أجداده من قبله.وكان فيه أربعة آلاف تمثال على صور شتى برية وبحرية، وتمثال عقاب من جوهر أخضر عند رأسه، وتمثال تنين أخضر من ذهب مسبوك عند رجليه، وزبر عليه اسمه وسيرته وجميع أموره.

وعهد ابنه إلى بداونس الملك وهو أول من ملك الأجناد وصفا له ملك مصر وكان بداونيس الملك محنكا مجربا ذا أيد وقوة ومعرفة بالأمور، فأظهر فيهم العدل، واقام الهياكل ورد أهلها وأكرم الكهنة، وزاد في ألطافهم، وبنى بغربي منف بيتاً عظيماً للزهرة، وزبر فيه كتبا كثيرة من العلوم وكساه الحرير وعمل عيداً كبيراً اجتمع اليه جميع الأجناد.

وكان صنم الزهرة من اللازورد موشحا بذهب يبرق مسورا بسواري زبرجد أخضر، وكان في صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبر، وفي رجليها خلخالان من حجر أحمر كالياقوت، ونعلان من ذهب، وفي يدها قضيب مرجان وهي تشير بسبابتها كالمسلمة على من في الهيكل.

وجعل حذاءها من الجانب الآخر بقرة ذات قرنين وضرعين من نحاس أحمر مموه بالذهب موشحة بحجر اللازورد ووجه البقرة محاذ إلى وجه صنم الزهرة، وجعلوا بينهما مطهرة من أخلاط الأجساد على عمود رخام مجزع فيها ماء مدبر بقوة من الزهرة يستشفى بها من كل داء، وفرش الهيكل بحشيشة الزهرة تنالوها في كل سبعة أيام.

وجعل فيها كراسي الكهنة مصفحة بالذهب والفضة، وقرب فيها ألف رأس من الضأن والمعز والوحش

والطير، وكان يحضره يوم الزهرة ويطوف به، وكان قد فرش الهيكل وستره عن يمين الزهرة وشمالها.
وكان في أعلى قبة الهيكل صورة رجل راكب على فرس له جناحان ومعه حربة سنانها رأس إنسان معلق، وبقي هذا الهيكل إلى زمان بخت نصر وهو الذي هدمه.
ويقال ان بداونس وهو الذي حفر خليج بخارى فارتفع له من الخراج في بلده مائة الف الف وخمسون الف الف.
وقصده بعض العمالقة غازيا له من الشام، فلما سمع به جيش وخرج اليه، ولقيه وهزمه ودخل فلسطين فقتل فيها وسبا خلقا كثيرا، وسبا بعض حكمائها واسكنهم مصر فهابته الملوك.
وعلى رأس ثلاثين سنة من ملكه طمع السودان من الزنج والنوبة في ارضه، فهجموا على بعض الاطراف فعاثوا وافسدوا.
فأمر بجمع الجيوش من اعمال مصر، وأعد المراكب ووجه قائدا من قواده يقال له بلوطس وفي ثلاثمائة ألف بين راكب وراجل، واتبعه بقائد آخر في مثلها ووجه في البحر ثلاثمائة سفينة وجعل في كل سفينة كاهنا يعمل أعجوبة.
وسار هو في أثرهما فيمن بقي من الجيوش، فلقوا جيوش السودان وكانوا زهاء الف الف فهزموهم وقتل اكثرهم، فأسر منهم كثيرا، وتبعهم الجيوش حتى وصلوا إلى أرض الفيلة من أرض الزنج فأخذوا منها عدة كثيرة، وأخذ معها كثيراً من النمور والوحش وسيقت الى مصر.
ونصب على حدوده منارات وزبروا عليها مسيره وظهوره والوقت الذي غزا فيه السودان وذكر كل ما عمل في أيامه.
ولما انصرف الى مصر واستقر بها، اعتل ورأى رؤيا تدل على موته، فعمل لنفسه ناووساً ونقل اليه من أصنام الكواكب كثيراً، ومن الذهب والجوهر الملون والتماثيل الغريبة الصنعة والآلات والذخائر ما لايعلم جودته وكثرته، فلما هلك دفن فيه وزبر على بابه في الحجارة اسمه وتاريخ الوقت الذي مات فيه، جعلت عليه طلاسم تمنع منه.
وكان قد عهد إلى ابنه بعده مماليك الملك، وكان أديباً عاقلاً كريماً حسن الوجه مجربا مخالفا لأبيه في عبادة الكواكب والبقر، ويقال إنه موحد على دين قبطيم ومصرايم، فكانت القبط تذمه بذلك.

وكان سببه فيما ذكر، أنه رأى رؤيا فيما يراه النائم، كأنه أتاه رجلان لهما أجنحة فاختطفاه واحتملاه إلى الفلك، وأوقفاه حذاء شيخ أسود أبيض الرأس واللحية، فقال له هل تعرفني؟ فدخلته منه روعة لحداثته، وكان سنه نيفاً وثلاثين سنة، فقال له: ما أعرفك، فقال له أنا بشر، يعني رجلاً، فقال قد

عرفتك، قال أنت إلاهي، فقال إنك وإن كنت تدعوني إلهاً فاني مربوب ملك، وإلهي وإلهك الذي خلق السموات والأرض وخلقني وخلقك، قال: فأين هو؟ قال: في العلوالأعلى، تعالى لا تلحقه الظنون ولا تراه العيون، ولا يشبهه شيء، وهو الذي جعلنا سبباً لاقامة العالم الأسفل وتدبيره قال: كيف نعمل إذاً ؟ قال: تضمر في نفسك ربوبيته وتخلص وحدانيته وتعترف بأزليته، ثم أمر الرجلين فأنزلاه الى موضعه، فاستيقظ مذعوراً وهو على فراشه.

فدعا رأس الكهنة فقص عليه رؤياه، فقال له: عاهدتك أن لا تتخذ الأصنام آلهة فالها لا تضر ولا تنفع، قال فمن أعبد؟ قال: الله الذي خلق السموات والأرض وخلق جميع ما فيها من أموال وغيرها.

قال وكيف أقدرعلى رد نفوس العالم عماهم عليه؟ قال: اعقد على ذلك نيتك، وأخلص ضميرك وصف به قلبك، وإذا غبت عن عيون الناس وانفردت فاعمل ما أمكنك، ودم للناس في الظاهر على ما كان عليه جدودك، فقبل الملك ذلك القول منه واعتقده وعمل به.

فكان يحضر للهيكل ويسجد للصنم، منحرفاً عنه بقلبه مبغضاً له كافراً به، وهو يضمر أن سجوده لله عز وجل واستعمل كثرة الغزوات وموالاة الأسفار والجولان في البلاد، وكل ذلك لتطول غيبته عن مصر ويبعد عن الهيكل. وقال بعض أهل مصر إن الله أيده بملك من الملائكة يعضده ويرشده، وربما أتاه في نومه فأمره ونهاه، وأخبره بما يريد معرفته، فأمر الناس عند ذلك باتخاذ كل جادة من الخيل وكل جيد وجميل من السلاح، وأعد الزاد، واتخذ في بحر المغرب مائتي سفينة.

وخرج في جيش عظيم في البر وفي البحر، فلقيه جموع البربر فهزمهم وقتل أكثرهم. وبلغ أفريقية، واستأصل أكثرها، وخرج منها، وكان لا يمر بأمة إلا أبادها إلى ان غزا من ناحية الأندلس يريد الافرنجة. وكان بها ملك عظيم يقال له افريوس، فحشد اليه من كل النواحي، فأقام يحاربه شهراً ثم طلب صلحه، وأهدى اليه هدايا كثيرة، فقبل ذلك منه وسار عنه ودعا الأمم المتصلة بالبحر الأخضر فأطاعوه، ومر بأمة لها حوافر ولهم قرون صغار، ولهم شعور كشعور الذئبة، ولهم أنياب د لف بارزة من أفواههم، فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى اثخنهم، ففروا عنه الى غيران لهم مظلمة، فلم يمكن لهم دخولها عليهم.

والقبط تزعم أنه رأى سبعين اعجوبة سنذكر منها بعد هذا، وعمل على البحر أعلاماً وزبر عليها اسمه، وخرب مدن البربر حيث كانت، وألجأهم إلى قرون الجبال، ورجع فتلقاه أهل مصر بصنوف اللهو والطيب والرياحين، وفرشوا له الطرق، ودخل قصره موفوراً ظاهراً. وأخرج إليه ابنه، وكان ولد له من بعده فسر به وابتهج وكمل فرحه، واتصل خبره بالملوك فهابوه، وحملوا اليه الهدايا من كل جهة.

وبلغه أن قوماً من البربر والسحرة لهم تماثيل وبخورات عجيبة يضلون بها، وتخاييل وهم في مدينة لهم يقال لها قرمودة في المغرب من أرض مصر، وقد ملكوا عليهم امرأة منهم ساحرة يقال لها سطا.

واتصل به كثرة أذاهم للناس، فغزاهم حتى إذا قرب منهم ستروا عنهم مدينتهم وسحروه، فلم يرها وطمسوا مياههم، فلم يعرفها، فهلك كثير من أصحابه عطشاً، فلم يجد لهم حيلة في الوصول اليهم، فزال عنهم ثم صعد إلى ناحية الجنوب.

ثم رجع اليهم على غير الطريق الذي سار اليهم عليها أولا، فمر بهم بهيكل كانوا يحضرونه في بعض أعيادهم، فأمر بهدمه فهدم بعضه، وسقط منه موضع على جماعة من أصحابه ممن تولى هدمه فاهلكهم، فلما رأى ذلك تركهم وانصرف عنهم، وخرجوا إلى هيكلهم فبنوه وأصلحوا ما فسد منه وحرسوه بطلسمات محكمة، ونصبوا في قبته صنماً من نحاس مذهب.

وكان إذا قصدهم أحد صاح الصنم صياحاً عظيماً منكراً يرعب منه كل ذي روح ويبهت، فيخرجون اليه فيصطلمونه.

وكانت ملكتهم أحذق منهم بالسحر فقالوا لها نعمل الحيلة في افساد مصر وأيذاء أهلها؟ فقالت لهم نعم، فقالوا أنت اقدرمنا، فاعملي فيها ما رأيتيه.

فعملت لهم أدوية سحرت فيها النيل ودفعتها إلى بعضهم، وأمرهم أن يمضوا بها الى مصر، والزرع في حقله على أن تؤخذ فيطرحون منها في النيل في أعلى مصر، ويغرق بعضهم على أقطار مصر، وحيث زروعهم الكثيرة، فيفرقونها في كل جهة، قليل غبار في كل جهة.

فلما فعلوا ذلك فاض النيل في غير وقته وزاد على المعهود، وأقام الماء طويلاً على مزارعهم، وأفسد زروعهم وغلاتهم، وكثر فيه التماسيح والضفادع وكثرت العلل في الناس وانبثت فيهم الثعابين والعقارب.

فأحضر الملك الكهنة والحكماء، وقال لهم أخبروني عن هذه الحوادث التي حدثت في بلادنا، ولم تذكروه في الطالع الذي وضعتموه لهذه السنة، فكنا نتأهب لها. فاجتمعوا في دار الكهنة، ونظروا وبحثوا حتى علموا أنهم أوتوا من قبل ناحية المغرب، وأن امرأة عملته وألقته في النيل، وفرقته على الجهات.

فعلم الملك أنه من قبل تلك الساحرة، فقال لهم أجهدوا أنفسكم في هلاكها فقد بلغت فيكم من أذائها فاجتمعوا إلى الهيكل الذي فيه صور الكواكب وسألوه أن يحضر معهم فلم يمكنه الخلاف، فلما أمسى لبس مسحاً، وفرش رماداً، واستقبل مصلاه، وأقبل على الدعاء والابتهال والتضرع إلى الله تعالى، وقال: يا رب أنت إله الآلهة وملك الملوك، وخالق الكل، ولا يكون شيء مما دق وجل إلا بأمرك وحولك، أسألك بجميع فضائلك وآياتك وأسمائك أن تكفينا أمر هؤلاء القوم.

فلم يزل كذلك حتى غلبته سنة من النوم، فنام مكانه فرأى كأن آتياً أتاه، فقال له قد رحم الله تضرعك، وعلم ضميرك وأجاب دعوتك، وهو مهلك هؤلاء القوم ومدمرهم، وصارف عنك الماء المفسد والدواب

المضرة، والأمراض المهلكة.

فلما أصبح الكهنة غدوا عليه وسألوه حضور هيكلهم على ما وجههم به فقال لهم قد كفيتم أمر عدوكم، وأزيل الماء المفسد والدواب المضرة عنكم، ولن تروا بعدها شيئاً تكرهونه، فسكتوا ونظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين لما سمعوه، ثم قالوا له قد سررنا بما ذكره الملك دام عمره، وهم يضمرون التكذيب والاستهزاء.

وخرجوا عنه فقال بعضهم لبعض الرأي أن لا تقولوا شيئاً في هذا، فان كان حقاً ظهر سريعاً، وإن كان باطلا اتسع لكم اللفظ في ذمه، وسيتبين أمره.

فلما كان بعد يومين انكشف ذلك الماء المفسد، وجففته الشمس، وهلكت تلك الدواب المضرة، فعلم القوم صدق ما أخبرهم به.وأمر الملك قائداً من قواده ورجلاً من الكهنةأن يمضوا بجيش حتى يعلموا علم تلك المدينة، فخرجوا اليها فأتوها، فلم يروا مكروهاً ولا وجدوا مانعاً.

فلما وصلوا اليها وجدوا حصنها قد سقط، وأهلها عن آخرهم موتى، واحترق بعضهم، واسودت وجوههم، ووجدوا بعض الأصنام ساقطة على وجوهها، وأموالهم ظاهرة بين أيديهم.

فطافوا المدينة وفتشوها فلم يجدوا فيها غير رجل واحد حياً، كان مخالفاً لدينهم بسبب رؤيا رآها، ووجدوا من الأموال والجواهر وأصناف الذهب والتماثيل ما لا يحصى كثرة؛ ولا يعرف له قيمة.

ووجدوا صورة كاهن لهم كانوا يتعبدونها، وهي من زبرجد أخضر على قائمة من حجر البسد، ووجدوا صورة روحاني من ذهب ورأسه من جوهر أحمر وله جناحان من در، وفي يديه مصحف فيه كثير من علوم مصر في دفتين من ذهب مرصعتين بذهب ملون.ووجدوا مطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة من زجاج أخضر مسبوك، وفيها فضلة من الماء الدافع للأسقام.

ووجدوا فرساً من فضة من عزم عليه بعزائمه ودخنه بدخنه وركبه طار به فيما زعموا.

ووجدوا غير ذلك من العجائب والآلات التي يستعملها السحرة والأصنام التي يتخذونها، فجمعوا من ذلك ما خف حمله وثقل ثمنه، وأقروا به دوابهم من جميع العجائب والتماثيل وغرائب ما كان فيها من الأشكال، وحملوا جميعه إلى الملك، وحمل الرجل الذي وجد حياً، ووصلوا بذلك كله إلى الملك، فابتهج بذلك وحمد الله تعالى على ما أولاه، وسر الناس.

وبهت منه كهنة مصر، و لم يعرفوا أصله، فوجه الملك دواباً وعسكراً ونهض معهم من شاء من العامة بأشمون ومصر، فنقلوا جميع ما كان تبقى في المدينة من شيء له خطر، فصار بأيدي الناس منه شيء كثير وصار الموضع بعد ذلك زماناً طويلاً مطلباً لمن أمكنه المسير اليه، وقل من مشى اليه ورجع خائبا.

واستحضر الملك ذلك الرجل الذي وجد حياً فاستخبره عن احاديثهم، فحدثه بأشياء معجبة، ثم قال:

وأعجب ما رأيت منهم انه قصد المدينة منذ دهر ملك من ملوك البربر جبار من أهل بيت تجبر، فجاء بجموع كثيرة وجيوش كثيفة وتخاييل هائلة فأغلق أهل مدينتنا حصنهم، ورتبوا المراهقين على أسوارها ولجأوا ألى أصنامهم وشيوخهم وكهنتهم يخضعون لها ويتضرعون اليها وكان لهم كاهن عظيم الشأن لا يكاد أن يخرج من مترله، فسار اليه رؤساؤهم، وشكوا اليه ما دهاهم من عدوهم، فخرج معهم الى بركة لهم عظيمة بعيدة القعر، كانوا يشربون منها الماء فجلس على حافتها، وأحاط الكهنة بها، وأقبل يزمزم على ماء البركة، فلم يزل كذلك حتى فاض الماء وفار، وخرج من وسطه نار تتأجج وخرج من وسطها وجه كدائرة الشمس وعلى ضوئها فخرت الجماعة سجودا لذلك الوجه وجللهم نوره، وجعل يعزم حتى ملأ البركة وارتفع حتى صعد على أعلى القبة ثم ارتفع الى السماء فسمعوه يقول قد كفيناكم أمر عدوكم، فاخرجوا فخذوا أموالهم فخرجنا بأجمعنا متخوفين حتى وصلنا مضربهم، فوجدناهم أمواتا لم يبقى منهم حي، فأخذنا جميع ما تركوه من مال وثياب ودواب وآلة وانصرف أهل المدينة إلى مدينتهم فرحين، وكانوا يأكلون ويشربون، فقلت لبعض الكهنة لقد رأيت عجباً من ذلك الوجه فما هو؟ قال ملك الشمس تبدت فماتوا عن آخرهم كما رأيت، قال له الملك فما الذي أهلكهم الآن؟ قال لا أدري، غير أني أفقت من نومي في الليل فسمعت هدة عظيمةإذ هدم الحصن فأردت الخروج ولا علم لي بذلك فاذا بأصوات انكرتها وضوء نار وروائح حريق، وكنت ساكناً في موضع كالخان فيه خلق كثير، فصحت بكثير منهم فلم يستجب لي أحد، فسرت أفتقد باب المترل فوجدته مغلقا فدخلت بيتي وأوقدت سراجا بنار كانت عندي، ثم مشيت على جميع من في الدار رجالا ونساء صغارا كبارا، فلم أجد أحد منهم حيا فاقمت في نهاية من الرعب ابتهل إلى الله عز وجل وأدعو. فلما أصبحت أقمت حتى طلعت الشمس و بدا النهار، فلم أسمع صوتا ولاحركة، فخرجت فوجدت المدينة على ما وجدها أصحاب الملك.

وكان هذا الرجل عاقلا مجربا فاتخذه الملك صاحباً ووزيرا وأنيسا، و لم يزل مماليك الملك على التوحيد لله تعالى والايمان به، وهو يسايس أهل بلاده ويداريهم عما في نفسه خوفا من اضطراب ملكه عليه.

وأمر فبني له ناووس، وأمر أن يدفن فيه إذا مات وحده ولا يدفن معه أحد من أهله، وأمر أن لايدفن معه ذهب ولا فضةولا تمثال، وكتب بخطه صحيفة" هذا ناووس مماليك الملك، ملك مصر وأعمالها، مات وهو يؤمن بالله لا يعبد معه غيره، ومتبريء من الأصنام وعبادتها، ومؤمن بالبعث والحساب والمجازاةعلى الأعمال عاش بكذا وكذا، فمن احب النجاة من عباد الله، فليدن بما دان به"، وقد كان دفن بموضع آخر كنوزا كثيرة وزبر عليهاانه لا يخرجها إلا أمة النبي المبعوث في آخر الزمان يعني محمدا عليه الصلاة والسلام ودفع الصحيفة التي كتبها إلى الآمر بعده وأمره بسترها والاحتفاظ بها فاذا هو مات زبر ما فيها على ناووسه.

وكان طول حياته يقصد ناووسه يتعبد فيه مستترا عن جميع العالم ولما أيقن بالموت دعا ابنه فأسر إليه التوحيد وأعلمه انه دينه، ولم ير منه إلا الخير وأمره أن يدين به ونهاه عن عبادة الأصنام، فدان بذلك مدة حياة أبيه، ومات فدفنه ابنه في ناووسه وزبر عليه ما في الصحيفة.

فلما فرغ من أمره جلس على سرير الملك ابنه اخريتا الملك، وتقلد الأمر وكان لينا سهلا حسن الخلق فلما مات أبوه رجع عما كان عليه من التوحيدوصار على دينهم.

وكان سبب رجوعه إلى عبادة الأصنام أن أمه كانت بنت كبير من الكهان ففتنته بعد موت ابيه إلى دينها وغلبته على رأيها، فأمرت بتجديد الهياكل وشددت في عبادة الأصنام.

وتزوج الملك امرأة من بني عنه، فأحبها حبا شديدا فهام بها فافسدته على جميع نسائه، فاشتد ذلك على أمه.

وكانت له قهرمانة من أهل أسيوط ساحرة لا تطاق، وكانت تميل إلى هذه المرأة لأنها كانت تعشق أخاها، فزادت في سحرها لتلك المرأة وأوحشت ما بين الملك وأمه حتى رفضها واستخف بها، وزادت في القصة حتى حلف انه لا يجاورها، وان يغزو ويتصرف ولايرجع الى مصر حتى يتصل به خبر موتها، ففعل ذلك وغزا بلاد الهند وأرض السودان.

وكان سبب خروجه إلى أرض الهند أن ملكا من ملوكها يقال له ميسور خرج في عدد كثير في البر وسايرته مراكبه في البحر ففتح بلدانا وجزائر، وأكثر القتل والسبي، وذكرت له مصر فقصدهاثم اعتل فرجع من طريقه. فأمر اخريتا الملك فعمل مائة سفينة في صور المصريات، واستعد وخرج في ثلاثمائة سفينة وحمل المرأة معه، وحمل وجوه أصحابه.

واستخلف على مصر ابنه كلكلن وكان صبيا، وحمل معه وزيرا له يقال له لاون، وكاهنا يقال له وسموس، وخرج فمر على ساحل البحر وعاثت مراكبه فيها، فكان لايدخل بلدا إلا أقام فيهاصنما وزبر عليه اسمه وسيرته ووقته.

وبلغ سرنديب فأوقع بأهلها، وغنم منهاأموالا وجواهر كثيرة وحمل منها حكيما لهم بارعا، وبلغ جزيرة بين الهند والصين ووجد فيها قوما طوالا سمرا يجرون شعورهم، ورأى عندهم اللعاب والطيور التي لا تعرف وشجرة الطيب والنارجيل والفواكه التي لا تكون إلا عندهم، فأذعنوا اليه بالطاعة وحملوا اليه أموالا وهدايا فقبلها وسار عنهم. وجعل يتنقل في تلك الجزائر عدة سنين، يقال إنه غاب عن مصر في سفره سبعة عشرة سنة.

ورجع إلى مصر غانما موقورا فوجد أمه قد هلكت، وكان أهل مصر قد أيسوا منه، فورد على الناس من

رجوعه أمر عظيم من الفرح، وكان معهم على حالهم من السلامة والوقور والظهور.
ووجد ابنه كلكلن على ماتركه من الملك فسر بذلك وهابته الملوك، وعظم قدره في أعين الناس، ثم بنى عدة هياكل وزينهاوحلاها وأقام فيها أصناما للكواكب، لأنه زعم أنها هي التي أيدته في سفره حتى ظفر وغنم ونجا، وقد كان حمل معه من الهند طبيبا وحكيما، وحملا مع أنفسهما كتبهما وعزائمهما، فأظهرا بمصر عجائب مشهورة.
وحمل معه من بلاد الهند صنما من ذهب مقرطا بالجوهر، ونصبه في بعض الهياكل التي أقامها وكان حكيم الهند هو الذي يقوم عليه ويخدمه ويقرب له، فكان يخبرهم بكل ما يريدونه.
وأن أخريتا الملك أقام بعد منصرفه من الهند مدة ثم غزا نواحي الشام فأدى إليه أهلها الطاعة، ثم رجع إلى مصر وغزا نواحي النوبة والسودان فصالحوه علىهياكلهم بأتاوة أدوها اليه فتركهم ورجع إلى مصر.
وملكهم خمسا وسبعين سنة، وعمل لنفسه في صحراء الغرب ناووسا وأمر أن يدفن فيه إذا مات ثم سار إلى رفودة وعمل فيها مصانع وعجائب، وأقام بها الى ان مات، وابنه الى المملكة بمنف.
ولما مات ضمد جسمه بالمومياء والكافور والمر وجعل في تابوت من ذهب وحمل إلى ناووسه ودفن فيه ودفن معه مال كثير وجوهر نفيس وتماثيل كثيرة وسلاح عجيبة وعقاقير وكتب خطية.
وصورت في جوانب الناووس صورته وزبر عليها ذكر السنين التي غزا فيهاوالبلدان التي فتحها، والمرأة التي غلبها وسدوا باب الناووس، وزبروا اسمه ومدته عليه وتاريخ موته.
وكان جميلا سمح الاخلاق، وقتل جماعة من نسائه أنفسهن عليه، واغتم عليه الكهنة لاتباعه دينهم.
وملك بعده ابنه كلكلن الملك فعقد تاج الملك بعد موت أبيه بالاسكندرية وأقام بها شهرين، ورجع إلى منف، وكان على دين أبيه فاستبشر به أهل مصر لانه كان يحب الكهنة وإظهار العجائب ويقرب أهلها ويكثر جوائزهم.
و لم يزل يعمل طول عمره فخزن أموالا عظيمة، ودفن منها بصحراء الغرب ما لا يوصف كثرة. وهو أول من أظهر صنع الكيمياء بمصر، وكانت مكتومة وكان يطرح المثقال الواحد على القناطير من النحاس الكثيرة فيصنعها باذن الله تعالى ذهبا وكان الملوك قبله رأوا كتم عملها لئلا يجتمع عليهاملوك الامم، فترك كلكلن ذلك الرأي وعمل الكيمياء وملأ دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهب قط أكثر منه في أيامه، ولاالخراج لانه بلغ وقته فيما حكاه بعض القبط مائة ألف ألف وسبعة عشر ألف ألف، واستغنوا في وقته عن إثارة المعادن لقلة حاجتهم إليها، وعمل أيضا من الحجارة المسبوكة الصنم الملون الذي ينشف شيئا كثيرا، وعمل أيضا حجارة شفافة ملونة من الفيروزج واليشم والزبرجد وغيرها.
وتحكي القبط أنه اخترع أشياء تخرج عن العقل حتى سمته الحكماء حكيم الملوك، وغلب جميع الكهنة في

علمهم وكان يخبرهم بما يغيب عنهم فخافوه واحتاجوا إلى علمه.

وكان نمرود إبراهيم في زمانه، ويقال أنه لما اتصل بالنمرود وحكمته وسحره استزاره وكان النمرود جبارا مشوه الخلق سكن سواج العراق، وكان الله آتاه قوة وبطشا، فغلب على كثير من الأمم، فتقول القبط لما يريدون من تعظيم ملوكهم أن كلكلن لما أستزاره النمرود وجه إليه أن يلقاه منفردا من أهله وحشمه لموضع كذا.

فأقبل كلكلن للوعد وهو على أربعة افراس، ذوات اجنحة تحمله، وقد أحاط به نور كالنار وحوله صنوف هائلة من التماثيل فدخل بها وهو متوشح بتنين متحزم ببعضه وقد فغر فاه وبيده قضيب من آس أخضر فكلما رفع التنين رأسه ضربه بالقضيب فأماله.

فلما رآه النمرود هاله امره فخاطبه معظما له معترفا بجليل حكمه، وسأله أن يكون له صاحباً وظهيرا فأسعف رغبة النمرود في ذلك ثم افترقا.

وتقول القبط أن كلكلن كان يرتفع ويجلس على رأس الهرم، ويقولون ايضا إنه أقام على رأس الهرم مدة في قبة تلوح على رأسه حتى طمعت الملوك الذين حوله في ملكه.

فقصده ملك من ملوك الغرب يقال له سادوم في جيش عظيم وأقبل من نحو وادي هيت ليكبس أرض مصر. فاقبل كلكلن حتى بلغهم ثم جللهم بشيء من سحره يشبه الغمام شديد الحرارة، فأقاموا تحته أياما لا يدرون أين يتوجهون من الحيرة.

وسار هو الى مصر فتيامن الناس به، فعرفهم بما جرى وأمرهم بالخروج اليهم ليعرفوا خبرهم، فخرجوا فوجدوهم قد ماتوا عن آخرهم، فنقلوا جميع ما خلفوه وكان كثيرا جدا. فعجب الناس من ذلك وهابته الملوك هيبة لم يهابوهالأحد قبله، وصوروا صورته في جميع الهياكل، وملكهم زمانا.

وبنى في آخر عمره هيكلا لرجل من صوان أسوج في ناحية الغرب، وجعل له عيدا، وبنى في وسطه ناووسا وحمل اليه ما أراد من ذهب وجوهر وحكم وعقاقير، وعرفهم أنه ميت.

وأوصى بالملك إلى أخيه ماليا الملك وكان شريبا كثير الأكل والشرب منفردا بالرفاهية غير ناظر في شيء من أمر الحكمة، وجعل أمر البلدإلى وزير له. فكانت أيامه صالحة لهيبة أخيه كلكلن، وتقدمهم أنه لم يمت وأنه ذكر لهم موته لينتظر ما تجري عليه أحوالهم.

وكان ماليا معجبا بالملك محبا للنساء ومعاشرتهن فكان له ثمانون أمرأة، ثم اتخذ امرأة من بعض ملوك منف، وكانت عاقلة سديدة الرأي فحمته من النساء وكان بها معجبا ولها محبا وكان له بنون وبنات من سائر نسائه وكان أكبر بنيه يقال له طوطيس، فكان يستجهل أباه ويسترذل سيرته، فأعمل الحيلة في قتله،

وحملته على ذلك أمه وجماعة من نسائه وبعض وزرائه فهجم عليه في رواقه سكران والمرأة معه فقتله وقتل المرأة.

وتولى الأمر بعد أبيه طوطيس وجلس على سرير الملك، وكان جبارا جريئا شديد البأس مهيبا فدخل عليه الأشراف فهنأوه، ودعوا له فأمرهم بالاقبال على مصالحهم، وترك ما لا يعنيهم ووعدهم بالاحسان والقبط تزعم أنه اول الفراعنة بمصر، وانه فرعون إبراهيم عليه السلام، وان الفراعنة سبعة هو اولهم.

وتذاكر الناس ما عمل بأبيه وانكروه واستقبحوا صلبه للمرأة، وشعر بذلك فانزلها ودفنها، واستخف بأمر الهياكل والكهان. وكان من خبر إبراهيم عليه السلام معه ان إبراهيم لما هرب من قومه ومن النمرود وأشفق من المقام بالشام لئلا يلحقه قومه فيردونه إلى النمرود، لأنه كان فر بها من سواد العراق.

فخرج إلى مصر ومعه سارة امراته وخلف ابن اخيه لوطا بالشام، وسار إلى مصر وكانت سارة اجمل نساء العالم في وقتها، ويقال ان يوسف ورث حواء من حسنها لأنهاجدته.

فلما دخلا مصر ورأى الحرس المقيمون على باب المدينة، حسن سارة، عجبوا منهاورفعوا أمرها إلى الملك طوطيس.

وقالوا له دخل رجل من أهل المشرق، ومعه امرأة لم ير الناس أجمل منها وجها ولا أكمل حسنا. فأرسل الملك وزيره فاحضر إبراهيم وسأله عن خبره وبلده فأخبره فقال له ما هذه المرأة منك؟ فقال له اختي فعرف الوزير الملك ذلك فقال له أحب أن اراها، فعرف الوزير إبراهيم بذلك، فاستصعب ذلك، و لم يمكنه مخالفته وعلم ان الله تعالى لا يسوءه في أهله.

فقال لسارة سيري إلى الملك فقدطلبك ليراك، وهو امرؤ لا يعصى، فقالت وما يصنع بي الملك وهو ما رآني قبل وإني لفازعة منه؟ قال أرجو أن تكوني بخير.

فقامت معه حتى دخلا على الملك في قصره، فلما رآها الملك نظر منها إلى منظر راعه وأفتنه، فأمر باخراج إبراهيم عليه السلام فخرج وندم على قوله إنها أخته، وهو إنما أراد أخته في الدين. ووقع في قلب إبراهيم عليه السلام ما يقع في قلب الرجل إذا غلب على أهله، وتمنى أنه لم يدخل مصر، وقال: اللهم لا تفضح إبراهيم في أهله.

فكشف الله له ما وراء الحيطان حتى صار ذلك كله كالزجاج الرقيق الصافي، فرأى الملك ورآها.

فراودها الملك عن نفسها فامتنعت عليه فذهب ليمد يده إليها، فقالت له إنك إن وضعت يدك علي أهلكت نفسك لأن لي ربا يمنعني منك، فلم يلتفت إلى قولها ومد يده إليها فجفت يده دونها، وبقي حائرا.

فقال لها زولي عني ما أصابني، فقالت له لا أقدر على ذلك إلا أن يشاء ربي، فان ضمنت ان لا تعاود دعوته فعسى ان يزيل ما نزل بك.

فقال لها لست أعودإلى ما فعلت، فدعت الى الله تعالى فأذهب ما كان به.فلما وثق بالصحة راودها ومناها، فامتنعت عليه، وقالت له قد عرفت ما جرى لك ثم مد يده إليها فجفت واضطربت عليه أعضاؤه، فاستغاث بها وأقسم بآلهته أنه إن أزالت عنه ما به لا يعاودها فدعت الله تعالى، فزال ذلك عنه فرجع إلى حاله، وقال لها إن لك ربا عظيما، وليس مضيعك وأعظم قدرها، وسألها عن إبراهيم عليه السلام، فقالت هو زوجي وقريبي.

قال فانه ذكرأنك أخته، قالت صدق أنا اخته في الدين، وكل من على ديننا فهو أخ لنا، فقال نعم الدين دينكم.

فوجهها إلى ابنته حوريا، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير، فألقى الله محبة سارة في قلبها فأكرمتها وعظمتها، وأضافتها فأحسنت ضيافتها، ووهبت لها مالا وجواهر، فأتت به إبراهيم عليه السلام فقال رديه فلا حاجة لنا به فردته فذكرت ذلك حوريا لأبيها، فعجب منها، وقال إن هؤلاء لقوم كرام وبنية طاهرة.

فتحيلت في برها بكل حيلة، فلم تقبل منها شيئا، فوهبت لها جارية قبطية من أحسن الجواري، وعزمت عليها في قبولها فقبلتها، وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام، فلما أراد إبراهيم عليه السلام السفر من مصر عملت ابنة الملك حلوى كثيرة وأشياء من السكر والخبز، وأشياء كثيرة من الطعام وملأت منها سلالاً ودكت تحت الحلوى في كل سلة جوهراً نفيساً كثيراً، وحليا مصوغاً عجيباً، فلما جاءتها سارة مودعة لها دفعت اليها تلك السلال.

وقالت يكون هذا معك تتزودين به. قالت حتى أشاور صاحبي فشاورته فقال إذا كان مأكولاً فخذيه، فقبلت ذلك منها وودعتها وانصرفت الى إبراهيم عليه السلام.

فخرج هو وسارة وهاجر معه، فلما أمعنوا في السير أخرجت سارة بعض تلك السلال ليأكلوا منها، فلما أدخلت يدها وجدت الجوهر، فلما فتشت سائر السلال وجدتها كذلك، فأخرجت جميعه وعرفت إبراهيم عليه السلام بذلك وعرضت عليه فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التي جعلها للسبيل، وفرق بعضه في وجوه الخير والبر، وكان يضيف به كل من مر به، وادخرت منه سارة.

وعاش طوطيس إلى أن وجهت إليه هاجرمن مكة أنها بمكان جدب وتستقتيه فأمر بحفر نهر في شرقي مصر ثم بسفح الجبل حتى ينتهي إلى مرفأ السفن على البحر المالح، فكان يحمل اليها الحنطة وأصناف الغلال، فتصل إلى جدة وتحمل من هناك على المطايا إلى مكة، فأحيا بذلك الحجاز مدة.

ويقال إنها وجهت اليه بالحجاز تذكر ولادتها فسر بذلك، ووجه إليها ذهبا وجوهرا تتخذ منه زينة لولدها فحلت الكعبة ببعضه.
وقيل إن كل ماحليت به الكعبة في ذلك العصر إنما أهداه الملك مالك مصر اليها.وقيل إنه لكثرة ما كان حمله طوطيس إلى الحجاز سمته هاجر والعرب الصادق، وكذلك يسميه كثير من أهل الأثر.
وقيل إن طوطيس سأل إبراهيم عليه السلام أن يبارك له في ولده فدعا له بالبركة في مصر، وعرفه إبراهيم أن ولده سيملكونها ويصير أمرها اليهم قرنا بعد قرن إلى آخر الزمان.
وطوطيس هذا أول فرعون كان بمصر، وذكر أنه أكثر القتل حتى في قرابته وأهل بيته وبني عمه وخدمه ونسائه وفي كثير من الكهنة والحكماء.
وكان حريصاً على سفك الدماء، حريصا على الولد، فلم يرزق غير ابنته حوريا، وكانت عاقلة حكيمةتأخذ على يديه كثيرا وتمنعه من سفك الدماء فلم ينته، وخافه كل أحد على نفسه فابغضته ابنته وأبغضه الخاص والعام.

وخافت حوريا زوال ملكهم بسببه فسمته فهلك، وملك سبعين سنة، واختلفوا بعد موته في التمليك عليهم، وقالوا لن يملك علينا أحد من اهل بيته، وأرادوا تمليك بعض ولد ابريت، فقال بعض الوزراء قد علمتم فضل ابنته حوريا وحكمتها وما كانت تنكر على ابيها في أفعاله وما صنعت به حتى اراحت الناس منه فأين تذهبون عنها ؟ وتبعه على ذلك أكثر القواد الكبار فتم لها الملك.
وملكت حوريا المملكة، وجلست على سرير الملك، ودخل عليها الناس فهنأوها ودعوا لها، فاكرمتهم ووعدتهم بالاحسان، واخذت في جمع الاموال وفي حفظها.
فلم تلبث إلا يسيراً حتى اجتمع عندها من الآموال والحلى والجوهر والثياب ما لم يجتمع لملك قبلها وقدمت الحكماء والكهنة ورؤساء السحرة، ورفعت اقدارهم.
وأمرت بتجديد الهياكل وإعظامها، وصار من لم يرضها ولا يرضى بفعلها يشيع خبرها الى ابريب، فملكوا عليهم رجلاً من ولد ابريت يقال له انداحس، فعقد على رأسه تاجاً وصار اليه جماعة من بني عمه وأهل بيته، فانفذت اليه جيشا تحاربه، فلما رأى أنه لا طاقة له بها دعاها الى الصلح وخطبها الى نفسه وذكر لها ان الملك لا يقوم إلا بالرجال، وخوفها ان يزول ملكهم بسببها ومكانهامن الملك.
فعملت صنيعاً وأمرت ان يحضر الناس على منازلهم فحضروا واكلوا وشربوا وبذلت لهم الأموال، وعرفتهم ما جرى اليه ذلك الرجل من خطبتها فبعضهم صوب الرأي وبعضهم امتنع، وقال لا نولي علينا غيرها لمعرفتنا بعقلها وفضلها وحكمتها، وهي وارثة الملك.

ووثبوا على نفر ممن خالفهم فقتلوهم، ثم خرجوا في جيش كثير، فلقوا جيش الخارج عليها ابريت فهزموهم، وقتلوا كثيراً منهم، وهرب هو الى أرض الشام، وبها الكنعانيون من ولد عملاق، فاستجار بملكهم، وأخبره خبره، ورغبه في مصر وعظم له أمرها وكنوزها، وقرب له أخذها، وضمنها له.

فجهزه ملك الشام بجيش عظيم الى مصر، وأرسل معه على الجيش رجلاً عظيماً من أصحابه، واجتمع الناس كلهم بمصر وجهاتها على حوريا ففتحت خزائن أبيها وفرقت أكثرها على الناس فاحبوها، وأذعنوا لها بالطاعة وقوت السحرة بالمال ووعدتهم بالاحسان.

فلما قرب انداحس بجيوش الشام أمرت السحرة أن يعملوا عملاً لتلك الجيوش، وكان المقدم على الجيوش قائداً جليلاً من عظماء قواد ملكهم، يقال له جيرون.

فلما نزل أرض مصر بعثت حوريا ظئراً من عقلاء النساء الى ذلك القائد جيرون سراً من انداحس تعرفه أنها راغبة في تزويجها إياه، لانها لا تختار أحداً من أهل بيتها، وأنه ان قتل انداحس كيفما أمكنه تزوجته، وسلمت اليه ملك مصر ومنعت منه صاحبه.

فرغب جيرون في ذلك، وفرح به، وأرسل الى انداحس في مضربه، على حسب عادته من اكرامه طعاماً فيه سم فأكله فمات، فأرسل اليها يستنجزها ما وعدته فأرسلت اليه انه لايجوز لي أن اتزوجك، حتى تظهر في بلدي قوتك وحكمتك وتبني لي مدينة عجيبة، وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان وإقامة الأعلام والأصنام وعمل العجائب، وقالت له: انتقل من موضعك ذلك الى غربي بلدنا فثم لنا آثار كثيرة فاقتف تلك الآثار من الاعلام وغيرها.

فانتقل الى حيث أمرته وبنى مدينة بصحراء الغرب تدعى أندومه، وأجرى اليها من النيل نهراً، وغرس فيها غروساً كثيرة، وأقام بها مناراً عالياً، وعمل فوقه مجلساً وصفحه بالذهب والفضة والصفر والرخام الملون والزجاج المسبوك.

وأبدع في عمله لأنها امدته بالصناع وبالأموال، وكانت تكاتب صاحبه عنه بما تراه وتماديه عنه وهو لا يعلم.

فلما فرغ من بنيان المدينة أعلمها بذلك، فأرسلت اليه ان لنا مدينة حصينة كانت لأوائلنا وقد خربت وخرب حصنها، فانتقل اليها، وانظر في بنيانها وإصلاحها وإصلاح حصنها واتقن امورها، وانتقل انا خلال ذلك الى المدينة التي بنيتها وأنقل اليها جميع ما احتاج اليه، فاذا فرغت من اصلاح تلك المدينة أنفذ إلي حينئذ فأسير اليك لأبعد عن مدينتي وأهل بلدي، فاني أكره أن ادخل اليك بالقرب منهم.

فمضى حيث امرته وجدّ في اصلاح الاسكندرية الثانية وإليها أمرته أن يمضي، وأهل التاريخ لا يعرفون خبر انداحس، ويذكرون ان الذي قصد مصر هو الوليد بن دموع العملاقي، وهو ثاني الفراعنة.

وأن سبب قصده لها انه اعتل علة طالت به فوجه ثقاته الى كل جهة والى كل مكان ليحمل اليه مياهها حتى يعلم الماء الذي يلائم جسمه منها.

فاتى غلام له مملكة مصر فرأى سعتها وفوائدها وألطافها، فعاد اليه فأعلمه بحالها وجلى له أمرها، وحمل اليه من مائها وغرائبها.

فقصدها في جيش كثيف حتى حط عليها، وكاتب الملكة وخطبها الى نفسه فوجهت اليه من اشرف على حاله فرأى قوماً عظاماً لاتقوم بحربهم؛ فاجابته الى التزويج وشرطت عليه أن يبني لها مدينة عظيمة يظهر فيها قوته، ويجعلها انزالها، فاجابها ودخل مصر وشقها الى ناحية الغرب ليبني المدينة بناحية الاسكندرية، فأمرت بأن يلقى بالرياحين وأصناف الفواكه فمضى الى ناحية الاسكندرية، وقد خربت بعد خروج العادية عنها، فنقل ما وجد فيها من حجارتها ومعالمها، ووضع أساس مدينة عظيمة وبعثت هي اليه مائة الف من الفعلةوالخدم فأقام في بنيانها مدة طويلة حتى انفق فيها جميع ما كان معه من المال، وكلما وضع طول يومه من الحجارة في الاساس خرجت في الليل دواب من البحر فقلعته وأخربته وغيرته فكان في ذلك دهراً فاغتم لذلك غماً شديداً وشغله الفكر فيها.

وكانت حوريا أنفذت اليه الف لبون من المعز ليشرب لبنهاويستعمله في مطبخه فدفعها الى راع يثق به، وكان ذلك الراعي يطوف بها ويرعاها فيما هنالك، وكان اذا رجع عند المساء خرجت اليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسه اليها فاذا كلمها شرطت عليه أن يصارعها، فان صرعها كانت له وإن صرعته أخذت من تلك المعز اثنين، ثم يعود يوماً آخر فيحمله حبه لها على الطمع في غلبتها فتصرعه وتأخذ اثنين، فبطول المدة نقصت المعز نحو نصفها، وتغيرت الباقيات منها لشغله بحب تلك الجارية عن الاهتمام برعيها، وتغير الراعي أيضاً في جسمه ولونه، فمر به صاحبه في بعض الايام، فوقف عليه. فلما رأى الراعي متغيراً والمعز عجافا فسأله عن ذلك ورأى قلتها، فسأله عن نقصانها، فوصف له الراعي الأمر على وجهه خوف سطوته، فقال له أي وقت تخرج ؟ قال قرب المساء، فلبس هو ثياب الراعي، وتولى هو بنفسه رعاية المعز يومه إلى المساء.

وخرجت الجارية فعارضها، فشرطت عليه شرطها فأجابها، فلما تصارعا صرعها وقبض عليهاوشد وثاقها، فقالت له إن كان ولا بد من أخذي فسلمني إلى صاحبي الأول، فانه ألطف بي وقد عذبته زمانا طويلاً فردها عليه، وقال له إذا خلوت بها فسلها عن هذا البنيان الذي بنيته فيزال من ليلته من يفعل ذلك؟ فان كان عندها علم منه فسلها إن كان في دفع ذلك حيلة ومضى وتركه معها.

فلما سالها عن ذلك قالت إن في البحر دواب تخرج كل ليلة فتنزع بنيانكم، قال لها فهل في دفع ذلك من

حيلة؟ قالت نعم، فقال وما هي؟ فقالت أعلمك كلاما تكتبه في قراطيس، وتربطه في حجارة صغار، فيدخل الرجال المصورون في مراكب صغار، ومعهم القراطيس والأنقاس في وسط النهار إلى موضع كذا من البحر، ثم يلقون ويرمون القراطيس المكتوبة في الماء يميناً وشمالاً، ثم يمكثون ساعة فلا تبقى دابة إلا أتت ذلك الموضع ودارت وظهرت فوق الماء، فيصور المصورون مثلها في تلك القراطيس، ويتحرون التشبيه ما قدروا، ويكثرون من تلك التصاوير ما أمكن، ثم يخرجون وتمثل أمثال تلك الصور من الصفر والنحاس والحجارة وتنصب امام البنيان بينه وبين البحر.

فان تلك الدواب إذا خرجت ورأت تلك الأشكال هربت، فلم تعد إلى ذلك الموضع وعلمته الكلام حتى حفظه.

فسار الراعي أول الصباح إلى صاحبه فعرفه الخبر، وكتب الكلام، ففعل الملك ذلك فانقطعت تلك الدواب، وتم البنيان، فبنى المدينة وأتمها وأكملها وقال قوم من أصحاب التاريخ إن صاحب البناء والمعز هو جيرون المؤتفكي كان قصدهم قبل الوليد، وأن الوليد أتاهم بعد حوريا فقهرهم وملك مصر.

وذكروا أن الأموال التي كانت مع جيرون نفذت كلها في تلك المدينة و لم يتم البنيان، فامر الراعي أن يسأل تلك الجارية عن كنوز قريبة منهم، فسألها فقالت ان في موضع كذا من المدينة التي خربت ملعبا مستديرا، حوله سبعة أعمدة على رأس كل عمود تمثال صفر قائم، فقرب لكل تمثال منهاثوراً سميناً وألطخ العمود الذي تحته بدم الثور وبخره بشعرة من ذنبه وشيء من نحاتة قرنه وأظلافه، وتقول هذا قربانك فاطلق لي ما عندك، فاذا انت فعلت ذلك فقس من كل عمود إلى الجهة التي يتوجه اليها وجه التمثال الذي فوقه مائة ذراع واحفر، وليكن ذلك في امتلاء القمر واستقامة زحل، فانك تنتهي إذا نزلت خمسين ذراعا إلى بلاطة عظيمة فألطخها بمرارة الثور وأقلعها فانك تجد تحتها باباً تنزل منه إلى سرداب طوله خمسون ذراعا في آخره باب مقفل ومفتاح القفل تحت عتبة الباب، فخذه والطخ القفل ببقية مرارة الثور ودمه وبخره بشعره وبنحاتة أظلافه وقرنه، وافتح الباب وادخله بعد أن توثق رتاجه فاذا دخلته فانك ترى مستقبلك صنماً من حجر في عنقه لوح صغير معلق من صفر مكتوب فيه جميع ما في الخزائن من مال وجوهر وتمثال وذخيرة ودواء واعجوبة، فخذ منه ما شئت.

وكذلك فافعل بكل عمود وتمثال فانك تجد مثل تلك الخزانة سواء، وهذه نواويس الملوك وكنوزهم، فوصف الراعي لصاحبه جميع ما قالته الجارية، فلما سمع ذلك سر به سروراً عجيباً وعمله أسرع ما أمكنه، فوجد ما لا يدرك وصفه، ووجد من العجائب شيئاً كثيراً فأتم بناء المدينة واتصل ذلك بحوريا فاساءها، وإنما كانت أرادت إتعابه وإشغاله وإذهاب ماله.

ويقال إنه وجد فيها من العجايب درج ذهب مختوم فيه مكحلة زبرجد فيها ذرور أخضر ومعه عرق جوهر أحمر، فمن اكتحل من ذلك الذرور وهو أشيب عاد شابا واسود شعره ولحيته وأضاء بصره حتى يدرك النظر الى الروحانيين.

ووجد تمثال غراب من حجر إذا سئل عن شيء صوت فأجاب عنه، ويقال إنه كان في كل خزانة عشرون أعجوبة.

فلما فرغ من بنيان المدينة وجه اليها يعلمها بذلك ويحثها على القدوم اليه ويتشكى من طول الأمد وكثرة الشقاء له ولأصحابه، فوجهت اليه فرشا فاخرا وقالت افرشه في المجلس الذي تجلس فيه، واقسم جيشك أثلاثا فأنفذ الي ثلثه فأنا ماشية عند وصوله عندي اليك، فاذا وصلت مسافة كذا موضعا عينته له فانفذ إلي الثلث الثاني فاذا بلغت ثلثي الطريق، فانفذ إلي الثلث الثالث ليكون جملته من ورائي لئلا يراني أحد منهم إذا دخلت عليك، ولا يبقى هناك إلا صبية يخدمونك ممن تثق بهم، فأني أوافيك في جوار تكنفك من خدمنا لا احتشم منهم ففعل ما قالت، وجعلت تحمل إليه الجهاز والاموال على كل صنف وفي كل يوم حتى علم مسيرها، فوجه اليها ثلث جيشه، فعملت لهم من الأطعمة والاشربة المسمومة فوق الحاجة.

فلما وصل الجيش اليها اشغلتهم الجواري والولدان بالاطعمة والاشربة والطيب والرياحين فلم يصبح منهم أحد حياً ومن أصبح منهم حياً قتل.

وقد كانت وكلت بهم من جيوشها من يفعل ذلك، ووجهت الى كل جهة من يضبط الطرق ويحرسها حتى لا يصل اليه خبر من ذلك واخذت جميع ماخلفوه ونقلته الى مصر.

وسارت فلقيها الثلث الآخر ففعلت به مثل ذلك وكتبت اليه تعرفه أنهاوجهت ما وصل اليها من جيشه إلى مصر ومملكتها في تلك الجهات ليحفظوها خلال كونها عنده.

ثم وصل اليها الثلث الثالث من جنده فجرى أمره مجرى الثلثين الأولين إلى أن وصلت اليه ومعها عسكر مجرد من ثقات رجالها وأعيان جيشها وفرسانها، فلم يشعر إلا وهم قد أحاطوا به في القصر الذي بناه بالاسكندرية، فدخلت عليه هي وظئرهاوجواريها معه فنفخت ظئرها في وجهه نفخة ذهب بها لبه ورشت عليه ما كان معها فارتعبت مفاصله وخذلت قوته، وقالت من ظن أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه، وغلبته النساء.

ثم فصدت بعض عروقه وشربت من دمه وقالت دماء الملوك شفاء وقتلته، وأخذت رأسه فوجهت به إلى قصرها ونصبته عليه.

وحملت تلك الأموال إلى منف، وبنت منار الاسكندرية وزبرت عليها اسمها واسمه، وما فعلته به والتاريخ على المنار.

واتصل خبرها بالملوك الذين يتزاحمون على بلادها فهابوها، وخافوا من حيلها واذعنوا لها وهادوها وتصنعوا لها.
وعملت بمصر عجائب كثيرة، وأمرت أن يبنى على حدود مصر من ناحية النوبة حصن وقنطرة يجري النيل من تحتها، فعملت ذلك.

واعتلت حوريا فاجتمع إليها أهل بلدها وسألوها أن تقلد الملك أحداً ترضاه ليكون ملكهم، و لم يكم في ذلك الوقت أحد من ولد ابيها، ولا من أهل بيته يصلح للملك.
فقلدت الأمر إلى ابنة عمها، وملكتها عليهم وهي دليفة ماموم، وكانت جارية عذراء من عقلاء النساء وكبرائهن، فاخذت لها المواثيق من أهل مصروسائر بلادها، أن لا يسلموها لعدو وأن يمنعوا من يتعرض لها، وسلمت اليها مفاتيح خزائنها وأطلعتها على كنوزها وكنوز آبائها وأمرت إذا ماتت أن يضمد جسدها بالكافور، وتحمل إلى المدينة التي بنيت لها في صحراء الغرب، وقد كانت بنت بها ناووساً عجيباً ونقلت اليه أصناماً للكواكب وزينته بأحسن الزينة وجعلت له خدمة وسدنة، واسكنت تلك المدينة جماعة من الكهنة واصحاب العلوم، واسكنت بها جيشاً يحميها فعمرت تلك المدينة، و لم تزل على حالها من العمارة إلى أن أخربها بخت نصر وحمل بعض كنوزها.
وجلست دليفة على سرير الملك، واجتمع الناس اليها وتألفت كلمتهم عليها وأحسنت إلى الناس ووضعت عنهم كثيراً من الخراج لتلك السنة.
وقام عليها أيمن صاحب الأندلس يطلب ثأر خاله انداحس، واستنصر عليها بملك العمالقة فنصره لمكان انداحس منه. ووجه معه قائداً بجيش كثيف، وبلغ الأمر دليفة، فأخرجت اليه بعض قوادها فالتقوا بموضع يعرف بالعريش، وجعلت سحرة الفريقين يظهرون العجائب العظيمة، ويسمعون الأصوات التي تفزع الأسماع، وتؤلم القلوب، وأقاموا مدة يتواقفون للحرب ثم يتراجعون، فهلك منهم عالم من الناس ثم انهزم اصحاب دليفة الى منف وأيمن في أثرهم.
ومضت دليفة في جمع من جيشها الى ناحية الصعيد، فنزلت بأشمون وأنفذت من قدرت عليه من الجيوش اليهم، فوقعت الحرب معهم بجهات الفيوم.
وضعف أصحاب دليفة عنهم لكثرتهم وشدة صبرهم، فاستنصرت بأهل مدائن الصعيد فحاربوا أصحاب أيمن، فأزالوهم عن منف، وقد كانوا ظفروا بها وعاثوا فيها فهزموهم حتى ركبوا المراكب وعدوا الى ناحية الشمال، وكان معهم ساحر من أهل قفط، فأظهر سحره ناراً أحالت بينهم وبين أصحاب دليفة فانحازوا عنهم واستعدوا، وعادوا لما كانوا فيه من الجد والطلب.

وفزع أهل مصر لطول المدة وعجز الجيوش عن مقاتلتهم، وأشفقوا من خروج مصر من أيديهم، فوجهوا سفراء بينهم على أن يجعلوا البلد قسماً بينهم فأجاب كل واحد منهم الى الصلح.

وأن دليفة بعد إجابتها إلى الصلح غدرت وخالفت، وأخرجت الأموال والجواهر ففرقتها في الناس وقد كان بعضهم لامها في الصلح، فرجعت الى الحرب، واشتد الأمر بين الفريقين ثلاثة أشهر، ثم ظهر.أيمن عليها وهزمها.

ولجأت الى ناحية قوص وسار خلفها وتمكن من المملكة، فلما رأت حقيقة الأمر ونكول جندها وعجز كهنتها وسحرتها وأنها لا بد لها أن تغلب سمت نفسها فهلكت.

وملك بعدها أيمن الملك صاحب الاندلس ملك مصر، فتجبر وعتا وقتل خلقاً ممن كان مع دليفة.

وكان الوليد ين دومع العملاقي قد خرج في جيش عظيم يتنقل في البلدان، يغلب ملوكها ليسكن ما يوافق غرضه منها، ويعتدل حال جسمه فيها على ما تقدم من ذكر علته.

فلما انتهى الى الشام، انتهى اليه خبر مصر وجلالة قدرها، وأن أمرها قد صار الى النساء وباد ملوكها، فوجه اليها غلاماً له يسمى عونا بجيش عظيم، فوصل الى مصر وأيمن ودليفة يقتتلان، ففتحها وحوى أموالها وكنوزها، وغاب خبره عن الوليد، فلم يشك في هلاكه وهلاك الجيش الذي كان معه، لما كان يعلمه من طلاسم مصر ومكر كهنتها.

ثم اتصل به ان عبده قد ملكها، فسار الى مصر وتلقاه العبد وعرفه أنه كان يسير اليه، إنما أخره ما أراد من تعديل الملك وإصلاحه فقبل قوله. ودخل مصر الوليد بن دومع العمالقي وملكها فاستباح أهلها وأخذ أموالها، وتتبع ما أمكنه الوصول اليه من كنوزها، وهبط اليه أيمن بالطاعة من الصعيد ومدها سامعا له إذ كان عسكره من قبله، ومن أعانه بملكه وجيشه حتى أخذ بثأر خاله انداحس وتم الأمر للوليد على أعظم أمر.

ثم سنح له ان يمشي حتى يقف على مخرج النيل، ويغزو من بناحيته من الامم فأقام ثلاث سنين يستعد لذلك، حتى اصلح جميع ما احتاج اليه. واستخلف عبده عوناً على البلد وخرج في جيش كثيف، وعدد عظيمة، فلم يمر بأمة إلا أبادها.

فيقال انه اقام في سفره سنين كثيرة وأنه مر على امم السودان وجاوزهم ومرعلى ارض الذهب، فوجد فيها مواضع فيها قضبان ثابتة وهي بلاد عانة.

و لم يزل الوليد يسير حتى بلغ البطيحة التي ينصب ماء النيل إليها من الانهارالتي تخرج من جبل القمر، وجبل شامخ عريض طويل، وإنما سمي جبل القمر لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خرج كثيرا عن خط

الاستواء، ونظراليه كيف يخرج النيل من تحته فيمر في طرائق كثيرة كالانهار الرقاق، فيصير بعضها إلى حظيرة عظيمة يجتمع فيها، ويصير بعضها الى حظيرةعظيمة، ثم يخرج من كل حظيرة نهر عظيم ينصب إلى حظيرة عظيمة يجتمع النهران فيها وهي البطيحة الكبيرة، وهي بعد خط الاستواء، وقبل الاقليم الاول، ويخرج من تلك البطيحة نهر واحد، ويجوز خط الاستواء ويجري إلى مصر ويمده نهر آخر من ناحية مكران يصب فيه عند اول جبل معظم في ثلث الاقليم الأول.

ويذكر أن هذين النهرين يزيدان وينقصان، فيهما التماسيح وسمك كأمثال سمك النيل، ويخرج منه نهر عظيم على مقربة من آخر شرقي جبل القمر وحكي عن الوليد أنه وجد القصر الذين فيه قماقم النحاس الذي عملها هرمس الاول في وقت البودشير الاول بن قفطويم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام، وهي خمس وثمانون صورة جعلها جامعة لمن يخرج من الماء من الجبل، وبمعاقد وبمصاب مدبرة، يجري منها الى تلك الصور ويخرج من حلوقها على قياس معلوم واذرع معدودة معلومة.

ثم ينصب في أفواه الصور في انهار كثيرة ويتصل بالبطيحتين، ويخرج منها كما قلنا الى البطيحة الجامعة للماء الذي يخرج من جبل القمر، وقد هندس في تلك ورتب مقداراً من الماء في كل صورة ما معه صلاح البلدان التي يمر بها، وينفع أهلها دون الفساد، وسطح قبل انتهاء المسطح ثمانيةعشر ذراعا بالذراع التي ذرعها مقدار اثنين وثلاثين أصبعا، فما فضل عن ذلك عدل به عن يمين تلك الصور ويسارها الى مسارب تخرج عن يمين القصر ويساره تنصب إلى غياض ورمال لا عمارة فيها.

وقد ذكر قوم من أهل الأثر أن الانهار الاربعة تخرج من أصل واحد من قبة في ارض الذهب التي من وراء البحر المظلم وهي سيحان وجيحان والنيل والفرات.

وذكر بعضهم أنها من الجنة وأن تلك القبة من زبرجد، وأن جميع هذه الانهار قبل أن يسلك الى البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب من رائحة المسك.

وممن جاء بهذا وذكره أبو صالح كاتب الليث وغيره من المحدثين ذكروا أن رجلاً من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام يقال له حايد وصل إلى القبة، وله خبر يطول ذكره هذا الخبر الذي قال المسعودي إنه يطول ذكره أثبته هنا، وإن لم يكن هو ذكره لانه بموضعه وهو من كتاب العظمة رواه ببغداد الفقيه أبو الحسن عباد بن سرحان وهو يحدث به إلى الآن عن شيوخه ببغداد بأسانيد ذكرها عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن النيل يخرج من الجنة ولو التمستم فيه حين يمج لوجدتم من ورقها.

حدثني أبو الطيب أحمد بن روح، قال حدثني علي بن داود، قال حدثنا عبد الله بن صالح، قال حدثني الليث بن سعد قال زعموا والله اعلم أنه كان رجل من بني العيص، يقال له حايد بن أبي سالوم من

العيص بن إسحق بن إبراهيم عليهما السلام أنه خرج هارباً من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر فأقام بها سنين. فلما رأى عجائب نيلها وما يأتي به جعل لله تعالى أن لا يفارق ساحله حتى يبلغ منتهاه من حيث يخرج أو يموت قبل ذلك، فسار عليه

-قال بعضهم ثلاثين سنة في عبر الماء، وقال بعضهم خمس عشرة سنة كذا وخمس عشرة سنة كذا- حتى انتهى إلى بحر فنظر إلى النيل مقبلا فصعد على ساحل البحر، وإذا هو برجل قائم يصلي تحت شجرة تفاح، فلما رآه استأنس به وسلم عليه، فسأله الرجل صاحب الشجرة وقال له من أنت؟ فقال أناحايد بن أبي سالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، ومن أنت أصلحك الله؟ قال له أنا عمران، فما الذي جاء بك هاهنا يا حايد حتى انتهيت إلى هذا الموضع، فان الله تعالى أوحى إلي أن أقف في هذا الموضع حتى يأتي أمره؟فقال له حايد أخبرني يا عمران ما انتهى اليك من خبر هذا النيل، وهل بلغك أن احداً من بني آدم يبلغه؟ فقال عمران قد بلغني أن رجلاً من ولد العيص يبلغه، ولا أظنه غيرك يا حايد، فقال حايد يا عمران كيف الطريق اليه؟ فقال له عمران لست أخبرك إلا أن تجعل لي ما سألتك قال وما ذلك يا عمران؟ قال إذا رجعت إلي وأنا حي أقمت عندي، حتى يوحى إلي بأمرك أو يتوفاني الله تعالى فتدفنني، قال له لك ذلك علي، قال سر كما أنت على هذا البحر، فإنك تصل إلى موضع فيه دابة ترى أولهاولا ترى آخرها فلا يهولنك أمرها، فاركبها فإنها دابة معادية للشمس، إذا طلعت اهوت اليها لتلتقمها، حتى يحول بيتها حجبتها، فاذا غربت أهوت اليها لتلتقمها، فاذاركبتها فسر راجعا عليها حتى تنتهي إلى النيل فانزل عنها، فإنك ستترل وتبلغ أرضا من حديد جبالها وأشجارها وسهلها من نحاس، فان جزتها وقعت في أرض من فضة جبالها وأشجارها وسهلها من فضة، فان جزتها وقعت في أرض من ذهب جبالها وسهلها من ذهب، فيها ينتهي إليك علم النيل.

فسار حتى انتهى إلى أرض الحديد، ثم منها إلى أرض النحاس، ثم منها إلى أرض الفضة، ثم منها إلى أرض الذهب، فسار فيها حتى انتهى إلى سور من ذهب وشرفه من ذهب فيه قبة من ذهب لها أربعة أبواب ونظر إلى الماء ينحدر من ذلك السور، حتى يستقر في القبة، ثم يفرق فيخرج على الانهار الاربعة.

وأما ما يخرج من الثلاثة فيفيض في الارض، وواحد يشق على وجه الأرض وهو النيل، فشرب منه واستراح، وأهوى إلى السور ليصعد، فأتاه ملك فقال له ياحايد مكانك فقد انتهى اليك علم هذا النيل، وهذه الجنة والماء يترل من الجنة.

فقال إني أريد أن أنظر إلى ما في الجنة، قال إنك لن تستطيع دخولها اليوم ياحايد، فقال أي شيء هذا الذي أراه؟ قال هذا الفلك الذي تدور فيه الشمس والقمر وهو شبه الرحى، قال إني أريد أن أركبه وأدور فيه، فقال بعضهم إنه ركبه في دار الدنيا، وقال بعضهم إنه لم يركبه، فقال له الملك يا حايد إنه

سيأتيك رزقك من الجنة فلا تؤثر عليه شيئاًمن الدنيا فانه لا ينبغي لشئ من الجنة أن يؤثر عليه شئ فإنه يبقى ما بقيت.

قال فبينما هو كذلك إذ نزل عليه عنقود من عنب فيه ثلاثة الوان لون كالزبرجد الأخضر، ولون كاللؤلؤ الابيض، ولون كالياقوت الاحمر، ثم قال ياحايد قد انتهى إليك علم هذا النيل.

فقال ما هذه الثلاثة التي تفيض في الارض؟ قال أحدها الفرات، والثاني سيحان والثالث جيحان.

فرجع حايد حتى انتهى إلى الدابة فركبها، فلما أهوت الشمس للغروب قذفت به في الموضع الذي ركبها فيه، فاقبل حتى انتهى إلى عمران فوجده قد مات. فأقام على قبره ثلاثاً، فأقبل شيخ متشبه بالناس أغر من السجود، فبكى على عمران ثم أقبل إلى حايد فسلم عليه، ثم قال له يا حايد ما الذي انتهى إليك من علم النيل؟ فأخبره، فقال له الرجل هكذا نجده في الكتب.

وكان التفاح قد ظهر في تلك الشجرة من أحسن شيء، فأغراه الشيخ وقال لحايد ألا تأكل منه شيئاً؟ قال معي رزقي قد أعطيته من الجنة ونهيت أن لا أؤثر عليه شيئاً من الدنيا، قال صدقت يا حايد لا ينبغي لشيء من الجنة أن يؤثر عليه شيء من الدنيا، وهل رأيت في الدنيا مثل هذا التفاح؟ وإنما هذه الشجرة أخرجها الله من الجنة لعمران ليعيش منها فانبتها له في هذه الآرض، وليست من الدنيا وما تركها إلا لك، ولو وليت لرفعت، فلم يزل به حتى اخذ منها تفاحة فبعضه عليها عض الملك على يديه، وقال له أتعرفه؟ هو الذي أخرج أباك من الجنة، أما أنه لو سلمت بهذا العنقود الذي معك، لأكل منه أهل الدنيا فلم ينفذ فهو الآن مجهودك ان يبلغك، فكان مجهوده أن بلغه. فأقبل حايد حتى بلغ مصر فأخبرهم بهذا الخبر، ومات رحمه الله، وتم الخبر الذي اثبته وليس من الأم، ورجع الكلام الى حيث انقطع.وقال آخرون تنقسم هذه الأنهار الى اثنين وسبعين قسماً، حذاء اثنين وسبعين لساناً.للأمم المذكورة وقال آخرون إنما هذه الأنهار من ثلوج تترل في أيامها، وتتكاثف هناك فتحملها حرارة الشمس مرة بلطف ومرة بقوة، فتسيل إلى هذه الأنهار، فتسقي لما أراد الله جل وتعالى من تدبير خلقه.

ونرجع إلى ذكر الوليد لما بلغ جبل القمر رأى جبلاً عظيماً، فاعمل الحيلة إلى أن صعد عليه ليرى ما خلفه فأشرف منه على البحر الأسود الزفتي النتن، ونظر إلى النيل يجري عليه كالأنهار الرقاق، فأتته من ذلك البحرروائح منتنة، هلك بها كثير من أصحابه فأسرع بالترول بعد ان كاد يهلك.

وذكر قوم أنه لم ير هناك شمساً ولا قمراً الا نوراً أحمر كنور الشمس عند غروبها وقالوا إنه أقام في غيبته مدة عشرين سنة.

وان عونا علامة تجبر بمصر بعد سبع سنين من مسيره، وادعى انه الملك، وادعى انه لم يكن عبد الوليد،

وانه أخوه وله الملك من بعده وريب على الناس، واستعان بالسحرة عليهم وأسنى جوائز السحرة والكهنة، و لم يمنعهم محابهم، فمال إليه الناس ووثقوا بأمره و لم يترك امرأة من بنات ملوك مصر إلا نكحها، ولا مالاً إلا أخذه وقتل صاحبه.

وكان مع ذلك يكرم الهياكل والكهنة، فكان الناس يمسكون عنه اشفاقاً منهم من السحرة الذين أطافوا به الى ان رأى في منامه الوليد، وكان يقول له من أمرك أن تتسمى باسم الملك؟ وقد علمت انه من فعل استحق القتل، ونكحت إلى ذلك بنات الملوك، وأخذت الأموال بغير واجب، وكأنه أمر بقدور فملئت زفتاً ثم غليت على النار وأحميت، وكأنه يغمسه فيها فلما غليت أمر بترع ثيابه، فأتى طائر في صورة عقاب فاختطفه من ايديهم وعلق به في الجو، فجعله في هوة على رأس جبل، وكأنه سقط من رأس الجبل إلى واد فيه حمأة منتنة.

فانتبه مذعورا طائر القلب، وكان في طول فعله ذلك في تملكه إذا خطرت بقلبه من ذكر الوليد خطرة يكاد عقله أن يزول فرقاً منه، لما يعلمه من فظاظته وبطشه وقوته.

وكاد مرة يوقن بهلاكه لطول غيبته وانقطاع خبره، وكان مرة يخاف أنه حي. فلما رأى الرؤيا لم يشك في حياة الوليد، فاضمر في نفسه الهرب من مصر في الأموال، فأطلع بعض السحرة ممن كان يثق به على أموره.

وقال له إني خائف من الوليد وقد عزمت على الهرب من مصر، فما عندكم؟ قالوا له نحن نحميك على أن تقبل منا، قال قولوا، قالوا له نعمل عقاباً وتعبده، فان الذي خلصك منه في نومك هو بعض الروحانيين، وهويريد منك أن تعمل صورته فتعبده.

قال عون أشهد لقد قال لي وأنا أسمع: اعرف لي هذا المقام ولا تنسه قالوا لقد بينا نحن لك ذلك.

فسمع منهم وعمل عقاباً من ذهب، وجعل عينيه من جوهرتين موشحتين بأصناف العمل الغريب.

وعمل له هيكلاً لطيفاً وجعله في صدره، وأرخى عليه ستور الحرير، فأقبل عليه السحرة على خدمته بالبخور والقربان، الى أن نطق لهم، فأقام عون على عادته ودعى الناس الى ذلك فأجابوه، فلما مضت لذلك مدة أمر العقاب ببناء مدينة يحوله اليها فتكون حرزاً له ومعقلاً من كل أحد، فأمرعون كل فاعل بمصر أن يجتمعوا له، وأمر أصحابه أن يخرجوا إلى صحارى الغرب ويطلبوا اليه ارضا حسنة الاستواء، ويكون المدخل فيها بين فجوج صعبة وجبال وعرو، ويتوخى ان تكون تلك الأرض قريبة من مغاص المياه، فكان مغيض الماء هو اليوم الفيوم وكان مغيضاً لمياه النيل، حتى أصلحه يوسف عليه السلام، وأنما أراد عون قرب مكان المدينة من مغيض المياه ليجري اليها الماء منها، فخرج أصحابه يطوفون في الأرض،

فأقاموا في ذلك شهراً حتى وجدوا له بغيته، فلم يبق بمصر فاعل ولا مهندس ممن كان يفتت الصخور ويقطعها ويعمل شيئاً مما يصلح للبنيان إلا وجهه، وأنفذ معهم ألف فارس في طاعتهم، وانفذ معهم جميع الآلات، وأقام في توجيه الزاد اليهم شهرا على العجل، وطرق العجل اليوم ظاهرة واضحة في صحراء الغرب من خلف الأهرام، وهي التي يقصدها أصحاب المطالب وهي بنية مشهورة.

فلما تكامل لهم ما يريدونه من قطع الحجارة ونحتها أعدوا من العدد، وخطوا موضع المدينة وجعلوه فرسخين في مثلهما، وحفروا في وسطها بئراً، وجعلوا في تلك البئر تمثالاً من نحاس صورة خنزير ونحاسة بأخلاط وجعلوا وجهه إلى الشرق.

وكان ذلك بطالع زحل واستقامته وسلامته من المتضادين له وهو في شرفه.

واخذوا خنزيراً فذبحوه له ولطخوا وجهه بدمه وبخروه بشعره، وأخذوا شيئاً من شعره عظامه ولحمه ودمه ومرارته، فجعلوا ذلك في جوف خنزير من النحاس ونقشوا عليه آيات زحل.

ثم شقوا في البئر أخدوداً من أربعة أوجه المدينة، وجعلوا فيها شوارع يتصل كل شارع فيها بباب من أبواب المدينة، ووصلوا ما بينها بالمنازل الحسنة والطرقات، وجعلوا حول القبة تماثيل من نحاس بأيديهم حراب، ووجوهها مقابلة لتلك الأبواب.

وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود، وفوقه حجر أحمر، وفوقه حجر اخضر، وفوقه حجر أصفر، وفوق الكل ابيض شفاف، مثقبة كلها بالرصاص المصبوب بينها، وفي قلوبهاأعمدة الحديد على صفة بناء الأهرام.

وجعل طول حصنها ستين ذراعاً ونصف ذراع، وعلى كل باب من أبوابها على أعلى الحصن تمثال عقاب كبير من صفر وأخلاط، أجوف ناشر الجناحين، وعلى كل من أركان المدينة صورة فارس بيده حربة ووجهه إلى خارج المدينة، وساق الماء إلى ناحية الباب الشرقي ينحدر في صبيب الى الباب البحري، ويخرج إلى بطائح هناك، وكذلك من الباب الجنوبي الى الشمالي.

وقرب لتلك العقبان عقبانا ذكرا ولطخها بدمها، واجتلب الرياح الى أبواب التماثيل فكانت الرياح إذا دخلتها يسمع لها أصوات شديدة، لايسمعها أحد إلا هالته، وضمدها بعقارب مطلسمة تمنع الناس من دخولهاإلا أن يكون مع الغريب الداخل إليها أحد من أهلها، ونصب العقاب الذي يتعبد له تحت القبة التي في وسط المدينة على قاعدة لها أربعة أركان في كل ركن منها شيطان مشوه، وجعلها على عمود زبرجد، فكان العقاب يدور على كل جهة من الجهات الأربع ويقيم كذلك ربع السنة يقرب اليه من جهته.

فلما فرغ من ذلك كله حمل إليها جميع الأموال والجواهر المخزونة بمصر، وما وجد في خزائن الملوك من التماثيل والحكم، وتراب الصنعة والعقاقير والسلاح وغير ذلك.

وحول اليها كبار السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والمهن، وقسم المساكن التي بناها بينهم، لا يختلط بعضهم ببعض، وبنى حول سورها ربضا يحيط بها، وبنى فيه مساكن لأصحاب مهن الحرث والزرع وغير ذلك، وما يتعلق بالعمارة.
وعقدعلى ما أجراه من الأنهار قناطر يجوز عليها الخارج من المدينة والداخل اليها، وجعل الماء يدور حول الربض، ونصب عليه أعلاماً ثم غرس ما وراء ذلك كله بأجناس الأشجار وغرائبها، فأقام بها من الجنات كل غريبة حسنة كثيرة الفوائد، ثم جعل ما وراء ذلك مزارع لكل نوع من الحبوب، فاستغل بذلك كله أعظم الغلات.
وكان يرتفع اليه منها في السنة ما يكفيه عشر سنين، وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام فكان يخرج اليها فيقيم بها عشرة أيام، ثم يعود إلى منف.

وكان لتلك المدينة أربعة أعياد في السنة في كل وقت يتحول فيه العقاب إلى الجهات الأربع، فلما تم لعون ذلك اطمأن قلبه وسكنت نفسه. الى ان وافاه كتاب الوليد من ناحية النوبة، يأمره أن ينفذ اليه الأزودة، وينصب له الأسواق، فوجه عون ذلك كله من أحسن شيء وأتمه في المراكب وعلى الظهر.وحول جميع عياله ومن اصطفاه من بنات الملوك من مصر وكبرائها إلى المدينة المبنية، فلما قرب دخول الوليد مصر تحول هو الى مدينته فتحصن بها وخلف للوليد خليفة يكون بين يديه.
فدخل الوليد مصر فتلقاه الناس، وشكوا إليه عونا، وماحل بهم منه، فقال:وأين عون؟ قالوا: فر عنك وتحصن دونك.
فاغتاظ وأمر ان ينفذ إليه جيش كثيف، فعرفوه كيف بنى مدينته وأمكن فيهامعه من السحرة، وأن امره صعب فما يكون إلا بعد نظر شاف واستعداد كاف، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، ويحذره التخلف عنه، ويقسم عليه إن لم يفعل وظفر به يبضع لحمه بعد المبالغة في عذابه.
فرد عليه عون جوابا يقول فيه: ما على الملك مني في هذا الموضع؟ ولا أتعرض لبلده، ولاأعبث في شيء منه لأني عبده، وأنا في هذه الجهة حام له من كل عدو يقصده من ناحية من نواحي الغرب، ولا أقدر على المسير اليه لخوفي منه على نفسي، فليقرني الملك على حالي كأحد عماله، وأوجه اليه في كل وقت ما يلزمني من خراجه ومن هداياه، ووجه مع الجواب مع أموالا جزيلة جليلة وجوهرا نفيساً، فلما رأى الملك ذلك قنع به، وكف عنه.
فأقام الوليد بمصر فاستعبد أهلها واستباح حريمهم واموالهم مائة سنة وعشرين سنة، فأبغضوه وشتموه.
وأنه ركب في بعض الايام متصيداً، فألقاه فرسه في هوة من الأرض فقتله، وأراح الله الناس منه.

وكان ابنه الريان ينكر فعله ولا يرضاه منه فلما هلك عمل له ناووساً قرب الاهرام، وقيل انه دفن في أحد الأهرام.

ثم ملك بعده ابنه الريان الملك، وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوس، فجلس على سرير الملك، وكان عظيم الخلق جميل الوجه، عاقلا متمكنا من العلم، فدخل عليه الناس وهنأوه ودعوا له، فتكلم بجميل، ومنى الناس ووعدهم بالاحسان، وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، فدعوا له وأثنوا عليه وشكروه.

فأمر بفتح الخزائن وفرق ما فيها على الخاص والعام ممن حضر مجلسه، فخرجو عنه شاكرين له محبين فيه، فملك وأحسن.وتمكنت منه أريحية الصبا، فملك على البلد رجلاً من أهل بيته يقال له المعين وهو الذي يسميه أهل الأثر العزيز، وكان من أولاد الوزراء عاقلا متمكنا من عقله حصيف الرأي، كثير نزاهة النفس، مستعملاً للعدل والصلاح، وأمر أن ينصب له في قصر الملك سرير من الفضة يجلس عليه.وكان يغدو ويروح إلى باب الملك، ويخرج العمال وجميع الوزراء والكتاب بين يديه عند مسيره وعند رجوعه.فقام بالملك، وكفى الملك مهمه، وأصلح جميع الأمور، ووطأ البلاد وأمن الناس وأقام سوق العدل.

والملك نهراوس منغمس في لذاته، معتكف على لهوه، لا ينظر في عمل ولا يفكر في أمر ولا يخاطبه أحد، فأقاموا لذلك حيناً من الدهر، والبلد عامر، والخراج مدر.

يقال إنه بلغ في وقته تسعة وتسعون الف ألف مثقال فجعلها أقساماً فما كان له ولنسائه ولمائدته حمل اليه، وما كان في أرزاق الجيوش والكهنة والفلاسفة وأصحاب الصنائع ومصانع البلد وإصلاح العقار والحرث والغرس وأصحاب المهن حمل اليهم، وما فضل عن ذلك كله حمل الى خزائن الملك في قصره. ونهراوس مع ذلك غير ناظر في شئ من ذلك ولا سائل عنه، وقد عملت له عدة متنزهات على عدة أيام السنة، فكان في كل يوم في موضع منها، فاذا كان من الغد انتقل الى موضع آخر في كل يوم في موضع من الفرش والآنية ما ليس في غيره.

فلما اتصل ذلك بملوك النواحي طمعوا فيه واستضعفوه، فقصده رجل من العمالقة يقال له عابد بن سجوم، ويكنى بأبي قابوس، فسار قاصداً الى مصر حتى نزل على حد من حدودها.

فأنفذ اليه العزيز جيشاً وجعل عليه قائداً يقال له دوناس، فقتله ذلك الملك وهزم عسكره، ودخل حدود مصر فهدم أعلاماً ومصانع كثيرة، واشتد طمعه في مصر وجهاتها.

واتصل خبره بأهل مصر فاعظموا ذلك وأكبروه واجتمعوا إلى العزير فأمرهم أن يسيروا الى قصر الملك،

فأتوا الى قصر الملك وجعلوا يصيحون ويستغيثون، فسمعهم نهراوس، فسأل عن حالهم، فأخبر خبر العمالقي وأنه قد دخل حدود مصر وعاث فيها، وأفسد مزارعها وغير مصانعها، وهدم أعلامها وأنه مقبل بجيوشه يريد قصر الملك، فارتاع لذلك وأنف منه، وانتبه من غفلته.

وتذكر القبط أنه سمع نياح الجن على أبيه، فارتاع لذلك فعرض جيشه وأصلح أمره، وخرج إلى العمالقي واتبعه الى حدود الشام وقتل أكثر اصحابه، وأفسد الزرع وقطع الأشجار، وأحرق الديار وصلب من أسره من الجيوش ونصب أعلاماً على الموضع الذي بلغه أي لمن جاوز هذا المكان.

وقيل إنه بلغ الموصل، وضرب على أهل الشام خراجاً وبنى عند العريش مدينة عظيمة وشحنها بالرجال وملأ تلك النواحي بالجنود، وانصرف إلى مصر فلما فعل ذلك هابته الملوك، وفزعوا منه وأعظموه وهادوه وصالحوه.

ولما استقر بمصر حشد جنوده من جميع الأعمال، واستعد لغزو ملوك الغرب، فخرج في تسعمائة ألف مقاتل واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحى عن طريقه، ومنهم من دخل في طاعته، ومنهم من بذل الأموال والذخائر وصالح بلده، ومنهم من قهره واستباحه.

ومر بأرض البربر فأخذ كثيراً منها، ووجه قائداً يقال له مريطس، فركب في سفن كثيرة وأخذ سواحل البحر فقتل بعض البربر، ودخل أرضهم وصالحه بعضهم، وحملوا اليه الأموال.

ومضى الملك إلى إفريقية وقرطاجنة، فصالحوه على ألطاف وأموال كثيرة حملوها اليه.

ومر حتى بلغ مصب البحر الأخضر إلى بحر الروم، وعمل هناك صنماً من نحاس وهو الموضع الذي فيه الأصنام القديمة، وأقام تحته علماً عظيماً زبر عليه اسمه وتاريخ الوقت، وصفة الأمر الذي خرج اليه، وضرب على أهل تلك النواحي خراجاً.

وعبر إلى الأرض الكبيرة وسار إلى الافرنجة وسار إلى الأندلس، وصاحبها عند ذلك اللاذريق، فحاربه أياماً، وقتل من اصحابه خلقاً كثيراً.

وصالحوه بعد ذلك على ذهب كثير في كل سنة يحمل اليه، وعلى ان لا يغزو أحداً في البحر ولا في البر شيئاً من حدوده، من جميع من في تلك النواحي، وعلى أن يمنع من رام شيئاً منهم من ذلك ويغالبهم عنه.

وانصرف راجعاً عنه، فسار على عبر البحر مشرقاً على بلاد البربر، فلم يمر بموضع إلا خرج اليه أهله وأهدوه ودخلوا في طاعته، ومشوا بين يديه وأخذ إلى ناحية الجنوب فمر بناحية الكوفاس وهي أمة عظيمة فحاربوه فقتل منهم خلقاً كثيراً.

وبعث قائداً له إلى مدينة على ساحل البحر المظلم، فخرج اليه ملك المدينة وأهلها يسألونه ما هو وما قصده؟ فعرفهم القائد بحال الملك الريان وإذعان الملوك له ومصالحتهم إياه.فقالوا له أمانحن فما بلغنا أحد

قط ولا رأيناه ولا ضرنا أحد ولا ضاررناه.وأخرجوا اليه مالا وجوهراً وصالحوه على مدينتهم. فقبل ذلك منهم وسألهم هل ركب هذا البحر أحد قط ؟ فقالوا جميعهم إنه ما يستطيع أحد أن يركبه، وأخبروه أنه ربما أظله الغمام فلا يرونه أياماً.

ثم أتاهم الملك الريان فتلقوه بهدايا وفاكهة أكثرها التوت وحجارة سود فاذا جعلت في الماء صارت بيضاء.

وسار على أمم السودان حتى بلغ إلى مملكة الزموم الذين يأكلون الناس، فخرجوا اليه عراة بأيديهم حراب الحديد، وخرج ملكهم على دابة عظيمة الخلق لها قرون، وكان جسيماً أحمر العينين فصبر للحرب صبراً عظيماً ثم ظفر به الريان، فانهزموا في أوحال وأدغال وغيران وجبال وعرة فلم يتهيأ له أتباعهم فيها فجاوزهم إلى قوم على خلق القرود لهم أجنحة خفاف يلتفون بها من غير ريش ومر على البحر المظلم، فلما أمعن في السير فيه غشيهم منه غمام فرجع متيامنا، حتى انتهى إلى جبل نبارس، فرأى فوقه، تمثالاً من حجر أحمر يوميء بيده، أن ارجعوا وعلى صدره مزبوراً" ما ورائي احد" وانتهى إلى مدينة النحاس فلم يصل اليها، ثم مضى في الوادي المظلم، فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة، ولا يرون شيئاً منه لشدة ظلمته.

ثم سار حتى انتهى إلى وادي الرمل فرأى على عين أصناماً عليها اسماء الملوك قبله، فأقام صنماً وزبر عليه اسمه، فلما عدا وادي الرمل جاز إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود المظلم، فسمع جلبة وصياحاً هائلاً، فخرج في شجعان من أصحابه يتبعون ذلك الصياح حتى أشرف على سباع عظيمة غريبة الخلق مخزمة الأنوف وبعضها يغير على بعض فيأكل بعضها بعضاً، فعلم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع وعدى وادي الرمل، فمر بأرض العقارب فأهلكت بعض أصحابه فرجعوها عن أنفسهم بالنار وبالرقا والعزائم التي كانوا قد عرفوها حتى جاوزها.

وسار حتى انتهى إلى أرض سلوقة، وكانت بها حية تخرج عن الحد والمقدار، فرأوها ممتدة فظنوها ميتة، فهمموا عليها فوجدوهاحية فرجعوا عنها هاربين وتعوذوا منها بالرقا.

وتزعم القبط أنه سحرها، ومنعها من الحركة، وتركها على حالها، فلم تتحرك حتى هلكت ويقال إن طول هذه الحية ميل وإنها كانت تبتلع الفيلة. وسار إلى مدينة الكند وهي مدينة الحكماء، فهربوا إلى جبل وعر كان لهم صعدوا اليه من داخل مدينتهم من مواضع لا يقدر هو ولا أصحابه على الصعود فيها، فأقام على تلك الطريق يحرسها حتى عدم الماء و لم يجد منه شيئاً وضاع أصحابه، وكادوا أن يهلكوا عطشاً.

فنزل اليه رجل منهم يقال له ميدوش وكان من افضل الحكماء وقد غطى شعره جسده فقال له أيها الملك

المغرور أين تريد، وقد مد لك في الأجل، ورزقت فوق الكفاية. ففيم تتعب نفسك وجيشك، هلا قنعت بما تملكه، واتكلت على خالقك الذي وهبك الغنى، وأعانك بهذا الخلق! فعجت نهراوس من قوله وسأله عن الماء فدله عليه. وسأله عن موضعهم إذ لم يكن أصاب في جيشهم أثراً لسكناهم.قال نحن في موضع لا يصل اليه أحد.

قال فما معاشكم؟ قال من أصول نبات لنا نعتصم به ونقنع فيقيتنا ويكفينا اليسيرمنه. قال فمن أين تشربون؟ قال من غدران لنا في الأرض يجتمع اليها الماء من الأمطاروالثلوج.

قال فلم هربتم عنا؟ قال رغبة عن جواركم، وزهادة في خلطتكم وكراهة لقربكم، وإلا فليس لنا ما نخافكم عليه.

قال فأين تكونون إذا حميت الشمس؟ قال في غيران لنا تحت هذا الجبل.قال فهل تحتاجون إلى مال أخلفه لكم؟ قال إنما يحتاج إلى هذا المال أهل البذخ.ونحن لا نستعمل شيئاً منه فاستغنينا عنه بما قد اكتفينا به. ومع ذلك فإنا قد رزقنا منه ما لو رأيته لحقرت ما عندك قال فأرنيه!قال فسر معي، قال فانطلق الملك ونفر من أصحابه معه إلى أرض في سفح جبل يتصل بهم فرأوا فيه قضبان الذهب نابتاً، وأروه وادياً لهم على حافتيه حجارة الزبرجد والفيروزج.

فأمر نهراوس أصحابه أن يتخيروا من جياد تلك الحجارة، ويحملوا منها ما يقدروا عليه ففعلوا، ورجع بهم إلى مصر فرأوا قوما من أهل العسكر يحملون صنما لهم ويعظمون امره، فجزع من ذلك، وسأل الرجلٍ الملك أن يقيم بأرضهم، ونهاه عن عبادة الأصنام وخوفهم منها.

فسأله نهراوس أن يدله على الطريق، ففعل وودعه وسار على السمت الذي وصفه له، فلم يمر علىأمة إلا أثر فيها أثراً إلى أن بلغ الى ارض النوبة، فصالح أهله على ما يحملونه اليه ثم أتى إلى دنقلة فأقام بها علما وزبر اسمه عليه ومسيره وجميع ما عمله في سفرته تلك.

ثم سار منها يريد منف فلم يبق احد إلا خرج إليه مع العزيز، وتلقوه بأصناف الطيب والرياحين والبخورات والملاهي وغرائب الالعاب. وكان العزيز قد بنى له مجلسا من الزجاج الغريب الابيض الصنعة الملون، وجعل فيه صهريجاً من زجاج سماوي، وجعل في ارضه سمكا من الزجاج الغريب.

فلما دخل منف أنزله العزيز في ذلك المجلس، وأقام الناس أياماً في لهو وسرور يأكلون ويشربون. وأمر بعرض جيشه ففقد سبعين ألفاً، وقد كانوا خرجوا في ألف ألف، وكانت غيبته أحد عشر عاماً.

ولما سمع الملوك بذكر ما عمل في سفره، وما غلب من الأمم، وما فتح من البلاد، وقتل وأسر من الخلق هابوه وخافوه، لشدة بأسه وعظيم سلطانه.

وتجبر نهراوس فبنى في الجانب الغربي قصورا من رخام، ونصب عليهاأعلاما فكان يغشاها أبداً، ويقيم فيها

اياما كثيرة، وكان الخراج في وقته تسعة وتسعين ألف ألف، فامر بالزيادة في طلب العمارات، وطلب وجوه الزيادة فيها من احسن الطرقات لامن رديئها.

وأمر باصلاح الجسور في الجهات، والتحمل في أن يزيد الماء في انبساطه في الأرض، ففعل ذلك كله حتى وافى الخراج مراده وزاد عليه.

وقالت القبط: إن في مدته دخل البلد غلام من الشام له أخوة يحسدونه، فاحتالوا عليه حتى بيع من تجار يقصدون مصر، وكانت قوافل الشام تعرس بمصر بناحية الموقف اليوم، فأوقف الغلام للبيع ونودي عليه، وهو يوسف الصديق عليه السلام، فبلغ وزنه ذهبا ووزنه فضة فاشتراه العزيزليهديه للملك، فلماأتى به إلى مترله رأته زليخا امرأته، وكانت ابنة عمه فقالت له اتركه عندنا نربيه ففعل، وكان من أمره معها وعشقها له ما قصه الله تعالى في كتابه، وكانت تكتم حبها عنه، حتى غلبها الأمر، فتزينت له وجاءته فعرفته عشقها له، وأنها مطاوعة له في كل ما يريده منها، وأنهالا بد لها منه، وحبته بمال عظيم، فامتنع عليها، ولم يجد عنها مهربا، فرامت تقبيله فأبى عليها فهجمت عليه ولم تزل تعاركه وهو يمتنع إلى ان دخل زوجها فوجده هاربا عنها وكان عنينا لايأتي النساء، فقال لهما ما هذا فجعل يوسف عليه السلام يعتذر اليه، وقالت هي كنت نائمة فأتاني يراودني عن نفسي، ففطن أن الأمر كان منها.

فقال ليوسف عليه السلام أعرض عن هذا أي عن اعتذارك، وقال لزليخا استغفري لذنبك، فانك قد أخطأت.

واتصل خبر الغلام وجماله بالملك، وأن العزيز ابتاعه له، فلما لم يره سأله عنه انكر المعين أمره وغير له خبره، وغلظ فيه عليه، وثقف الغلام عنده في القصر ومنعه الخروج فنسي خبره.

وكان نهراوس قد عاود الانعكاف على اللذات، والاحتجاب عن الناس لما كان العزيز كفاه من أمر الملك والرعية.

واتصل خبر زليخا مع يوسف عليه السلام بنساء من نساء اصحاب الملك فعيرنهابذلك.

فأحضرت منهن جماعة وعملت لهن طعاماً، فلما أكلنه أحضرت لهن شراباً، وأجلستهن مجلسين مجلساً حذاء مجلس، منهبين جميعاً، وفرشتهما بالديباج الأصفر المذهب، وأرخت عليهما ستور الحرير والديباج. وجلسن فيهما للشراب وقدمت بين ايديهن فاكهة كثيرة، وسكاكين أنصبتها من الجوهر، وقالت لهن اقطعن من هذه الفاكهة بهذه السكاكين، ويقال إن الذي كان يترل بين ايديهن أترج وهو المتكأ، فأمرت المواشط بتزيين يوسف عليه السلام وإخراجه إلى المجلس الذي كانت تجلس هي فيه والنسوة للشراب.وكانت الشمس ذلك الوقت محاذية لذلك المجلس فأخذته المواشط ونظمن شعره باصناف

الجوهر. وألبسنه ثوب ديباج اصفر منسوج بدوائر مذهبة.

وفيها صور خضر صفار وعدلن شعره على جبينه إلى قرب حاجبيه ووصلن جبهته، وعقربن على خديه صدغيه، وردن ذؤابته على صدره ودفعن اليه بمذبة ذهب شعرها أخضر.

فلما فرغ النسوة من أكلهن وجلسن للشرب وأحضرت الفواكه وسقتهن أقداحاً. دفعت اليهن السكاكين، وقالت لهن قدبلغني ما أخذتن فيه من أمري مع عبدي فقلن لها إن الامر على ما بلغك إلا أنك أعلى عندنا قدراً من هذا. ومثلك يرتفع عن اولاد الملوك لحسنك وشرفك وعقلك، فكيف كنت ترضين بعبدك؟ قالت لم يبلغكن الصدق عني. و لم ارض لنفسي بذلك، فلو رضيته لكان هو اهلا لذلك، وأشارت إلى المواشط باخراجه، فرفعت ستور المجلس الذي يحاذي مجلسها.

واقبل يوسف عليه السلام والمذبة بيده، وهن يرمقنه، محاذيا للشمس فأشرق المجلس وما فيه بوجه يوسف عليه السلام وارسل مع نور الشمس شعاعا فكاد يخطف ابصارهن.

واقبل يوسف عليه السلام والمذبة بيده وهن يرمقنه حتى وقف على رأسها يذب عنها، وهن لايعقلن، وقد وضعن تلك السكاكين على أيديهن وأصابعهن، فقطعنها مكان الفاكهة ولا يشعرن بذلك ولا يجدن ألماً وهي تخاطبهن فلا يفهمن خطابها للذي أدهشهن من النظر إلى وجه يوسف عليه السلام.

فقالت لهن زليخا ما لكن قد اشتغلتن عن فهم خطابي بالنظر إلى عبدي؟ فقلن معاذ الله أن يكون هذا عبدك أو يكون هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم، و لم تبق منهن واحد الا أنزلت وحاضت من محبته.

فقالت لهن زليخا عند ذلك فهذا الذي لمتني فيه، فقلن لها ماينبغي لأحد أن يلومك بعد هذا، ومن لامك فقد ظلمك فدونكه، وقالت قد فعلت فأبى علي فخاطبنه إن قدرتن وأعدنه الخير مني وحذرنه عقوبتي على رده لي، فكانت كل واحدة منهن تدعوه إلى نفسها سراً، وتبذل له ما قدرت عليه وهو يمتنع، فاذا قطعت رجاءها منه لنفسها حينئذ خاطبته عن زليخا، وقالت له مولاتك تحبك وأنت تكرهها، وما ينبغي أن تخالفها وهي تبلغك إلى افضل المنازل، وتعطيك من الأموال والجواهر فوق ما يرضيك، فيقول ما لي بذلك من حاجة، فلما رأين ذلك منه أجمعن على أخذه غصباً، فقالت زليخا ما يجوز ذلك ولايمكن، ولكنه ان لم يفعل لأمنعنه اللذات ولأنزعن عنه جميع ما أعطيته ولأسجننه. فقال يوسف عليه السلام رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه، فأقسمت بالهها وكان صنما من زبرجد أخضر باسم عطارد أنه إن لن يجبها إلى ما تريده لتجعلن له ذلك، وكشفت عن الصنم واستعانته على أمره، ثم أمرت بنزع ثيابه وألبسته الصوف وسألت زوجها أن يحبسه لها ليزول عنها ذكرها به فمال إلى قولها لئلا يظن الناس بأهله القبيح، وعسى أن ينفي عنها القالة بذلك.

فأمر بحبسه فحبس فأقام في السجن بضع سنين ورأى الملك في منامه كأن آتيا أتاه فقال له إن فلاماً وفلانا قد عزما على قتلك وكان صاحبي طعامه وشرابه. وفي غد تقف على أمرهما فلما أصبح قررهما فاعترفا وقيل اعترف احدهما، وأنكر الآخر فامر بحبسهما وكان اسم صاحب الشراب مرطيس.

وكان يوسف عليه السلام براً رءوفا بأهل السجن يصبرهم ويعظهم ويعدهم بالفرج، ويفسر احلامهم إلى أن اخبره صاحب طعام الملك وصاحب شرابه برؤياهما كماجاء به القرآن، فأخرجا من السجن. وكان كما أخبرهما ان قتل أحدهم وهو الذي اقر ونجا الآخر الذي لم يقر وهو صاحب الشراب.

ولما رأى الملك في نومه البقرات والسنابل وأراد أن يعبر رؤياه عرفه الساقي خبر يوسف عليه السلام. فأرسل إليه الى السجن ففسرها له وقيل إن الملك قال للرسول سله عن الرؤيا قبل أن تقصها عليه ففعل فقال الملك عند ذلك فجئني به فرجع الرسول إليه ليخرجه ويحمله إلى الملك فقال له يوسف عليه السلام لست أخرج حتى يكشف الملك عن امر النسوة اللاتي قطعن ايديهن وحبست من اجلهن.

فأمر الملك في الوقت فأحضرت زليخا والنسوة وكشف عن حقيقة الأمر فوقف عليه، وأقرت زليخا والنسوة بما كان منها.

فوجه الملك إليه وأخرج من السجن وغسل من درنه ونظف وألبس من الثيات مايليق به مثله على الملك. فلما دخل على الملك ورآه امتلأ قلبه من حبه.فانزله وأكرمه وسأله عن الرؤيا ففسرها له كما قال الله عز وجل في كتابه. فقال الملك ومن يقوم بذلك؟ فقال له يوسف عليه السلام أنا فإني به عليم. فخلع عليه خلع الملك وألبسه تاجا. وأمر أن يطاف به، ويركب الجيوش معه. ويرد إلى قصر الملك، ويجلس على سرير العزيز، فكان ذلك واستخلفه الملك مكانه وسماه العزيز.

وقال قوم كان العزيز قد هلك، فتزوج يوسف عليه السلام امرأته، فلما خلا بها قال لها هذا أفضل مماكنت أردت؟ فقالت له إن زوجي كان عنينا ولم ترك امرأة في حسنك وهيبتك إلا صبا قلبها إليك فأقام يوسف عليه السلام يدير ملك مصر كيف شاء وجاءت سني الخصب فاخذ يوسف غلاتها فخزن اكثرها في سنابلها، واشترى الغلات الجسيمة، وأكثر غلات الناس، وخزن من ذلك ما لا يحصر قدره. ثم جاءت سني الجدب وبدأ النيل في النقصان، فكان ينقص في كل سنة اكثر من نقصانه في السنة التي قبلها، فغلا السعر حتى بيع المأكول بالجوهر والمال والثياب والآنية والعقار. وكاد أهل مصر أن يرحلوا عنها لولا تدبير يوسف عليه السلام، وقحط أهل الشام، فكان من قصة إخوة يوسف ما قصه الله تعالى في كتابه.

ووجه يوسف إلى أبيه فحمله إلى مصر وجميع أهله، وخرج في وجوه أهل مصر فتاقاه وأدخله على الملك، فأحبه الملك وعظمه.

فقال له ياشيخ كم سنك، وما صناعتك، وما الذي تعبده؟ فقال له أما سني فعشرون ومائة سنة، وأما صناعتي فلنا غنم نرعاها فنحن ننتفع بها ونعيش منها، وأما الذي أعبده فرب العالمين، وهو رب آبائي وآبائك وإلهي وإلهك وإله كل مخلوق وخالق كل شيء.

وكان في مجلس الملك كاهن عظيم القدر عندهم، يقال له فيناس، فلما سمع قول يعقوب عليه السلام ضاق به ذرعا، وقال لنهراوس بلغتهم إنه يجري خراب مصر على يد ولد هذا فقال له نهراوس، فبين لنا خبره.

قال فيناس ليعقوب عليه السلام إن كل إله لا تراه العيون فليس بشيء، فغضب يعقوب عليه السلام وقال كذبت أي عدو الله، وطغيت في هذه الدنيا، إن الله تعالى شيء وليس كالأشياء، وهو خالق كل شيء لا إله غيره.قال فصفه لنا، قال إنما يوصف المخلوق لا الخالق عز وجل، لأنه ارتفع عن الصفات، فهو واحد قديم أول أزلي قاض بكل شيء مدبر لكل شيء بلا كيف هو، حاضر في كل مكان لم يعزب عن علمه مثقال ذرة في ظلمات البحر، ولا اعماق الأرض، ولا في اطباق السماوات وهو يرى ولا تراه العيون ولا يحيط به فكر ولا يحويه مكان، وكان قبل المكان والزمان، وخلق المكان والزمان.

ثم قام يعقوب صلى الله عليه وسلم مغضبا ليخرج، فأجلسه الملك وأمر فيناس ان يكف عنه، ويأخذ في غير ذلك، قال كم عدة من دخل معك من الرجال؟ قال ستون رجلا.

قال فيناس للملك كذلك نجد في كتبنا ان خراب مصر يجري على يد قوم يدخلون مصر في هذا العدد من الشأم من صنف هؤلاء.

قال الملك أيكون ذلك في ايامنا؟ قال لا ولكن إلى أمد بعيد، ولكن الصواب أن يقتله الملك ولا يستبقي من ذريته أحدا.

قال الملك نهراوس إن كان الأمر كما تقول فلا يمكننا دفعه ولا علينامنه ضرورة إذا لم نخف أن يجري ذلك في مدتنا أن نقتل هؤلاء القوم، وهم يذكرون أمر إله عظيم.

وغيرنا ممن يخاف أن يدور ذلك عليه أحق بالنظر فيه، وقد قبل قلبي قول هذا الرجل، وأعجبني امره، وهو شيخ جليل القدر، وليس إلى إذايته سبيل، فخاطبه بألين كلام وناظره إن شاء مناظرتك.

فجرت بين يعقوب عليه السلام وبين فيناس بعد ذلك مخاطبات لين له فيها القول وظهر فيها يعقوب عليه السلام عليه.

أحب يعقوب أن يعرف خبر مصر ومدائنها وعجائبها وسحرها وطلسماتها، فسأل عن قليل ذلك وكثيره فيناس عند خلوته به. واستحلفه بحق فرعون أن لا يكتمه شيئا منه، فوصف له ذلك كله وبينه وشرح

غرائبه، حتى لم يخف عن يعقوب عليه السلام شيئا منها.

فأقام يعقوب بمصر ونهراوس يجله ويعظمه إلى ان حضرته الوفاة، فأوصى أن يحمل إلى مكانه من الشام، فجعل في تابوت، وخرج معه يوسف عليه السلام ووجوه أهل مصر حتى بلغوه إلى موضعه، ودفن فيه عليه السلام، وقيل إن عيصو منعه من دفنه هناك لأن إسحق عليه السلام وهبه الموضع، فاشتراه يوسف عليه السلام منه بحكمه، ودفنه فيه.

وأقام يوسف بمصر وولد له فيها، ويقال إن نهراوس آمن بيوسف عليه السلام، وكتم أيمانه خوفا من فساد ملكه.

وملك نهراوس مائة وعشرين سنة، وفي وقته عمل يوسف عليه السلام الفيوم لابنة الملك، وكان أهل مصر قد تنقصوا الملك، وقالوا قد كبر وذهب عقله، فاخبره يوسف عليه السلام، فقال نهراوس ما أبالي ولكني قد وهبت لابنتي ناحية كذا وكذا، وهي مغايض مياه ومروج، وأحب أن أدفع عنها صبيب المياه وأخرج عنها ما حصل فيها حتى ترجع ارضا عامرة مغلة، فاعمل في ذلك واحكم مايمكن.

فخرج يوسف عليه السلام فدبرها وأخرج المياه منها، وقطع مادتها منها، وبنى جسورها وقلع أدغالها وردها ارضاً عظيمة العمارة جسيمة الغلة، وهي أرض الفيوم، وفرغ من ذلك كله في مدة قريبة، فعجب الناس من فطنة الملك وحكمة يوسف عليه السلام.

ويقال أن نهراوس أول من بنى بمصر وبنى اللاهون، وجعل الماء فيه مقسوماً موزوناً، ثم مات نهراوس.

واستخلف ابنه دريموس، ويسميه أهل الأثر داروم بن الريان وهو بن الريان وهوالفرعون الرابع عندهم.ولما ملك خالف سنة أبيه، وكان يوسف خليفته، لأن أباه أمره بذلك وأكد عليه فيه، فكان يوسف عليه السلام يسدده فربما قبل منه وربما خالفه.

وظهر في وقته معدن فضة على ثلاثة أميال من النيل، فأثار منه شيئاً عظيماً، وعمل منه صنماً على اسم القمر، لأن طالعه كان على السرطان، ونصبه على قصر الرخام الذي كان ابوه بناه في شرقي النيل.

ونصب حوله أصناماً كلها من فضة وألبسها الحرير الأحمر، وعمل للصنم عيداً في كل شهر، وهوإذا دخل القمر بالسرطان.

وكان ينتقل إلى مواضع شتى يتنزه، وكلما أراد أن يضر الناس منعه يوسف عليه السلام من ذلك ودفعه عن رأيه بأي وجه أمكنه، إلى ان مات يوسف عليه السلام وله مائة وثلاث وعشرون سنة، فأمر به داروم فكفن في ثياب الملوك، وجعل في تابوت رخام، ودفن في الجانب الغربي من النيل وخصب، ونقص الجانب الشرقي.

فاخرج تابوته من الجانب الغربي ونقل إلى الجانب الشرقي فدفن فيه ونقص الجانب الغربي.

فاتفق رايهم أن يجعلوه في الجانب الغربي سنة وفي الشرقي سنة، ثم حدث لهم من الرأي أن شدوا حول التابوت حلقا من النحاس وثاقا ثم ربطوه بحبال وشدوه شدا وثيقا محكما ولووه لويا وثيقا ثم دلوه في وسط النيل، وتركوه هناك فأخصب الجانبان جميعاً.

وقيل إن داروم استوزره بعد بلاطس الكاهن، فكان بلاطس يطلق له ما كان يوسف عليه السلام منعه عنه، وعمله على أذى الناس وأخذ أموالهم، فبلغ منهم من ذلك مبلغاً كبيراً.

فكان لايسمع بامرأة حسناء إلا وجه إليها فحملت إليه. وفشا ذلك في المملكة وأضطرب الناس من فعله. فخاف بلاطس ان يفسد أمن المملكة، ويتلف الملك من فعله، فدخل اليه وأشار عليه أن يتودد الى الناس، ويعتذرمنهم ويرد نساءهم، فأمره الملك أن ينادي في الحضورثم لبس افخر ثيابه، ودخل الناس اليه فشكوا اليه ما حل بهم، فاعتذر اليهم وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين.

ثم أمر بعمل قصر من خشب فيه عجائب كثيرة، وكان يركب فيه هو ونساؤه وحشمه، ورجع إلى ما كان عليه من ابتزاز النساء، ونهب الأموال، واستخدام الأشراف والوجوه، من القبط من بني إسرائيل. إلى أن ركب في ذلك القصر يوماً، فلما كان في بعض الليالي وقد أحدق النيل بالبلد، وكان الماء من الجبل الى الجبل، وامتد القمر على الماء وهو في قصره الخشب، فأراد أن يعدي من العدوة إلى العدوة الأخرى، فلم يتهيأ له سوق القصر بسرعة لعظمه، فركب مركباً لطيفاً مع ثلاثة نفر من خدمه وامرأة أبيه الساحرة.

فلما توسط البحر هاجت ريح عاصفة فانقلب المركب وغرق هو ومن معه، وأصبح الناس شاكين في أمره إلى أن وجدت جثته بشطنوف فعرف بخاتمه، وبجوهر كان يتقلد به، فحمل إلى منف.

وقدم الوزير ابنه معازيوس وأجلسه على سرير الملك، وكان صبياً فبايع له الجيش وأسقط عن الناس الخراج الذي كان أبوه أسقطه وزادهم سنة وضمن لهم الاحسان فأطاعوه ورد نساءهم، وهو خامس الفراعنة، وكان في زمنه طوفان آخر ببعض البلد.

وكان وزير أبيه قد هلك، فاستوزر كاهناً يقال له أملادة فلما رأى من الاسرائيليين ما فعلوه أنكره، وأشار أن يفرد لهم من البلد مكانا لئلا بهم يختلط غيرهم، فأقطعوا موضعاً من قبلي منف، وعملوا لأنفسهم متعبداً كانوا يتلون فيه صحف إبراهيم عليه السلام.

وان رجلاً من أهل بيت المملكة عشق امرأة من الاسرائيليين، وأراد أن يتزوج، فأبوا عن ذلك.

وتغلب احد ملوك الكنعانيين على الشام وامتنع أهله ان يحملوا الضريبة إلى ملك مصر، وأقبل على ملازمة الهياكل والتعبد فيها، فأعظم الناس أمره فتجبر في نفسه، وأمر الناس ان يسموه رباً، وترفع أن ينظر في شيء من أمر المملكة، فجمع الناس وقال لهم قد رأيت أن أجعل امر الملك إلى ابني اقسامس وأكون من

ورائه إلى أن يغيب شخصي عنكم كما وعدت، فرضوا ذلك، وقالوا الأمر أمر الملك ونحن عبيده، ومن رضيته الآلهة فحكم الخلق أن يرضوه ولا يخالفوه.

فأقام ابنه أقسامس الملك، وجلس أقسامس على سرير الملك، وتوج بتاج أبيه وأقام الناظرون بين يديه ورتب الناس مراتبهم، وقسم الكور والاعمال، وأمر بأبساط العمارات، وأوسع على الناس في أرزاقهم، وعلا أمره وطال ملكه، وعمل مدنا كثيرةأسفل الأرض وعجائب كثيرة يطول ذكرها ويقال إن بخت نصر لما ظفر بمصر أخذ من عمله عجائب كثيرة، فأقام أول ولايته سبع سنين باجمل أمر وأصلح حال.

ومات وزير أبيه فاستخلف رجل من بيت المملكة، يقال له طلما بن قومس، وكان شجاعاً ساحراً كاهناً كاتباً حكيماً ذهنياً متصرفاً في كل فن.

فصلح أمر المملكة بمكانه واحبه الناس، فعمل معالم كثيرة وعمر الخراب، وبنى مدنا، ورأى في نجومه أنه سيكون جدب وشدة، فاستعمل ما استعمله هراوس الملك وقد تقدم ذكره.

وبنى الهياكل، وقيل إن منارة الاسكندرية بنيت في زمانه، وفي زمانه هاج البحر المالح فغرق كثير من القرى والأخبية والمصانع.

وحكي أن أقسامس تغيب عن الناس مدة، وقيل مات وكتموا موته، وكان ملكه إلى أن غاب عنهم إحدى وثلاثين سنة، وأقاموا إحدى عشرة سنة يدبر ملكهم طلما الكاهن.

ولما افتقد الناس الملك اضطربوا وتغيروا على طلما، واتصل بهم أنه سمه وقتله، فقالوا لا بد لنا من النظر إلى الملك؛ فعرفهم أنه قد تخلى عن الملك وولى ابنه لاطس، فما قبلوا منه، وأمر الجيش فركبوا في السلاح.

وكان لاطس الملك جلس على سرير الملك ولبس التاج وكان جريئاً معجباً خلقا، فوعد الناس جميلا وقال أنا مستقيم لكم ما استقمتم، وإن ملتم عن الواجب ملت عنكم، وألزم الناس اعمالهم، وحط جماعة من الوجوه عن مراتبهم، وصرف طلما بن قومس عما كان عليه من خلافته.

واستخلف رجلاً يقال له لاهوق من ولد صا الاكبر بن تدارس، ودفع اليه خاتمه، وكان كاهناً وأنفذ طلما عاملاً على الصعيد، وأنفذ معه جماعة من الاسرائليين، وجدد بناء الاعلام وأصلح الهياكل، وبنى قرى كثيرة، وأثيرت في وقته معادن كثيرة وكنوز.

وكان محباً للخلق ثم تجبر وعلا، وأمر أن لا يجلس أحد في قصر الملك لا كاهن ولاغيره، بل يقومون على ارجلهم إلى ان ينصرفوا، وزاد في أذى الناس والعنف بهم، ثم جمع أموالهم وكنزها، وطلب النساء فابتز منهن خلقاً كثيراً، وقصد الناس بسطوته وفظاظته.

واستعبد بني اسرائيل، وقتل جماعة من الكهنة فبغضه الخاص والعام، ثم حشد عليه طلما الذي صرفه وولاه

الصعيد فجاءه بجيش كثيف، وخرج اليه بلاطس الملك، فحاربه طلما فظفر ببلاطس وقتله، وسار حتى دخل منف فعاث فيها ونزل قصر المملكة طلما بن قومس، فجلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان في خزائنهم فهذا الذي تذكر القبط أنه فرعون موسى صلى الله عليه وعلى نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وأما أهل الأثر فيزعمون انه الوليد بن مصعب، وأنه من العمالقة وذكروا ان الفراعنة سبعة.

وكان طلما فيما يحكى عنه قصيراً طويل اللحية، أشهل العينين صغير العين اليسرى، في جبينه شامة، وأنه كان أعرج.

وزعم قوم انه كان لقيطاً، والدليل على ذلك ميله اليهم ونكاحه فيهم، ولما جلس في الملك اضطرب الناس عليه، فبذل الأموال ورغب من أطاعه، وقتل من خالفه فاعتدل أمره. وكان أول ما عمله أن رتب المراتب وشيد الأعلام وبنى المدن، وخندق الخنادق، وعمل بناحية العريش حصناً، وكذلك على حدود مصر، واستخلف هامان وكان يقرب منه في نفسه.

وأثار بعض الكنوز وصرفها في بناء المدائن والعمارات، وحفر خلجاناً كثيرة، ويقال أنه الذي حفر خليج سودوس، فكان كلما عرجه إلى قرية من قرى الحوف حمل اليه أهلها مالا، فاجتمع من ذلك شئ كثير، فأمر برده على أهله.

وبلغ الخراج في وقته سبعاً وستين ألف ألف، وكان يترل الناس على منازلهم وهو أول من عرف العرفاء على الناس.

وكان ممن صحبه من الاسرائيليين رجل يقال له إمرى وهو عمران أبو موسى عليه السلام، فجعله حرساً لقصره يتولى حفظه وإغلاقه بالليل. وكان قد رأى في كهانته أنه يجري هلاكه على يد مولود من الاسرائيليين فمنعهم المناكحة ثلاث سنين لأنه رأى أن ذلك المولود يكون فيها، وأن امرأة إمرى يعني عمران أتته بعض الليالي بشيءأصلحته له فواقعها فحملت بهارون، ثم واقعها في السنة الثالثة فحملت بموسى عليهما السلام، فرأى في كهانته أنه قد حمل بذلك المولود، فأمر بذبح المولودين الذكور من بني إسرائيل، ولم يتعرض لأمرى لقربه منه، ولحراسته قصره.

الا أن موسى كان من أمره ما قصه الله عز وجل في كتابه من أمر التابوت وقذف أمه في النيل إلى أن صار الى تحت قصره، وأخذ امرأته له واسترضاعها لأمه.

وامتنع فرعون من قتله إلى أن كبر وعظم شأنه، ورد فرعون كثيرا من أمره وجعله من قواده، وكانت له سطوة، ثم وجهه لغزو الكوشانيين، وكانوا قد عاثوا في أطراف مصر، فخرج في جيش كثيف ورزقه الله الظفر، فقتل منهم خلقاً وأسر خلقاً وانصرف غانما سالماً، فسر به فرعون وامرأته.

فاستولى وهو غلام على كثير من أمر فرعون، وأراد أن يستخلفه حتى قتل رجلاً من أشراف القبط،

وكان يقرب من فرعون فهرب منه.
وخرج الى ناحية مدين، وتزوج ابنة ثيرون، وهوشعيب عليهما السلام علىان يرعى غنمه وأنسأه بأجلين فقضى أتمهما وأرسله الله الى فرعون.

وولدت امرأته فذهب يقتبس لها ناراً، فكلمه الله تعالى في جبل الطور، وقال له: أمض الى فرعون، وايده باخيه فترك امراته محلهاومضى لرسالة ربه.
وولدت امرأته فأرسل الله تعالى جبريل بما يصلحها من آلة الولادة وختن ابنها، وكانت الغنم تغدو من عندها وترجع اليها بغير راع.
وحمل جبريل عليه السلام الغلام حتى أراه موسى وهوسائر الى مصر فقبله، وتفل في فيه ورده الى امه، ومر بها رجل من آل شعيب فردها الى مدين، وصار موسى إلى مصر ولقي اخاه هارون و لم يثبته لطول غيبته، وكان يغتسل على شاطيء النيل، فاستضافه فأضافه وأطعمه جلبانا مطبوخاً قد ثرد فيه ثريد، وتعارفا وسر بعضهما ببعض وعرفه ان الله عز وجل أرسله ونبأه هو واخوه، وجعله له عضداً.
وغدوا الى فرعون وأقاما اياما، وعلى كل واحد منهما جبة صوف، ومعه عصاه التي أخذها من شعيب عليه السلام ومنها كانت احدى آياته، فكانا يأتيان في كل يوم ويجلسان ببابه فلا يصلان الى فرعون لشدة حجابه، الى ان دخل اليه مضحك كان له فعرفه حالهما، وقال بالباب رجلان يطلبان الاذن عليك، ويزعمان أن إلههما أرسلهما اليك، فأمر بإدخالهما وخاطبه موسى وأراه آية العصا، وآيته في بياض اليد، وهما آيتان من تسع، وكان من خطابه إياه ماقصه الله تعالى في كتابه.
فغاظ فرعون أمره وهم بقتله فمنعه الله تعالى منه وشغله عنه، ورأى طلما فرعون كأن على صورة غمامة قد اقبلت، فمسحت على عيونهم فعموا.ثم أمر قوما آخرين بقتله، فرأى كأن ناراً قد أتت فاحرقتهم، فازداد عليه غيظاً، وقال له من أين لك هذه النواميس العظام؟ أسحرة بلدي علموك هذا، أم تعلمته بعد خروجك من عندنا؟ قال هذا من ناموس السماء، وليس من نواميس الأرض.قال ومن صاحبه؟ قال صاحب البنية العليا، قال بل علمتهامن بلدي؛ وأمر بجمع السحرة والكهنة واصحاب النواميس فقال أخرجوا عليّ أرفع اعمالكم، فإني أرى نواميس هذا الساحر رفيعة جداً، فعرضوا عليه اعمالهم فسره ذلك، وأحضره وقال له فقت على سحرك وعندي من يوفي عليك، فواعدهم يوم الزينة، وهو يوم عيد كان لهم، على ان من غلب منهما اتبعه الاخر، وكان جماعة من أهل البلد اتبعوا موسى صلىالله عليه وسلم وكانت السحرة مائة الف وأربعين ألفاً، فعملوا من الاعمال ما يرىالوجوه ملونة ومشوهة، ومنها الطويل ومنها العريض، ومنا المقلوب جبهته إلى اسفل ولحيته الى فوق، ومنهاما له قرون ومنها ما هو

عظيم على قدر الترس ومنها ما له آذان عظام، ومنها ما يشبه وجوه القرود.

وفي كل فن وفي كل صورة، وأجساماً عظاماً ما تبلغ السحاب، وحيات عظيمة بأجنحة تطير الى الهواء، ويرجع بعضها على بعض.

وحيات يخرج من أفواهها نار يخيل للعالم انها تكاد تحرقه، وحيات برءوس وشعور، وأذناب فيها رءوس، وتماثيل في طرق الشياطين. ثم عملوا دخاناً يغشى أبصار الناس، فلا يرى بعضهم بعضاً، ودخاناً يظهر صوراً مثل النيران في الجو، على دواب مثل ذلك يصدم بعضها بعضاً، وتسمع لها قعاقع وضجة، وصوراً اخرى على دواب خضر، وصوراً سوداً على دواب سود.

فلما رأى فرعون ذلك سر هو وجماعته ممن حضر معه، وأغتنم موسىصلى الله عليه وسلم، ومن كان آمن به وكفر بفرعون خوفا على فتنة الناس بذلك وضلالهم.

وكان للسحرة ثلاث رءوس، فلما رأى موسى صلوات الله عليه ذلك وضاق به ذراعا أتاه جبريل عليه السلام، وقال له لا تخف إنك انت الأعلى وألق ما في يمينك، فسر بذلك موسى عليه السلام، وطمع في إيمان الناس وسكن خوفه فأسر إلى عظماء السحرة وقال قد رأيت ما صنعتم، فان قهرتكم أتؤمنون بالله ؟ قالوا نشهد لنفعلن، فرآه فرعون، وقد اسر اليهم فغاظه وهم بمعاجلة الجميع، ثم توقف ليعلم آخر القضية، والناس يهزؤون منه ومن أخيه وعليهما دراعتان من صوف، وقد احتزما بالليف، ومع موسى عليه السلام عصاه.

فسمى موسى عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم ثم حلق العصا ورفعها في الجو ورفعها جبريل عليه السلام حتى غابت عن عيوهم، ثم اقبلت في صورة ثعبان عظيم له عينان كالترس تتوقدان ناراً، وتخرج من فيه ومن منخره، وهو يزيد غضباً لله تعالى فلا يقع من زبده شيء على أحد إلا أبرصه وبرصت من ذلك ابنة فرعون والثعبان فاتح فاه.

وذكر أن امه كانت حاضرة قريبا منهم، فابتلع الثعبان جميع ما عملته السحرة ومائتي مركب كانت مملوءة عصيا وحبالا، وجميع من كان فيها من الملاحين.

وكان في النهر الذي يتصل بدار فرعون عمد كبيرة وحجارة، وكانت قد حملت إلى هناك ليبنىبها، وأقبل الثعبان إلى قصر فرعون ليبلعه، وكان في قبة له على جانب القصر يشرف على عمل السحرة، فوضع الثعبان نابه تحت القصر، ورفع بابه الآخر إلى اعلى القبة ولهب النار يخرج من فيه، وقد احرق مواضع من القصر، فصاح فرعون عندذلك، واستغاث بموسى صلى الله عليه وسلم فزجره فعطف على الناس ليبتلعهم، وبلع بعضهم فسقط بعضهم على وجوه بعض.

وذهب ليبتلعهم فأمسكه موسى عليه السلام، وعاد في يده عصا كما كانت و لم يروا لتلك المراكب أثرا، وكان فيها من الحبال والعصي والناس والأعمدة والحجارة وما شربه من ماء النهر حتى بانت أرضه ترابا. فلما رأى السحرة ذلك، و لم يروا لتلك الأعيان اثرا قالوا ما هذا عمل الآدميين ! وانما نصنع مخاييل لا تغيب عن الأعيان، فقال لهم موسى أوفوا بوعدكم وإلا سلطته عليكم فيبتلعكم كما ابتلع غيركم.

فعندها آمن السحرة بموسى عليه السلام، وجاهروا فرعون، وقالوا هذا من فعل إله السموات وليس من فعل إله الارض.فقال فرعون قد علمت أنكم واطأتموه علي وعلى ملكي حسدا منكم لي، وأمر مثل ذلك، وجاهره فقطعت ايديهم وأرجلهم من خلاف.

وكانوا يرون مساكنهم من الجنة قبل أن يموتوا، وجاهرته امرأته ففعل بها المؤمن ففعل به مثل ذلك.

وكان الروحاني قد قال له إني رب السماء وأنت رب الأرض قد استخلفتك فيها، فأنت رب كل من سكنها من الخلق، فتجبر وادعى الربوبية وشق الانهار وغرس الأشجار. فلما كان من امر موسى عليه السلام ما كان، فسد ذلك الروحاني وسقطت الطلسمات، وبعض الهياكل والمنارات وخرت الأصنام على وجهها، وعلت آيات موسى، وبطل ما كان من الطوفان والجراد والقمل والضفادع، فتحول ماؤهم دما، فكانت الاسرائيلية تسقي القبطية من فمها ماء فيعود في فم القبطية دما عبيطا، وتعض على الرغيف لتأكل منه فتعض على الضفدع، واتلف الجراد والقمل جميع زروعهم، وهدم الماء ابنيتهم، وبعض منازلهم وتبين للناس أنه لا ينفعهم.

وضاق صدر فرعون من ذلك فرجع إلى مداراة موسى عليه السلام، ووعده أن يستخلفه على ملكه، وأشار عليه هامان والكهان أن لا يفعل. ثم أمر الرعية أن يقتلوا موسى، فخرج جماعة إلى الموضع الذي فيه لذلك، فأتت نار فأحرقتهم. ورأى فرعون كأنه أخذ برجليه، ونكس على رأسه في حظيرة نار، وكأنه يستغيث، ويقول إني لمؤمن بموسى وربه فخلوا عنه، فدعا هامان وعرفه ذلك، وقال له لم يبق بعد هذا شيء، وأريد أن أمن بموسى، فقال له هو الذي عمل لك الرؤيا ليهولك، فتريد أن تكون عبداً بعد ان كنت رباً! وتستخف بك رعيتك، وتسلب ملكك! قال فتلطف به وبعد ذلك منعه منه، وكان يبعث اليه سرا ويستنظره، فلما تم الأجل و لم يفعل فرعون شيئاً كثر البلاء عليهم وتهدمت منازلهم وفسدت زروعهم وكثرت الآيات في منازلهم وكان الناس قد خافوا موسى وهابوه، وكانوا يؤمنون به سرا، فمن آمن به زال عنه الأذى.

فلما زاد الأمر على فرعون أحضر موسى وقال له إن أجبتك ما لي عندك؟ قال أردد شبابك، وأضعف عمرك، وآمنك من جميع العلل، ومن زوال ملكك، وأعلي يدك على من ناوأك من الملوك، وأكثر فيك نشاطك، واكلك وشربك.

قال له فرعون إن فعلت ذلك فقد أنصفت فانظرني إلى غد، ثم شاور هامان فمنعه، وقال له نموت غدا أصلح لنا، قال فلما بئس منه قال فأطلق لي بني إسرائيل قال انما تريد اخراجهم من بلدي لتكون عليهم أميراً ملكا، وانا انتفع بخدمتهم، وهذا حسد منك لي.

قال له موسى عليه السلام فأنتقل على ان لاتدعي الربوبية، قال اذاً أنقص من أعين الناس، قال فان الله سيهلكك ويهلك قومك، وتصير ارواحكم إلى نار حامية، قال فإني أفعل ذلك معك سرا ولا افعله جهراً، وأقرب للآلهة القرابين العظام.

قال موسى عليه السلام إن إلهي لا يرضيه إلا أن يؤمن به الناس أجمعون، فأما أن تؤمن به وحدك سرا دون الناس، فلا يرضيه ذلك ولا يقبله منك سرا حتى تظهره.

قال وإن لم تفعل ذلك فان الله مهلكك واهلك، وعلامة هلاكك أن لا يبقى لك هيكل إلا تهدم ولاصنم إلا خر، وقد خالفت ما دعوتك اليه مراراً كثيرة، وأنا احذرك الخلاف، وإن الله سيعجعل لك العقوبة ولا ينظرك.

ثم إن فرعون طول مطل موسى عليه السلام بما وعده في امر بني إسرائيل، و لم ينجزه، ورأى موسى عليه السلام أنه لا يرجع إلى خير ولا ينفع فيه وعظ، وخاف أن يفجأ بني إسرائيل بايذاء كثير، فعزم على الخروج عنه ببني إسرائيل.

وحضر لبني إسرائيل عيد كانوا يجتمعون فيه، فأمر موسى عليه السلام نساء بني إسرائيل أن يستعرن حلى نساء القبط، ويأخذن منه ما يقدرن عليه من ثيابهن، ويتزين به في عيدهن، ففعلن ذلك، ثم دعونهن في عيدهن فأكلن معهن وشربن.

وكان موسى عليه السلام ابعدهم قليلا إلى المشرق، وأمرأن يبعدوا هنالك، فلما أكلوا وشربوا ألقى الله تعالى على القبطيين رجالا ونساء السبات حتى منعهم من كل شيء.

ثم سار موسى عليه السلام بجميع بني إسرائيل من أول الليل، وكان عددهم ستمائة ألف وأربعين ألفا ونيفا. وأخرجوا تابوت يوسف عليه السلام من النيل وحملوه معهم، دلتهم على موضعه عجوز مؤمنة من القبط، ومضت معهم.

فسار ببني إسرائيل إلى ناحية بحر القلزم ليخفي آثارهم، فلما كان من آخر الليل عرف فرعون بخروجهم، وما فعلوه بنساء القبط من إعارة حليهن إلى الاسرائيليات ودعائهن به، فجلس لوقته ونادى في الناس، فلما اجتمعوا أمرهم أن يتأهبوا للركوب في آثارهم وأجلهم ثلاثة أيام.

وخاطب كل من قرب منهم وبعد من جيوشه وحشوده أن لا يتأخروا عن لحاقه طرفة عين، فلم أصبح في

اليوم الرابع ركب الناس، وركب معهم يتقدمهم واتبعوا آثار بني إسرائيل، و لم يبق أحد من اولاد الملوك ولا من أتباعهم ولا من فيه فضل إلا سار معه، فيقال إنه كمل عددهم، وزاد على موسى عليه السلام ستة آلاف ألف.

فلم يمر موسى عليه السلام بعلم من أعلامهم إلا سقط، ولابصنم إلا سقط لوجهه، وساروا مقربين حتى لحقوهم على ساحل البحر.

فلما أحس موسى عليه السلام بهم، قال لأخيه هارون تقدم إلى البحر وكنه بأبي العماس، ومره ان يكف عنا موجه، ويسكن عنا حركته، حتى أصل أنا ومن معي.

فمضى هارون لذلك، وركب موسى عليه السلام، فلما وقف موسى على البحر ضربه بعصاه فانشق لوجهه، وظهرت فيه اثنتي عشرة طريقة، فدخل كل سبط على طريق، وجعل بينهم طاقات رقيقة من الماء ليرى بعضهم بعضا، فدخل القوم، ودخل موسى عليه السلام في آخرهم.

فلما رآهم في البحر هم بتركهم خوفا من البحر، فأقبل جبريل عليه السلام بفرس بلقاء، فدخل في أثرهم، فلما رآها فرس فرعون اقتحم به في اثرها، فلم يقدر فرعون على إمساكه، لأنه كان حصانا، وقد كان طال عمره.

فلما دخل فرعون اتبعه قومه عن آخرهم، فلم يبق في البر احد منهم فتوسطوا البحر، وقد خرج موسى عليه السلام ومن معه من الناس، فامر الله تعالى جل جلاله جبريل عليه السلام أن يطبق البحر على فرعون وقومه ففعل.

فلما رأى ذلك فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، و لم يقلها صحيح النية. فلما سمعه جبريل عليه السلام رجمه بكف من الحمأة ضرب بها وجهه، وسد بها فاه، خوفا أن يرحمه الله تعالى بذلك القول.

فغرق الجميع و لم يفلت منهم أحد، وحملت أرواحهم إلى النار، ولما هلكوا طرح الله تعالى جملة منهم على عبر البحر، منهم فرعون في موضع مرتفع من الارض، حتى رأوه وعرفوه وبين الله ذلك في كتابه الكريم الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تم وكمل كتاب أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجائب البلدان، والغامر بالماء والعمران، بمعونة الله وقوته، فله الحمد والشكر على ما أولى من النعم الجسام والبر والأنعام. على يد أضعف عباد الله وأحوجهم إلى الرحمة والمغفرة والرضوان عبد الرحمن بن محمد بن محمد البصري سامحه الله وغفر له ولوالديه، ولمن كان السبب في كتابته ولمن قرأ فيه ولجميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات.

ووافق الفراغ في نسخه يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى أحد شهور سنة اثنين وثمانين وثمانمائة أحسن

الله علي بها.

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله آمين آمين آمين وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم استغفر الله الكريم.

الفهرس